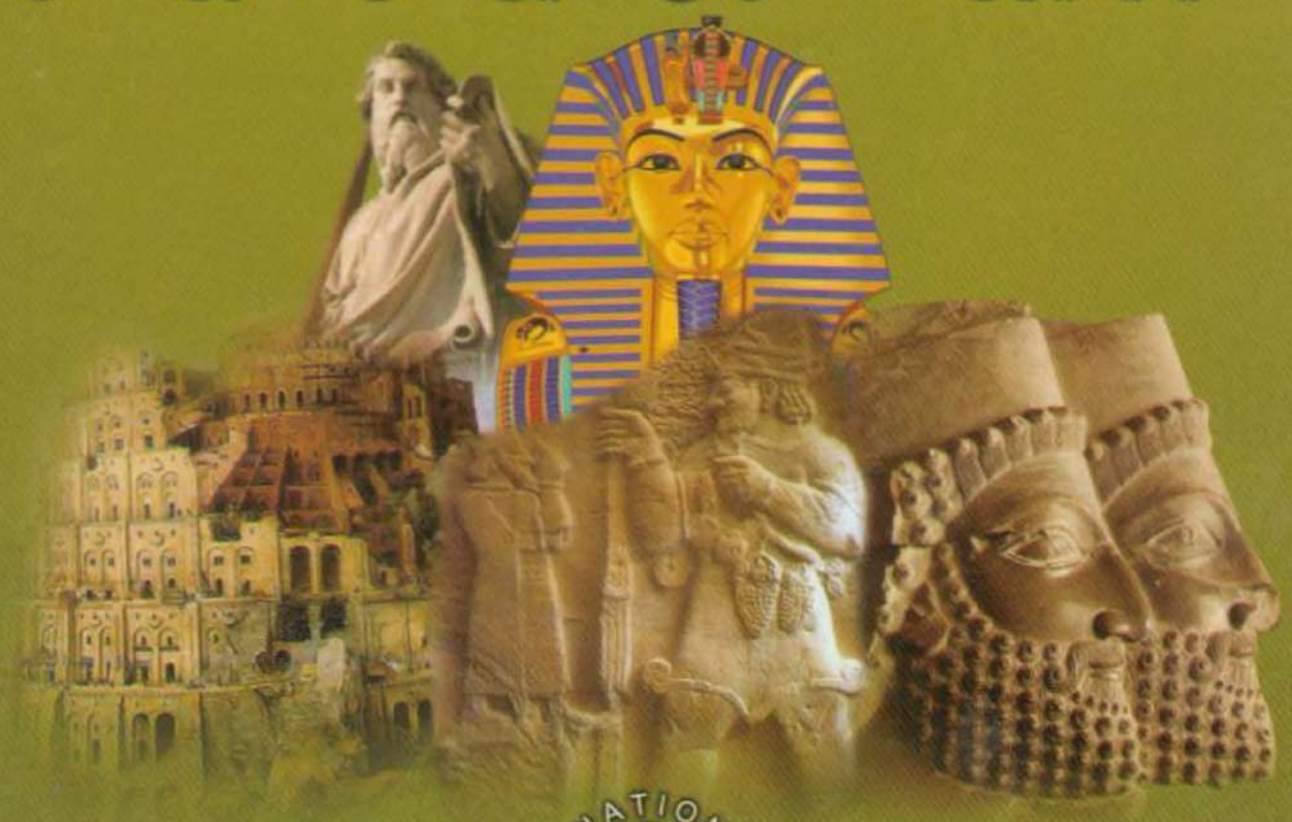
شارل سنيوبوس

تاريخ حضارات العالم

الحضارة الفرعونية - الآشوريون - البابليون
الفينيقيون - الفرس - اليونان - الرومان



INTERNATIONALITY

ترجمة
محمد كرد على

العالمية للكتب والنشر

تاريخ
حضارات العالم

تأليف

المسيو شارل سنيوبوس

أحد أساتذة كلية السوربون في باريس

تعريب

محمد كرد علي

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

تاريخ حضارات العالم

شارل سنيوبوس

الطبعة الأولى :2012

رقم الإيداع : 3304 / 2012

الترقيم الدولى :1- 25 -978-977-5178

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

15 شارع الفاروق عمر بن الخطاب

-الطالبية -فيصل -الجيزة

تليفون :37241803 -فاكس 37241565

محمول :01223595973 -01007265885

Email:alamyah@hotmail.com

جملة للمعرب

بسم الله وبه نتقي

هذا هو الجزء الأول من تاريخ الحضارة لمؤلفه العلامة المسيو شارل سنيوبوس أحد أساتذة كلية السوربون، شرح فيه الحضارة التي أثرت على كل أمة من أمم منذ عرف التاريخ إلى يومنا هذا، وفي هذا الجزء كلام موجز على الشعوب الشرقية القديمة كالمصريين والفينيقيين والبابليين والأشوريين والفرس واليهود وكلام مطول على مدنية اليونان والرومان تصفح المؤلف مئات من الكتب، حتى كتب كتابه فاجتاز مدة مديدة وتوخى الإيجاز والسهولة في معظم مصنفه وبالغ في حسن تنسيقه وتجويد أسلوبه فرأيت أن أنقله من الفرنسية إلى العربية ليعم نفعه أسرها، وهي في هذا الشرق؛ كما هي في الغرب والله أسأل أن ينفع به ويمن بالتوفيق لتعريب الجزئين الآخرين من الكتاب، وهو من أهدافه.

القاهرة في ٢٤ شعبان سنة ١٣٢٦ هـ.

البشر والشعوب

علم خصوصيات الشعوب يعمر الأرض ناس قلما يتشابهون يختلفون بالطول وهيئة الأعضاء والرأس وسيماء الوجه ولون العيون والشعور، ويتباينون باللغات والذكاء والإحساس، وبهذا التمايز ينقسم سكان المعمور إلى عدة أقوام تدعى أجناسا فالجنس مجموع ناس يتماثلون ويباينون جنسا آخر، وما يمتاز به جنس عن غيره من العلامات العامة ويسمى طبائع وأخلاقا هو الذي يتألف منه مجموع خواصه فيعرف الجنس الزنجي مثلا بجلد أسود وشعور مجعدة وأسنان بيضاء وأنف أفطس وشفاه خنس وفك ضخم ويدعى درس أحوال الأجناس، وما يتشعب عنها "إيتنو غرافيا"، أي: علم خصوصيات الشعوب، وهو علم لم يرتق بعد لحداثة وضعه، وما برح مشوشا منتشرا لكثرة مجموع خواص البشر وصعوبة التمييز بينها أحيانا.

الأجناس أخص الأجناس الجنس الأبيض، وهو يسكن أوربا وشمال إفريقية وغربي آسيا والجنس الأصفر ينزل في آسيا الشرقية، ومنهم الصينيون والمغول والترك والمجر، ومن دخل أوربا منهم من الفاتحين فبشرته صفراء وعيونه خرز مقطبة ووجناته ناتئة ولحيته خفيفة والجنس الأسود يقطن أواسط إفريقية، وهم الممتازون بأديم أسود وأنف أفطس ووفرة كالصوف والجنس الأحمر يستوطن أمريكا، ومنهم هنود تلك القارة حمر الأديم سبط الشعور.

الشعوب المتحضرة يعد أهل الجنس الأبيض من المتحضرين إلا قليلا أما سائر الأجناس، فقد ظلوا على حالة الهمجية والبربرية؛ كما كان الناس قبل زمن التاريخ قامت الشعوب المتمدنة على تخوم قارتي آسيا وإفريقية فقام المصريون في

وادي النيل والكلدان في سهل الفرات وكلهم أهل فلح وحرث ألفوا الإقامة وجنحوا للسلم أديمهم مشبع وشعرهم قصير أثيث وشفاههم مبرطمة، ولا يعلم على التحقيق من أين منبعثهم، ولم تتفق آراء العلماء على تسميتهم فيدعونهم تارة كوشيين وأخرى شاميين، وقد انسالت من جبال آسيا بين القرن العشرين والخامس والعشرين ق. م عصابات من الرعاة أهل غارة وزعماء فتنة فانتشروا في أطراف أوربا كافة، وفي غرب آسيا ويقسمهم العلماء إلى قسمين آريين وساميين.

الآريون والساميون ليس بين هذين الجنسين من علامة خارجية جلية فكلاهما من الجنس الأبيض أهليلجية سحناتهم متناسبة أعضاؤهم صافية جلودهم أثيثة شعورهم نجل عيونهم رقيقة شفاههم منتصبة أرنبتهم، وهم في الأصل رعاة من سكان الجبال يألفون الارتحال والقتال ساميهم من أرمينية وآريهم من وراء جبال حملايا، وهم يمتازون بالعقل واللسان خاصة امتيازهم بالديانة قديما، وقد وقع الاتفاق على تسمية الشعوب التي تتكلم لغة آرية بالآريين، وهم الهنود والفرس في آسيا والروم والطليان والإسبان والجرمان والسكنداويون والسلافيون (الروس والبولونيون والصرب) والسلت[1] في أوربا والساميون هم الشعوب التي تتكلم لغة سامية، وهم العرب واليهود والسوريون ومما ينبغي أن يعلم أن بعض الشعوب تتكلم أية آرية، أو سامية، وليست من الآريين والساميين في شيء؛ كما أن الزنجي قد يتكلم الإنكليزية، وليس فيه عرق من الإنكليز وربما عددنا كثيرا من الأوربيين في مصاف الآريين، وليست أصولهم في الواقع إلا من جنس غلب عليه الآريون فاقتبس لغاتهم على نحو ما اقتبس الفرس لغة العرب أيام غلبوهم على أمرهم فهذان الاسمان الآري والسامي يطلقان اليوم على فريقين من الشعوب وليسا جنسين حقيقيين، ولا بأس أن يقال بناء على هذا المعنى: إن الشعوب المرتقية كانت كلها سامية وآرية فنشأ من

---

(١) الانكليز والفرنسيس من السلتيين والجرمانيين

السامين الفينيقيون رجال البحر واليهود رجال الدين والعرب رجال الحرب، فسار فريق من الآريين إلى الهند وانصرف آخر إلى أوربا فنشأت منهم تلك الأمم التي كانت، ولا تزال في مقدمة العالم، ولقد امتاز الهنود في القديم بآرائهم العالية الفلسفية، أو الدينية واليونان بإيجاد الصنائع والعلم والفرس والرومان بتأسيسهم في الشرق والغرب مملكتين عظيمتين من أضخم الممالك التي نشأت في الأيام الخالية.

ويبدأ تاريخ الحضارة بالمصريين والكلدانيين، حتى إذا كان القرن الخامس والعشرون للميلاد يصير عبارة عن تاريخ الشعوب الآرية والسامية.

التاريخ

الأساطير- نقلت أساطير الأولين عن روايات متسلسلة طالما تحدث الناس بها قبل أن يدونوها لذلك تراها مشوبة بحكايات وخرافات فتحدث اليونان أن أقدم أبطالهم أبادوا الغيلان وقاتلوا الجبابرة وكافحوا الآلهة وزعم الرومان أن روملس ربته ذئبة ورفع إلى السماء وقص جماع الشعوب عن طفوليتهم أساطير من هذه القبيل لاثقة بها عند التمحيص مهما قدم عهدها.

التاريخ يبدأ التاريخ حقيقة لدن وجود أخبار صحيحة دونها أهل ثقة وعلو سماع، وليس هذا الدور واحدا في الكلام على الأمم كلها فتاريخ مصر يبدأ قبل ثلاثة آلاف سنة ق.م وتاريخ اليونان يكاد لا يتعدى الثمانمائة سنة ق.م، وليس لألمانيا تاريخ يعرف إلا في القرن الأول للميلاد ويعرف تاريخ روسيا منذ القرن العاشر، وليس لبعض القبائل المتوحشة إلى اليوم تاريخ في نشأتها.

تقاسيم التاريخ الكبيرة- يبدأ تاريخ الحضارة بأقدم شعب متمدن وينتهي بأيامنا فمعنى القرون الماضية الدور العريق في القدم جدا ومعنى القرون الحديثة الدور الذي نحن فيه.

التاريخ القديم يبدأ التاريخ القديم بالأمم القديمة المعروفة من المصريين والكلدانيين، أي: من نحو ثلاثة آلاف سنة ق.م ويعم شعوب الشرق من هنود وفرس وفينيقيين ويهود ويونان ورومان وينتهي حوالي القرن الخامس ب.م بسقوط المملكة الرومانية.

التاريخ الحديث- يبدأ التاريخ الحديث بأواخر القرن الخامس عشر زمان اختراع الطباعة واكتشاف أمريكا وبلاد الهند ونهضة العلوم والصنائع ويلم بذكر شعوب الغرب خاصة من إسبان وطليان وفرنسيس وألمان وروس وأمريكان.

القرون الوسطى هي عبارة عن عشرة قرون مضت بين القرون القديمة والحديثة، فلا هي قديمة لما اعتور الحضارة القديمة من الاضمحلال، ولا هي حديثة؛ لأن التمدن الحديث لم يتكون بعد وهذا ما يدعى بالجيل المتوسط.

مصادر تاريخ الحضارة القديمة- ليس في الوجود اليوم أشوريون، ولا يونان، ولا رومان، فقد بادت الشعوب القديمة كافة، وما خلفوه من العاديات هي فهرست نستفتيه للبحث عن أديانهم وأخلاقهم وصنائعهم والعاديات هي الكتب والرسوم والآثار واللغات وهذه عدتنا في دراسة الحضارة القديمة، وهي تدعى مصادر لأنا نستقي منها معلوماتنا والتاريخ القديم يتفرع من هذه الأصول.

الكتب- وضع القدماء الكتب أيام عرفوا الكتابة، فكان لبعضهم مثل الفرس واليهود والهنود كتب مقدسة وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطبا ومقالات فلسفية وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا إذ ليس لدينا كتاب أشوري، ولا فينيقي أما ما بقي من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جدا، ولقد كان القدماء يكتبون ولكن أقل منا ولذلك كانت تآليفهم أندر، ولم يكن لهم من كل مصنف إلا نسخ قليلة لما أن الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد، وقد دثر غالب هذه النسخ أوضاع، أو تعذرت قراءة ما بقي منه ويسمى علم حالها "باليوغرافيا"، أي: علم الخطوط والكتابات القديمة.

المعاهد- أقامت الشعوب القديمة لأنفسها معاهد مثلنا من مثل معابد

لأربابها وقصور لملوكها وقبور لموتاها وقلاع وجسور وقنوات وأقواس نصر، ولقد تهدم كثير من هذه المعاهد واستؤصل وتجزأ، بيد العدو، أو، بيد سكان البلاد ومنها ما لم تقو الغير على تقويض دعائمه، وما فتئت ماثلة للعيان متداعية مثل القصور العتيقة لانقطاع الأيدي عن تعهدها، وقد بقيت بقية يعلم منها ما كانت عليه سالفا، وما زال بعض هذه المعاهد فوق التراب كالأهرام في مصر ومعابد ثيبة وجزيرة فيلا وقصور البرسبوليس في فارس والبارتينون في اليونان والكوليزة في رومية والبيت المربع وجسر الحرس في فرنسا، وأن السائح لعهدنا لينظر إلى هذه الآثار نظرة لأثر حديث، وقد ردم أغلب هذه المعاهد على التدريج بتراب، أو رمل، أو فتات أرضية وأنقاض فينبغي تخليصها من هذا السلف الكثيف، أو حفر أرضها وكثيرا ما تكون عميقة للغاية، ولم يعثر على القصور الأشورية إلا بخرق آكام وتلال، وقد حفرت حفرة عمقها اثنا عشر مترا للوصول إلى قبور ملوك ميسينا.

وبعد فإن عفاء هذه الخرائب لم يكن بصنع الدهر وحده فللبشر اليد الطولى في ذلك، ولم يكن القدماء ليتعبون مثلنا في التقدير والقياس لإقامة البناء، وما عنوا بنزع الردم من أماكنه بل كانوا يركمون الأنقاض ويبنون عليها، ولا ينزعونها، حتى إذا أشرف البناء الجديد على السقوط تنضم أنقاضه إلى أطلال أخواتها القديمة وهكذا تتألف طبقات عديدة من الأنقاض، وقد جاز أحد السياح المدعو شيلمان بحفرة في مكان مدينة تروادة خمس طبقات من الأطلال إذ كان ثمت خمس مدن خربة كلها وأعمقها على عمق خمسة عشر مترا، وما برحوا يعثرون في رومية في الأحايين على ثلاث بنايات منضدة بعضها فوق بعض، وقد تراكمت عليها الأطلال فملأ التراب في سفح التلال بضعة أمتار.

بقيت مدينة برمتها لم تمسسها طوارق الحدثان وذلك بحادث طبيعي جرى عام ٧٩ للمسيح، وهو أن بركان فيزوف في إيطاليا قذف سيلاً من الحمم مائعة أمطرت رمادا فانكشفت للحال مدينتان رومانيان كانتا مدفونتين، وهما

هيركولانوم وبومبيه كانت الأولى تحت الحمم السائلة والثانية تحت الرماد، وقد أحرقت الحمم المتاع وغشاها الرماد وحفظها من الهواء فبقيت سالمة، وكلما أزيح الرماد تظهر مدينة بومبيه للأعين على نحو ما كانت عليه منذ ثمانية عشر قرنا وأنك لترى في بلاطها بعد مجرات العجلات وآثار سير المركبات وصورا خطت بالفحم في الحيطان ونقشا وأثاثا وماعونا وخبزا وجوزا وزيتونا في الدور والمساكن وهياكل عظام من دهمتهم الكارثة مبعثرة مبددة، وبهذا عرف القارئ أن الآثار والمعاهد تفيدنا كثيرا في الوقوف على حالة الشعوب القديمة ويدعى علم الأزمنة القديمة "أركيولوجيا".

الرسوم- نعني بالرسوم كل ما يشمل الخطوط عدا الكتب فمعظم الرسوم زبرت على الحجر وحفر بعضها في صفائح من القلز ووجد منها في مدينة بومبيه ما زبر على الجدران بالأصباغ، أو بالفحم، وأن بعض هذه الرسوم لتمثل تذكارات وقائع، أو رجال؛ كما هو جار الآن عند الإفرنج فيما يقيمونه من تماثيلهم وبناياتهم هكذا نرى الإمبراطور أغسطس دون حياته على معهد أنسير ومعظم هذه الرسوم عبارة عن كتابات زبرت على القبور ويماثل بعضها الإعلانات لعهدنا فتحتوي على قانون، أو نظام تراد إذاعته بين القوم ويدعى علم الرسوم "إبيكرافيا".

اللغات- تفيد اللغات التي نطقت بها الشعوب القديمة في بيان تاريخهم فإذا فهم الباحث كلمات من لغتين مختلفتين ينجلي له أحيانا أن أصل هذين اللسانين واحد ويسجل بأن الشعوب التي تتكلم بها خرجت من نبعة واحدة. ويدعى علم اللغات "لينكستيك".

النواقص- لا يذهبن ذاهب إلى أن الكتب والمعاهد والأطلال واللغات تكفي للإحاطة بتاريخ القرون السالفة فإن فيها تفاصيل جمة يمكن الاستغناء عنها، وما ترغب نفوس الباحثين في استبطان حقيقته قد يعز عليها ويفر منها، وما برح العلماء يحفرون ويحلون ويظفرون كل يوم بأطلال ومعاهد لم تعرف من قبل،

وقد بقيت مع هذا نواقص وسيبقى كذلك أبد الدهر.

مصر

بلادها- مصر عبارة عن وادي النيل، وهي في مضطرب ضيق خصيب ممتد على ضفتي النهر بين سلسلتين من الصخور طولها ٢٤٠ فرسخا، ويكاد عرضها لا يتجاوز خمسة فراسخ وعند منقطع الصخور تبدأ الدلتا وهناك سهل واسع تتخلله شعب النيل وترعه فمصر؛ كما قال هيردوتس أبو التاريخ هبة من النيل.

النيل- يزخر النيل كل سنة في الانقلاب الصيفي بعصارات ثلوج بلاد الحبشة فيفيض على أراضي مصر العطشى يرتفع ثمانية أمتار وأحيانا عشرة فتصبح البلاد كالبحيرة وتبرز القرى المشيدة على الأكام كأنها جزيرات، ثم تنخفض المياه في أيلول (سبتمبر) ويعود النهر في كانون الأول (ديسمبر) إلى مجراه الأصلي، وقد ترك في كل مكان طبقة من الطين خصبة، وهي الإبلز وتسمى الطمي هذه الرواسب تقوم مقام السماد ويكاد يزرع في التربة الندية بدون حرث فالنيل إذا يأتي مصر بالماء والتربة وإذا تحول عنها تعود مصر كالبلاد المحيطة بها قاعا صفصفا ورمالا مجدبة ما أمطرتها السماء وابلا، ولا رذاذا، ولم يجهل المصريون فيما مضى ما يجود به نيلهم من الخيرات الحسان وهاك نشيدا كانوا ينشدونه تعظيما له "سلام عليك أيها النيل أنت الذي تتجلى على هذه الأرض وتأتي بسلام فتحيي موات مصر أنت إذا انجليت تملأ الأرض طربا والقلوب بشرا فينال كل مخلوق قوته وكل سن ما تقضمه رحماك أنك تأتي بالأرزاق الطيبة وتنتج كل خير ومير وتنبت للبهائم مرعاها.

غنى هذه البلاد- مصر على التحقيق واحة في قفر إفريقية تنبت تربتها البر والفول والعدس وأنواع البقل والنخيل فيها غابات وآجام، وفي تلك المروج التي يرويها النيل بمائه ترعى قطعان الغنم والثيران والعنز والأوز وتكاد مساحتها

تساوي بلاد البلجيك (٢٩٤٠٠ كيلومتر مربع) ومصر اليوم تقوم بأود ١١ مليونا[٢] من السكان، وهي نسبة لا تعهد في أوربا على أن مصر كانت آهلة بالسكان قديما أكثر منها اليوم.

روايات هيرودتس- عرف اليونان مصر أحسن من معرفتهم سائر الممالك الشرقية فزارها هيرودتس أبو التاريخ في القرن الخامس ق.م ووصف في تاريخه فيضان النيل وأخلاق السكان وأزيائهم ودينهم وذكر حوادث من تاريخهم وحكايات لقنها من أدلائه ونكلم ديودور وسترابون على مصر أيضا، بيد أن كل من ذكروها رأوها في انحطاط فلم يتيسر لهم أن يعرفوا شيئا عن قدماء المصريين.

شامبوليون- دعت حملة الفرنسيس على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) إلى فتح أبواب الديار المصرية للعلماء فهرعوا إليها يزورون الأهرام وخرائب ثيبة عن أمم ويعودون منها، وقد حفل وطابهم بالصور والآثار، ولم يكن لأحد أن يحل الخط المصري المسمى بالهيروغليفي وتوهم الناس أن كل خط من هذه الكتابة يقوم مقام كلمة، حتى إذا كان عام ١٨٢١ خالفهم شامبليون أحد علماء الفرنسيس وعمد إلى طريقة أخرى وجاء أحد الضباط من رشيد بأثر ذي خطوط ثلاثة كانت الخطوط الهيروغليفية المسطورة بها مترجمة إلى الرومية وهذا الأثر يمثل الملك بطليموس محاطا بدائرة فتوصل شامبوليون بهذا الاسم إلى الاطلاع على حروف PTOLMIS ولدى مقابلتها بأسماء ملوك أخر، وكانت أيضا محاطة بدائرة اكتشف حروف الهجاء ولما تيسرت له قراءة الخطوط الهيروغليفية ظهر له أنها كتبت بلغة تشبه القبطية، وهي اللغة التي شاعت بمصر على عهد الرومان وعرفت حق معرفتها.

علماء الآثار المصرية- جاء بعد شامبوليون زمرة من العلماء توفروا على

---

(٢) في الأصل زهاء خمسة ملايين نسمة ونصف مليون

دراسة أحوال مصر واكتشاف جليها وخفيها وتدعى هذه الفئة من العلماء إجبتولوك، أي: المشتغلون بالآثار المصرية ولهم رصفاء في ممالك أوربا كافة، وقد أجرى مارنت (١٨٢١ - ١٨٨١) من المشتغلين بالآثار المصرية على نفقة خديوي مصر ما يقتضي من الحفريات وأحدث متحف بولاق وانشأت فرنسا في القاهرة مدرسة لتعليم الآثار المصرية ناطت إدارتها بالمسيو ماسبرو.

الاكتشافات الحديثة- لا يعثر في بلد من بلدان الأرض على خبايا ثمينة كخبايا مصر ودفائنها؛ لأن المصريين كانوا يبنون قبورهم أشبه بدور يضعون فيها ما يقتضي للميت من ضروب الأمتعة والأثاث والرياش والسلاح والطعام، وقد غصت البلاد بالقبور الطافحة بهذه الذخائر والأعلاق وساعد إقليم مصر الجاف الهواء على حفظ هذه الأمتعة سالمة بعد مضي أربعة، أو خمسة آلاف سنة فلم يترك شعب من الشعوب القديمة أثرا كآثار قدماء المصريين، وما عرفنا شعبا معرفتنا له.

المملكة المصرية

قدم الشعب المصري- قال كاهن مصري لهيرودتس: أنتم معاشر اليونان أطفال كلام يفهم منه أن المصريين كانوا يرون أنفسهم أقدم أمم العالم، فقد قامت ست وعشرون سلالة ملكية إلى عهد الفتح الفارسي سنة ٥٢٠ ق. م ترتقي أولاها إلى أربعة آلاف سنة، وكانت مصر دولة في خلال هذه الأربعين قرنا فجعلت منفيس في بلاد الصعيد عاصمتها أولا إلى عهد السلالة العاشرة (وهو دور الدولة القديمة)، ثم صارت مدينة ثيبة في مصر العليا (وهو دور الدولة الحديثة).

منفيس والأهرام- بنى مدينة منفيس أول من ملك مصر وسورها بسور منيع فبقيت سالمة من بوائق الأيام زهاء خمسة آلاف سنة، ثم أخذ السكان أحجار أنقاضها في القرن الثالث عشر وبنوا بها مساكن القاهرة، وما تركوه منها أتى عليه النيل وسدل دونه حجابا أما الأهرام فلا تبعد كثيرا عن منفيس ويرد

عهدها أيضا إلى الدور القديم، وهي قبور ثلاثة ملوك من السلالة الرابعة وعلو أعظمها ١٤٧ مترا عمل في بنائه مئة ألف عامل مدة ثلاثين سنة، وقد أقيمت سدود منحدرة قليلا لرفع الأحجار إلى شاهق، ثم خربت.

التمدن المصري- يدل ما يستخرج من قبور تلك الأعصر من هياكل وصور وأدوات على أن هناك شعبا متمدنا، فقد عرف المصريون قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة للميلاد حراثة الأرض ونسج الثياب وتطريق المعادن والنقش والرسم والخط، وكانت لهم ديانة منظمة وملك وإدارة على حين كانت الأمم النبيهة، وهم الهنود والفرس واليهود واليونان والرومان في حالة من الهمجية مأثورة مذكورة.

ثيبة- خلفت ثيبة مدينة منفيس فصارت عاصمة البلاد على عهد السلالة الحادية عشرة، ولم تزل خرائبها المدهشة في لوح الوجود، وهي ممتدة على ضفتي النيل ومحيطها نحو اثني عشر كيلو مترا، وعلى الشاطئ الشمالي صف من القصور، وهي أقصر والكرنك تبعد بعضها عن بعض نصف ساعة بنيت كلتاهما وسط الخرائب ويجمع بينهما شارع ذو صفين من تماثيل أبي الهول، وكان هناك قديما أكثر من ألف أبي الهول وأعظم هذه المعابد الخربة معبد عمون في الكرنك أحيط به سور محيطه ٢٣٠٠ متر، وأن طول أشهر قصر (إيبوستيل) وأعظمه في العالم مئة ومتران وعمقه ٥٣ مترا، وهو حجم عمود فاندوم، وكانت ثيبة عاصمة ومدينة مقدسة ومقر الملوك ومسكن الكهنة نحو ألف وخمسمائة سنة.

فرعون- يعتبر ملك مصر المعروف بفرعون ابن رب الشمس ومثاله على الأرض ويزعمون أنه كان هو ربا، وقد شوهدت صورة الملك رعمسيس الثاني جالسا بين ملكين فالملك يتعبد إنسانا ويعبد ملكا ولفرعون سلطة مطلقة على البشر لربوبيته فيحكم حكم المولى على سادات قصره، وعلى المقاتلة ورعاياه كافة والكهنة في عبادتهم إياه يلتفون من حوله ويحرسونه فيكون رئيسهم الكاهن

الأعظم للرب عمون المستأثر بالحول والطول دونه، وقد يحكم باسم الملك ويخلفه في الأحايين.

الرعايا- يملك مصر من أعلاها إلى أسفلها الملك والكهنة والجند والموالي، وما عداهم فوصفاء يستخدمونهم في حرث الأرض وعمال الملك يلاحظونهم ويقبضون ثمار عملهم بضرب العصي أحيانا وإليك ما كتبه أحد هؤلاء الموظفين إلى صديق له ألا تذكر حالة الفلاح الذي يحرث الأرض فإن جابي الأموال يقف على الرصيف المعد لجباية عشر الغلات وثلة من العمال بعصيهم يتبعونه وزنوج ماسكون بأيديهم سعفات النخل يصرخون بصوت واحد البدار البدار إلى تسليم الحبوب وإذا لم يكن للفلاح ما يؤديه من الغلات يلقونه على الأرض ويشدون وثاقه ويجرونه في الترعة رأسه إلى تحت وقدماه إلى فوق.

كيفية حكم مصر- كان الشعب المصري أبدا، ولم يزل بعد فرحا لا يهتم خاضعا خانعا أشبه بالطفل المستسلم إلى ظالمه، وكانت العصا في هذه البلاد أداة التربية والحكومة، حتى كان أعوان الملك يقولون (خلق ظهر الفتى ليضرب فهو لا يمتثل الأمر إلا إذا ضرب) ذكر أحد سياح الفرنسيس أنه كان واقفا ذات يوم أمام خرائب ثيبة فهتف قائلا ليت شعري كيف بنوا كل هذا فاستضحك دليله وقال ماسكا بيده مشيرا إلى نخلة: "بهذه بنوا هذا أجمع" اعلم يا مولاي أنه إذا كسرت مئة ألف سعفة من سعف النخل على ظهر من أكتافهم عريانة أبدا تبنى قصور كثيرة ومعابد.

اعتزال المصريين- قلما خرج المصريون من بلادهم لما أنهم حاذروا ركوب البحر ولذلك لم تكن لهم ملاحة، وما اتجروا والشعوب الأخرى، ولم تعرف لهم بحرية إلا على عهد الدولة السادسة والعشرين، وما كانوا أمة حربية قط، ولقد قاد ملوكهم الجند في حروبهم واتخذوا القتال ديدنهم فبعثوا البعوث إلى زنوج الحبش تارة وإلى القبائل السورية أخرى فإذا غلبوا صوروا صورة النصرة على جدران قصورهم ومتى قفلوا راجعين من غزاتهم يأتون بالأسارى فيستخدمونهم

في بناء المعاهد على أنهم ما أحرزوا قط نصرا مؤزرا، ولا فتحوا فتحا مبينا فدهم الأغيار مصر أكثر مما حمل المصريون على الأغيار.

ديانة المصريين

يقول هيرودتس: إن المصريين من أشد البشر تدينا، ولا يعرف شعب بلغ في التقوى درجتهم فيها فإن صورهم بجملتها تمثل ناسا يصلون أمام رب وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتنسك.

الأرباب المصرية- رب الشمس رأس الأرباب (الآلهة) عندهم، وهو الخالق المحسن العليم الكائن منذ البدء له امرأة وابن عريقان مثله في الربوبية، وكان المصريون يعبدون بهذا التثليث الذي تختلف أسماؤه، وإن اتحدت مسمياته، فكان أهل كل إقليم يسمي كلا من هذه الأسماء الثلاثة باسم يختلف عن الآخر ففي منفيس سمي الأب فتاح والأم سيخت والابن إيموتس، وفي أبيدوس سموها أوزيريس إيزيس وهوروس، وفي ثيبة عمون وموت وشونس، ثم اختار أهل كل إقليم أرباب الأقاليم الأخرى، وقد يشتقون من كل رب تثليث أرباب أخرى وهكذا تعدد الأرباب وتشوش الدين.

أوزريس- لهذه الأرباب تاريخ، وهو تاريخ الشمس، فكان هذا الكوكب يتراءى للمصريين؛ كما يتراءى لغالب الشعوب الأصلية إنه أقدم المخلوقات وبعبارة أخرى أنه من الأرباب فأوزوريس، أي: الشمس قتلها سيت رب الليل وإيزيس القمر امرأته تبكيه وتدفنه وهوروس ابنه الشمس الساطعة يأخذ ثأره قاتلا قاتله.

عمون را- هو رب ثيبة عندهم صور مجتازا السماء كل يوم في قارب وأرواح الموتى تقذف به بمجاذيف طويلة فالرب يقف في المقدم مستعدا لضرب العدو برمحه وهاك النشيد الذي كان يتغنى به تعظيما له "السلام عليك أنت تهب محسنا أنت تهب صادقا يا مولى الأفقين انت تطوف السماء من عل وأعداؤك

فالكون السماء في أنس والأرض في فرح والأرباب والناس في عيد وكلها اجتمعت لتمجد "را" يشاهدونه في قاربه، وقد كسر العدى يا را هب فرعون حياة طيبة وامنحه ما يقوته من خبز، وما يرويه من ماء وطيب شعره وعطر أردانه".

أرباب رأسها رأس حيوان- مثل المصريون أربابهم في صورة آدمية تارة، وعلى مثال البهيمة أخرى ولكل رب حيوانه فيتجسد فتاح في الجعل وهوروس في الباشق وأزوريس في الثور وتختلط الصورتان طورا في إنسان رأسه رأس حيوان، أو في حيوان رأسه رأس إنسان وللرب عندهم أن يكون ذا أربع صور وأشكال فيكون هوروس مثلا باشقا، أو إنسانا برأس باشق، أو باشق برأس إنسان.

حيوانات مقدسة- لا يعلم لماذا كان يعتني المصريون بهذه الإشارة من اتخاذ الحيوانات التي تشبه الأرباب مقدسة مباركة مثل الثور والجعل وايبس (طائر طويل الرجل) والباشق والقط والتمساح فيتوفرون على إطعامهم وحمايتهم، فقد قتل أحد الرومانيين في القرن الأول قبل الميلاد قطا في الأسكندرية فثار الشعب وقبض عليه فذبحوه رغم إرادة الملك وشفاعته فيه فعلوا ذلك على حين يرهب المصريون بأس الرومانيين كثيرا، وكان للمصريين رب يعبدونه في كل معبد، وقد قص سترابون كيفية زيارته تمساحا مقدسا في ثيبة فقال: كان هذا الحيوان رابضا على شط غدير فاقترب منه الكهنة وتقدم اثنان منهم ففتحا فمه وجاء ثالث وحشاه حلويات وسمكا مشويا وشرابا من عسل مصفى.

الثور ايبيس- أجل هذه الحيوانات المربوبة، أو المؤلهة الثور ايبيس فإنه كان يمثل اوزوريس وفتاح معا ويعيش في منفيس في مصلى له يخدمه الكهنة فيه، حتى إذا مات هذا الثور يكون حاله حال أوزوريس (رب الشمس) فيحنط وتجعل مومياؤه في ناووس، أما قبر أوسار هابي فهو من المعاهد الهائلة، وقد فتح ماريت الفرنساوي مقبرة السرابيوم عام ١٨٥١.

عبادة الموتى- عبد المصريون أيضا أرواح الموتى ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أولا أن لكل إنسان قرينا (كا) فإذا مات يخلفه قرينه في حياته، وهو اعتقاد

اعتقده كثير من الشعوب المتوحشة، وكان القبر المصري يدعى قديما "بيت القرين"، وهو عبارة عن مكان منخفض منظم كالغرفة يزين من أجل القرين بضروب الآثار من كراسي ومناضد وسرر وصناديق وأصونة وأغشية وأقمشة وألبسة وأدوات زينة وأسلحة ويضعون تارة مركبة حربية، وما شاء للذته من تماثيل وصور وكتب ولطعامه من بر وكل ما حلا بالعين وحلي بالفم ويضعون فيه طورا قرين الميت، وهو تمثال من خشب، أو حجر صنع على صورته ومثاله، ثم يسور مدخل الناووس فيبقى فيه القرين ويعنى الأحياء بأمره فيجلبون له طعاما، أو يتوسلون إلى أحد الأرباب أن يرزقه طعاما على نحو ما تراه في هذا الرسم المزبور على الحجر (قربانا لأوزوريس ليعطى زادا من خبز وشراب وثيران وأوز ولبن وخمر وجعة ولباس وعطور وكل ما طاب وصفا إلى المتوفى فلان) حشر الأرواح أنشأ المصريون منذ السلالة الحادية عشرة يعتقدون أن الروح تنفصل عن الجسد وتلحق بأوزوريس تحت الأرض، حيث تغيب الشمس كل يوم فيما يظهر هناك يتصدر أوزيريس في محكمته، وقد أحاط به أربعة وعشرون محكما فيؤتى بالروح أمامهم فتحاسب عما قدمته بين يدي نجواها في الحياة فتوزن أعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب فيهتف الميت قائلا: "يا قلب إني ورثتك عن أمي منذ درجت على الأرض فلا تقم على شاهدا تتجنى علي أمام الرب المتعال" فالنفس الشريرة تعذب قرونا، ثم تهلك والنفس الطيبة تطير أحقابا وبعد محن كثيرة تنضم إلى زمرة الأرباب وتفنى فيهم.

المومياءت- تستطيع الروح في خلال هذه الزيارة الدخول في الجسد لتستريح ولذا أقتضى أن يظل الجسد سليما، ومن أجل ذلك تعلم المصريون طريقة تحنيط الجثث فيملأون الجثث عنبرا ويغطسونها في مستحم من النطرون ويعصبونها بعصيبات فتصير مومياء هكذا توضع المومياء في تابوت من خشب، أو جبس وتودع في القبر مصحوبة بما يقتضي لها من ضروريات الحياة.

كتاب الأموات- كان يوضع بجانب المومياء كتاب صغير اسمه كتاب

الموتى يذكر فيه ما ينبغي للنفس أن تقوله في العالم الثاني دفاعا عن نفسها أمام محكمة أوزيريس، وهو "ما ارتكبت خيانة، وما عذبت أيما، وما ارتكبت محرما، ولا ألفت البطالة، ولا وشيت بالعبد إلى مولاه، ولا حبست الخبز عن المعابد، ولا سرقت عصيبات الموتى، ولا طعامهم، ولا طففت مكاييل الحبوب، ولا صدت الحيوانات المقدسة، ولا قبضت الأسماك المقدسة أطعمت الجوعان وأسقيت العطشان وكسوت العريان وقدمت الضحايا للأرباب وصنعت الوضائم للموتى أهـ". وهنا تستبان حكمة المصريين، وهي الاحتفاظ بالرسوم والتكاليف واحترام ما له علاقة بالأرباب، وأن يكون المرء مخلصا محتشما محسنا.

الصنائع

الصناعة- المصريون أول من مارس الصنائع التي تمس حاجة الشعب المتحضر إليها فكانت الصور في القبور من عهد السلائل الأولى، أي: من نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تمثل ناسا يحرثون ويزرعون ويحصدون ويدرسون ويذرون الحبوب وقطعانا من ثيران وخرافا وأوزا وخنازير وأعيانا حسنة ثيابهم واحتفالات وأعيادا يحتفل فيها بضرب العيدان، أي: كما كانت حياة هذه الأمة بعد ثلاثة آلاف سنة حذو القذة بالقذة، وقد عرف المصريون لذاك العهد صنع الذهب والفضة والقلز والأسلحة والحلي والزجاج والخزف والمينا ونسج الثياب من صوف وكتان وأنسجة شفافة، أو موشاة بالذهب.

عقود الأبنية- كان المصريون أقدر البنائين القدماء في العالم أقاموا المعاهد العظيمة، حتى صارت كأنها خالدة بحيث لم يقو الزمن لعهدنا على تقويضها وتبديدها، ولم يبنوا مثلنا بيوتا لسكن الأحياء بل كانت مبانيهم خاصة بالأرباب والموتى فيبنون لهذا الغرض المعابد والمقابر، ولم يبق في مساكنهم إلا رسوم محيلة أما قصور الملوك فلم تكن على قول اليونان غير خانات بالنسبة للقبور ذلك: لأن المسكن يبنى ليأوي إليه الإنسان في حياته والقبر يبقى خالدا على

الدهر.

القبور- أصل الهرم الكبير قبر ملوكي والقبور القديمة هي من هذا النوع وترى في مصر السفلى إلى اليوم أهراما مصطفة كالشوارع، أو مبددة هنا وهناك تختلف في الكبر والصغر، ثم صارت تقام القبور تحت الأرض يعمر بعضها تحت التراب وينحت الآخر من حجر الصوان "الكرانيت" في الجبال ولكل جبل قبور جديدة، وكانت مدينة الموتى، أي: مدافنهم على مقربة من مساكن الأحياء ولكنها أزهى وأوسع.

المعابد يتطلب الأرباب كذلك مساكن طيبة خالدة وتتألف معابدهم من هيكل جميل، وهو مأوى الرب تكتنفه القصور والحدائق وغرف الكهنة وحاشيتهم ودروج جواهرهم وأدواتهم وملابسهم، وقد صنع مجموع هذه الأبنية المسورة في عصور كبيرة فاشترك ملوك من جماع السلائل المصرية في تشييد معبد عمون في ثيبة من السلالة الحادية عشرة إلى السلالة الأخيرة، ومن العادة أن يفتح في أول المعبد باب عظيم محني الجوانب وتقام على طرفيه مسلتان مبنيتان بشغاف الصخر مذهبة الأطراف، أو تمثالان من الحجر على مثال جبار جالس، وقد يوصل إلى المعبد من طريق طويل نصبت في جوانبه تماثيل أبي الهول مصنوعا من الحجر على صفين هذه الأهرام والمنحنيات والتماثيل وأبو الهول والمسلات تنبئ بما بلغه المصريون من العناية بعقود الأبنية وكلها ثخينة قصيرة عميقة، حيث تبدو هذه المعاهد ضخمة لا يبليها الدهر، ولا تفنيها الغير.

صناعة النحت- حاكى النحاتون من المصريين الطبيعة بنقوشهم، وأن الناظر ليدهش من أقدم التماثيل لما فيها من الحياة والبساطة، ولا شك أنها كانت صور الموتى، ومن هذا الجنس صورة ذاك العامل الجاثي المحفوظة في متحف اللوفر بفرنسا، وعلى عهد السلالة الحادية عشرة تقيد النحات بقاعدة مقررة دينية فلم يعد يمكنه تمثيل الجسم الإنساني على حسب ما يظهر له وأخذت التماثيل منذ ذاك العهد تتشاكل، وغدت السوق متآزية والأرجل ملتفة

والأذرع مشتبكة على الصدور والهيئة غير متحركة لكنها مهيبة وأبدا ذات جلال ومتحدة في المنوال، فانقطعت هذه الصناعة عن محاكاة الطبيعة وغدت رمزا متفقا عليه.

الرسم- استعمل المصريون أصباغا لا تنصل بقيت باهية زاهرة بعد مضي خمسة آلاف سنة عليها على أنهم لم يعرفوا غير تلوين الرسم وظلوا، ولا خبرة لهم بتنويع الألوان، ولا رسم الظلال والأشباح البعيدة، وكان للرسم؛ كما للنقش قواعد دينية مطردة فإذا عرض على صانع أن يرسم خمسين شخصا يصورهم على هندام واحد ونظام واحد.

الآداب- للمصريين آداب خاصة بهم، فقد عثر في النواويس على كتب طب وسحر وزهد؛ كما عثر على قصائد ورسائل ورحلات وروايات.

مصير التمدن المصري- احتفظ المصريون بأربابهم ودينهم وصنائعهم إلى ما بعد سقوط مملكتهم فخضعوا للفرس، ثم لليونان، ثم للرومان، ولم يطرحوا شيئا من عاداتهم القديمة، ولا نسوا خطهم ومومياءهم وحيواناتهم، ثم دثر التمدن المصري ببطء بين القرن الثالث والثاني ب.م.

الأشوريون والبابليون

بلاد الكلدان

وصفها- ينبجس من قمم جبال أرمينية المغطاة بالثلوج نهران سريع جريهما بعيد غورهما، وهما الرافدان دجلة والفرات الأول من الشرق والثاني من الغرب يتقاربان أولا، ثم يتباعدان عند بلوغهما السهل فيستقيم دجلة في جريته وينعطف الفرات في صحاري الرمال، ثم يجتمع النهران قبل أن يصلا إلى البحر، فالبلاد التي يجتازها هذان النهران هي بلاد الكلدان سبسب من صلصال تمطره السماء قليلا، وتشتد فيه الحرارة والقيظ، بيد أن الأنهار تسقي بجداولها هذه

الأرض الصلصالية فتصيرها من أخصب بقاع الأرض وأنبت قيعانها، وأن حبة القمح والشعير لتأتي مئتين، وفي أعوام الرخاء ثلثمائة والنخيل في تلك البلاد غابات غبياء يستخرج منه الخمر والعسل والطحين.

الأمة الكلدانية- باكرت الحضارة بلاد الكلدان في العهد الذي باكرت فيه مصر فسكنتها شعوب متمدنة، وقد هاجر إليها عدد من الأجناس من أصقاع كثيرة فاجتمعوا وامتزجوا في هذه السهول الفسيحة الأرجاء جاءها من الشمال الشرقي ناس من النورانيين أهل اللون الأصفر، وهم يشبهون الصينيين وأتاها من الشرق طائفة من الكوشيين ولونهم أسمر قاتم، وهم أنسباء المصريين ونزل إليها من الشمال فئة من الساميين وألوانهم صافية، وهم أقرباء العرب فتألف الشعب الكلداني من هذا المزيج.

مدنها- زعم كهنة الكلدان أن ملوكهم تبسطوا في مناحي السلطة منذ مائة وخمسين ألف عام، وهو زعم خرافي يعذرون عليه؛ لأن الحامل لهم عليه توغل مملكة الكلدانيين في القدم هذه الأرض تتخللها هضاب وآكام كلها كومة أنقاض من بقايا بلد عفته طوارق الدهر، وقد فتح كثير منها وأخرجت منه عدة دفائن مثل "أور" و"لارسام" و"بال ايلو" وظفر الباحثون بعدة آثار، وما برح أمر هذه الشعوب مستورا عن الأنظار مجهولة حقيقتهم على أرباب الأفكار على أنه من المأمول أن يظفروا بكتابات جديدة في الأماكن الكثيرة التي لم تتناولها الأيدي بالحفر واستخراج الدفائن وبعد، فقد دعت هذه الأمم نفسها بالسوميريين والأكاديين وانقرض ملكهم حوالي سنة ٢٣٠٠ قبل المسيح، وربما كانت إذ ذاك في إبان قدمها فيرد عهدها إذا إلى ثلاثين قرنا قبل الميلاد على الأقل.

الآشوريون

آشور- هذه البلاد واقعة وراء بلاد الكلدان على شاطئ دجلة، وهي مخصبة التربة قائمة على تلعات كثيرة فيها وأحادير تخترقها هضاب وتتخللها صخور

تثلج فيها السماء في الشتاء لقربها من الجبال، وتهب عليها الأعاصير في الصيف.

أصولهم- زخر بحر العمران في بلاد الكلدان، فكان فيها أمصار عاش فيها الأشوريون خاملين في جبالهم، وقد أغار ملوكهم بجيوشهم الجرارة في القرن الثالث عشر على السباسب والفدافد فأسسوا مملكة ضخمة عاصمتها نينوى.

أساطير قديمة- لم نكد نعرف عن الأشوريين منذ أربعين سنة إلا قصة ذكرها ديودورس الرومي من أهل جزيرة صقلية، وقيل: إن نينوس بني مدينة نينوى وافتتح آسيا الصغرى جملة واستخضعت امرأته سميراميس بلاد مصر، وكانت من الأرباب فاستحالت بعد حمامة فخلفها ملوك خاملون مدة ١٣٠٠ سنة حوصر آخرهم في عاصمته واسمه سارداناپال فحرق نفسه ونساءه إلى ما شاكل ذلك من الأقاصيص التي قل فيها الصدق وأعوزت كلمة الحق.

نينوى- هذا ما عرف عن مملكة أشور القديمة إلى أن اكتشف المسيو بوثا قنصل فرنسا في الموصل سنة ١٨٤٢ أطلال قصر عظيم بالقرب من قرية خراساباد الحقيرة، وقد غشيتها رمال صيرتها رابية وهذه هي المرة الأولى التي شوهدت فيها الصناعة الأشورية بمظهرها وجدت الثيران المجنحة بالأحجار سالمة ماثلة على باب القصر، وقد جيء بها إلى باريز فجعلت في متحف اللوفر، ولقد استلفت بوثا بحفرياته أنظار أوربا فأنفذت بعثات كثيرة وخصوصا الإنكليز توفر بالاس وليارد على الحفر في آكام أخرى فاكتشفت قصور غير هذه سلمت هذه الخرائب لجفاف الهواء في تلك الأرجاء وبما غشيها من طبقات التراب، ثم إنه عثر على جدران مغشاة بنقوش بارزة وصور وتماثيل وكتابات كثيرة فتسنى درس حال تلك العمارات في أماكنها وأخذت عنها صور المعاهد والنقوش وأول ما اكتشف قصر خراساباد، وهو الذي بناه الملك سراغون مكان نينوى عاصمة ملوك أشور، وهي قائمة على عدة هضاب يحيط بها سور ذو أبراج مربع الأضلاع ذرعه ٢٦٠ غلوة (نحو ٤٣ كيلو مترا)، وقد بني خارج الجدران بالقرمد وداخله تراب مهيل أما دور المدينة، فقد دثرت، ولم يبق منها أثر ضئيل، ولا رسم محيل، بيد أنه ظهرت عدة

قصور شادها غير واحد من ملوك أشور، وقد ظلت نينوى عاصمة الملوك إلى أن أوغل الماديون والكلدانيون في أحشاء مملكة أشور ومزقوها شذر مذر.

كتابات القرمد- يتألف كل حرف في الكتابات الأشورية من مجموع علامات على شكل سهم، أو زاوية ولذلك دعي هذا الخط بالخط المسماري، وكانوا يستعملونه خنجرا مثلث النصل في آخره حد مثلث الأضلاع لرسم هذه العلامات يبلونه في صحيفة من الخزف الرطب، ثم يدخلونه التنور فيصير صلدا لا ينمحي أثره، وقد كشفت في قصر اسوربانيال مكتبة تامة من الصفائح قام فيها القرمد مقام الورق.

الخط المسماري- غالى جملة من الرجال في حل هذا الخط أعواما كثيرة فتعذرت عليهم قراءته إذ كان لأول عهده يستعمل في كتابة خمس لغات متباينة، وهي الأشورية والسوسية والمادية والكلدانية والأرمينية دع عنك الفارسية القديمة، وكانت تلك اللغات مجهولة فدامت اللغة التي نتكلم عليها الآن مشوشة كل التشويش لأسباب عديدة أهمها تركبها من خطوط رمزية ينوب كل منها مناب كلمة مثل "شمس" "رب" "سمك"، ومن خطوط ذات مقاطع، ولأن لهذه اللغة مائتي خط ذي مقاطع يتشاكل بعضها مع بعض ويسهل التباسها وإشكالها، ولأن الخط الواحد كثيرا ما ينوب عن كلمة وعن مقطع، ولأن الخط الواحد يقوم مقام مقاطع مختلفة بمعنى أن خطا واحدا يقرأ "ايلو" تارة "وآن" طورا، وهو أصعب هذه الصور وأشكلها.

كان هذا الخط عسرا، حتى على من يكتبونه، ونصف ما لدينا من الآثار المسمارية هو كتب إرشادات من نحو ولغة وصور مما ساعد على حل النصف الآخر، فتأتى الرجوع إليها في حل المشكلات على ما كان عليه شأن المتعلمين في مملكة أشور منذ ٢٥٠٠ سنة، وقد أفلح العلماء في حل الكتابات الأشورية، كما أفلحوا في حل الكتابات المصرية فكانت لهم كتابة مستطيلة في لغات ثلاث أشورية ومادية وفارسية ونفعت الفارسية في حل غيرها.

الشعب الأشوري- فطر الأشوريون على حب الصيد والحرب، وأن نقوشهم لتمثلهم مدججين بالأقواس والرماح راكبين صهوات الخيول بحيث ساغ أن يوصفوا بأنهم كماة مجال وأبطال يحسنون الكر والفر، وإن استوى في أعينهم رواحهم إلى مناوشة ومغداهم في حرب زبون، ولقد عرفوا بالخيانة وسفك الدماء فوطئوا آسيا ستة قرون وخرجوا من جبالهم يغيرون على جيرانهم ولطالما آبوا من غزواتهم، وقد أسروا شعوبا بأجمعها والظاهر أنهم يناشبون غيرهم القتال لمحض حب السفك والتدمير والنهب، فإنهم أشد خلق الله بأسا وأقساهم قلوبا.

الملك- رأى الأشوريون لملكهم الخلافة عن الله في الأرض جريا على العادة الأسيوية فأطاعوه طاعة عمياء وبذلوا في حبه مهجهم، فكان الملك عندهم سيدا مطلقا في حكمه رعاياه مهما اختلفت طبقاتهم يدعوهم إلى حمل السلاح تحت لوائه فيقاتل بهم شعوب آسيا، حتى إذا قفل منصورا يصور مآثره على جدران قصره ذاكرا انتصاراته، وما ناله من الغنائم وحرقه من المدن وذبحه من الأسرى وسلخه من أحيائهم.

الحملات- إليك بعض فقرات من نشرات الحروب قال اسورنازيرهابال عام ٨٨٢: إنني عمرت جدارا أمام أبواب المدينة العظمى وسلخت جلود زعماء الثورة وغطيت هذا الجدار بجلودهم، وقد دفن بعضهم أحياء في أساس البناء وصلب فريق آخر وجعلوا على أوتاد في الحائط وسلخت جلود كثيرين في حضرتي وكسوت الحائط بها وجمعت رؤوسهم على هيئة التيجان وضممت جثثهم إلى أشكال الأكاليل.

وكتب توكلابالازار عام ٧٤٥ ما نصه حبست الملك في عاصمته ورفعت كوما من الجثث أمام الأبواب هدمت مدنها كلها ودمرتها وأحرقتها، وأقفرت البلاد وصيرتها آكاما وقاعا صفصفا ينعق فيها بوم الخراب، وقال سنحاريب في القرن السابع: "انطلقت كالعاصفة المدمرة فسبحت السروج والأسلحة في دماء الأعداء كأنها في نهر والتراب مبلل وجمعت جثث جندهم: كما تجمع الغنائم ويترت

أطرافهم وقضقضت عظام من أخذتهم أحياء على نحو ما نقصف التبنة وقطعت أيديهم عقابا لهم بما جنت أيديهم". هذا وقد صورت في إحدى النقوش التي تمثل مدينة سوس، وهي ترد إلى عهد اسوربانيبال وشوهدت فيها رؤوس المغلوبين يعذبهم الأشوريون، وقد صلمت آذان بعضهم وسملت أعين آخرين ونتفت لحاهم وهناك رجل يسلخ جلده، وهو حي مما دل على أن أولئك الملوك كانوا يرتاحون إلى ما يتم على أيديهم من الحرائق والمذابح والعذاب.

خراب المملكة الأشورية- بدأت هذه الطريقة في الحكم في القرن الثالث عشر زمن الاستيلاء على بابل وذلك نحو ٧٧٠ وظل الأشوريون منذ القرن التاسع يسرحون الحملات ويشنون الغارات، حتى أخضعوا- وإن شئت فقل: خربوا- بلاد بابل وسورية وفلسطين ومصر، وكان المغلوبون يثورون في غضون تلك المدة بلا انقطاع والمذابح قائمة على ساق وقدم، ثم ضعفت قوى الأشوريين واتحد البابليون والماديون فقلبوا عرش مملكتهم نينوى عاصمة بلادهم سنة ٦٢٥، وهي المدينة التي سماها أنبياء بني إسرائيل "عرين الأسد" ومدينة الدم والغنيمة فتيسر الاستيلاء عليها وخربت، فلم تقم لها قائمة بعد، قال النبي ناحوم: (خربت نينوى فمن يشفق عليها يا ترى).

البابليون-

المملكة الكلدانية- قامت مملكة أشورية جديدة مكان بلاد الكلدان القديمة الداثرة دعيت مملكة البابليين، أو المملكة الكلدانية الثانية، وقد تكلم أحد أنبياء إسرائيل على لسان الرب فقال: "أنا أحيي الكلدان تلك الأمة الظالمة وسرعان ما تطوف الأرض للاستيلاء على مساكن غيرها، وأن خيولها لأخف سيرا من النمر وفرسانها لينتشرون في الأطراف ويطيرون كالنسر ينقض على قنيصته" وبالجملة، فقد ألف الكلدانيون الفروسية والحرب والفتح، وهم يماثلون الأشوريين كل المماثلة فاستولوا على بلاد الفرس والجزيرة وبلاد اليهود وسورية،

وكانت مدة حكمهم قصيرة، فقد أنشئت المملكة البابلية سنة ٦٢٥ وأبادها الفرس سنة ٥٣٧ ق.م.

بابل- كان بختنصر (٦٠٤ - ٥٦١) من أقدر ملوكها، وهو الذي خرب بيت المقدس وساق اليهود أسرى وأسس في بابل عاصمة بلاده كثيرا من المعابد والقصور أقيمت هذه المعاهد بالآجر لقلة الحجر في سهل الفرات، ولما كتب عليها الدثور والعفاء لم يبق منها إلا أكوام من التراب والأنقاض، وقد عثر في المكان الذي كانت فيه بابل على بعض كتابات فعرفت هيئة المدينة، بيد أن هيرودتس اليوناني وصف بابل وصفا مسهبا، وكان زارها في القرن الخامس ق.م فإذا هي محاطة بسور مربع يشقه الفرات، وكانت المدينة تشغل حيزا من الأرض مساحته ٥١٣ كيلومترا مربعا (أي سبعة أضعاف مدينة باريز)، ولم تكن كل هذه البقعة الفسيحة الأرجاء عامرة بالدور والمساكن بل كان يتخللها حقول مزروعة تقوم بأود السكان آونة الحصار فكانت بابل من ثم أشبه بمعسكر حصين منها بمدينة، وفي جدرانها أبراج ولها مئة باب من النحاس الأصفر، وكان سمكها صالحا لمرور مركبة عليها، وفي حيال السور خندق عريض عميق مليء ماء وسترات حافاته بالقرمد، وكانت دورها ذات ثلاث طبقات، أو أربع والشوارع وسطها زوايا قائمة، وما أعجب بناء جسر الفرات وأرصفته والقصر الحصين والجنان المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع وهذه الجنان سطوح مغروسة بالأشجار قائمة على عمد وقباب مصفوفة طبقات الأولى بعد الثانية.

برج بابل- بنى بختنصر في طرف المدينة برج بابل، وقال في إحدى كتاباته: "لقد جددت أعجوبة بورسيبا (من ضواحي بابل) ليعجب الناس منها، وهو معبد السيارات السبع في الدنيا فأعدت تأسيسه على النحو الذي كان عليه في الأزمان السالفة"، وهذا المعبد على شكل مربع مؤلف من سبعة أبراج بعضها على بعض وخص كل برج بإحدى السيارات السبع وصور باللون الذي اختاره الدين لتلك السيارة، وهذه الألوان إذا بدئ بها من الأسفل فهي زحل (سواد) والزهرة (بياض)

والمشترى (أرجوان) وعطارد (أزرق) والمريخ (قرمزي) والقمر (فضي) والشمس (ذهبي)، وكان في أعلى الأبراج مصلى ومنضدة من ذهب وفراش وثير تسكن إليه كاهنة.

أخلاقهم ودياناتهم

أخلاقهم- لا نعرف هذه الشعوب إلا بمعاهدها ومعاهدها تكاد لا تتعدى أعمال ملوكها فلا ترى الأشوريين أبدا إلا، وهم مصورون في حرب، أو في صيد، أو في احتفالات، وما صور نساؤهم قط إذ كن جلس بيوتهن لا يخرجن للناس، وعلى العكس في الكلدان، فإنهم كانوا أهل حراثة وتجارة ولكننا لا نعرف شيئا عن حياتهم يقول هيرودتس أن هذه الأمة كانت تجمع البنات في مدنها مرة واحدة في العام لتزويجهن فيبيعون الجميلات منهن ويؤخذ ثمنهن ليعطى جهازا إلى مشوهات الخلقة، قال: وعندي أن هذا القانون من أحكم ما وضع من القوانين والشرائع.

ديانتهم- دين هاتين الأمتين واحد فالأشوريون تمذهبوا بمذهب الكلدانيين، وقد التبس علينا هذا الدين؛ لأنه نشأ كدين الشعب الكلداني من مزيج ديانات متباينة مشوشة كلها، فكان التورانيون يعتقدون على نحو ما تتوهمه قبائل سبيريا الصفر أن العالم غاص بالشياطين (مثل الطاعون والحمى والأشباح والعفاريت) دأبها تربص البشر بالشر والأخذ بمخنقهم ولذلك تراهم لا يلجئون إلى السحرة ليطردوا عنهم هاته الشياطين برقياتهم، وكان الكوشيون يعبدون ربين ذوي أقنومين الذكر، وكان القوة بزعمهم والأنثى، وهي المادة، وكان الكهنة الكلدان، وهم مجموع طوائف قوية من المنعة بحيث ساغ لهم أن يعنوا بتوحيد الدينين.

الأرباب- الرب المتعال هو ايلو في بابل وأسور في أشور وقلما يقيمون له معبدا ومنه يشتق ثلاثة أرباب، وهم أنو رب الظلمة وصورته صورة رجل وذنب نسر

معصب رأسه برأس سمكة ويعل ملك الأرواح مصور كالملك على عرشه ونواح، وهو العالم المنظور هيئته هيئة جبار ذي أربعة أجنحة منتشرة ولكل من هذه الأرباب ربة أنثى إشارة إلى كثرة الأولاد والذراري، ثم ترد من أسفل صور القمر والشمس والسيارات الخمس والكواكب، وفي هواء بلاد الكلدان الشفاف يضيء سناها إضاءة لم تعهدها فتتلألأ كالأرباب، وقد أقام الكلدانيون معابدهم باسم هذه الأرباب، وما هي في الحقيقة إلا مراصد يتمكن منها المتعبد من مراقبة سير الأفلاك.

علم التنجيم- ذهب الكهنة إلى أن هذه الكواكب أرباب عظيمة تعمل عملها في حياة الإنسان فكل امرئ يولد في الدنيا في طالع كوكب من الكواكب فيتأتى التنبؤ بسعده إذا علم الكوكب الذي ولد في طالعه، ومن هنا نشأ علم التنجيم والفأل فما يحدث في السماء علامة على ما سيحدث على الأرض فالنجمة المذنبة مثلا تنبئ بحدوث ثورة ويعتقد كهنة الكلدانيين أنهم إذا رصدوا القبة الزرقاء وسياراتها يتنبأون بالحوادث، وهذا أصل التنجيم.

علم السحر- للكلدانيين ضروب من الرقى والطلسمات يدمدمون بها لطرد الأرواح، أو استحضارها، وهذه العادة من بقايا ديانة التورانيين، وهي أصل السحر نشأ علم السحر والتنجيم في بلاد الكلدانيين وانتشر في أفق المملكة الرومانية، ثم تعداها إلى بلاد أوربا عرف ذلك من تتبع القوانين السحرية في القرن السادس عشر، وكان فيها إذ ذاك كلمات أشورية محرفة.

العلوم- نشأت علوم النجوم في بلاد الكلدان فمنها عرفنا منطقة البروج وتألف الأسبوع من سبعة أيام إكراما للسيارات السبع وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهرا واليوم إلى أربعة وعشرين ساعة والساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية وعنهم أخذنا طريقة الأوزان والمكاييل محسوبة على مقياس الطول مما ألف بالاستعمال عند الشعوب القديمة كافة.

الصنائع

علم عقود الأبنية- لا نعرف صنائع الكلدانيين حق معرفتها إذ قد سجل العفاء على معاهدهم، وقد حذا أهل الصنائع من الأشوريين ممن رأينا صنائعهم حذو الكلدانيين، فصح الحكم على المملكتين جملة واحدة كان الأشوريون يبنون كالكلدانيين بآجر مجفف بالشمس ويغشون ظواهر الأبنية بالأحجار.

القصور- أقام الكلدانيون قصورهم على آكام صناعية جعلوها واطئة مسطحة تشبه سطوحا كبيرة واقتضى جعل العلالي والغرف ضيقة واطئة واكتفى بتطويلها كثيرا؛ لأن الآجر لم يكن لينفع في بناء القباب المنبسطة العالية، فالقصر الأشوري يشبه سلسلة أروقة ودهاليز والسقوف سطوح ممتدة ذات شرفات، وفي الباب ثيران ضخمة مجنحة على هيئة الإنسان والجدران مغشاة من الداخل تارة بروافد من الخشب النفيس وطورا من الآجر المزين بالمينا، وأخرى بصفائح من الرخام الأبيض المنقوش وآنات تزدان الغرف بالصور ويحلى الأثاث بالترصيع البديع.

النقش- يعجب المرء من نقوش الصور الأشورية وخاصة المحقق أن التماثيل نادرة، ولا إتقان فيها؛ لأن النحاتين يؤثرون نحت صفائح كبيرة من الرخام ونقوش ناتئة تشبه الصور ويرسمون مشاهد لا نظام فيها أحيانا وحروبا وصيودا وحصارات مدن واحتفالات يخرج الملك بها في موكب حفل، وهناك تتجلى التفاصيل الدقيقة فترى بنات الخدام الموكلين بطعام الملك وزمر العملة يبنون له بلاطه والحدائق والحقول والغدران والأسماك في الماء والطيور وترفرف على وكناتها، أو تتطاير من شجرة إلى أخرى وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم؛ لأن أهل الصناعة ما عرفوا تصويرها من الأمام ولكنك تقرأ في سحناتهم الحياة والشرف وتظهر الحيوانات في الأحابين وخصوصا في الرسوم البارزة في الصيد، وفي العادة أن تنقل نقلا حقيقيا مدهشا، وكان الأشوريين يتأملون الطبيعة ويرسمونها أصح رسم، وبهذا تعرف قيمة صنائعهم، حتى أن اليونان اقتدوا

بمذهبهم في الصنائع بأن قلدوا النقوش الأشورية ففاقوا مقلديهم، وليس في الأمم، حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالأشوريين.

الفينيقيون

صور وقرطاجنة

وصفها- فينيقية من بقاع الأرض الضيقة طولها خمسون فرسخا وعرضها من ثمانية فراسخ إلى عشرة، وهي بين بحر سورية وأعلى سلسلة في جبل لبنان بل هي على التحقيق عبارة عن سلاسل أودية ضيقة ومجار حرجة متخللة بين هضاب وعرة ممتدة إلى البحر ومسايل من الثلوج تعبث بها العواصف إلى آخر الربيع، أما في الصيف فينضب ماؤها إلا ما خزن منه في الآبار والصهاريج، ولقد كسيت جبال هذه الناحية بالأشجار، فكان في القمم أرز لبنان المشهور، وفي المنحدرات الصنوبر والسرو، وفي السفوح أشجار النخيل بالغة شاطئ البحر، وفي الأودية ينمو الزيتون والكرم والتين والرمان.

مدنها- تتألف عن بعد على طول الشاطئ الصخري رؤوس من البحر، أو جزر منه تكون منها مرافئ طبيعية ففي هذه المواني أقام الفينيقيون مدنهم فقامت صور وأرواد في جزيرة يزدحم فيها السكان في المنازل، وكانت ذات طبقات ست وسبع وثمان ويجلبون الماء لشفاههم في القوارب، أما مدينة جبيل وبيروت وصيدا فكانت في اليبس، ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم بأود هذا العدد الدثر من الناس ولذلك مال الفينيقيون إلى الملاحة والتجارة.

الخرائب الفينيقية- لم يحفظ عن الفينيقيين كتاب، فقد ضاعت، حتى كتبهم المقدسة، ولقد جرى الحفر في مواضع مدنهم، ولكن الخرائب على ما قال العالم المندوب إلى ذلك: لم تسلم إلا في البلاد المهملة المتروكة، على أن السوريين عنوا كثيرا بالخرائب فانتهكوا حرمة القبور وأخذوا حلي الموتى

وهدموا العمارات ليستعينوا بأحجارها على البناء وحطموا النقوش وذلك لكراهة المسلم الصور المنحوتة بحيث لم يبقى اليوم سوى شقيف من الرخام المحطم وأحواض ومعاصر نحتت في الصخر وبضعة نواويس من الحجر أطلال قلما تجدي نفعا وتأتي العلم بفوائد، وليس ما عرف الفينيقيين إلا ما علمناه كتاب اليونان وأنبياء إسرائيل.

حكومة الفينيقيين- لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها، بل كان لكل مدينة ناحية صغيرة تستقل بها ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها وتبعث بمندوبيها إلى أعظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة، وكانت صور محط رجال المندوبين منذ القرن الثالث عشر وإذ لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا لسطوة جماع الفاتحين من مصريين وأشوريين وبابليين وفرس وأدوا لهم الجزية عن يد، وهم صاغرون.

صور- كانت هذه المدينة منذ القرن الثالث عشر من أهم المدن الفينيقية ضاقت على أهلها فأقيمت إذ ذاك مدينة جديدة قبالتها، ولقد أسس تجار صور مستعمرات في البحر الأبيض كله يصيبون الفضة من مناجم أسبانيا وسلع العالم القديم أجمع دعاهم أشعيا النبي الأمراء ووصف حزقيال النبي تلك القوافل التي كانت تأتيهم من كل صوب وأوب وطلب سليمان النبي إلى هيرام أحد ملوك صور عملة يشغلهم في بناء القصر والمعبد في بيت المقدس.

قرطاجنة- كانت هذه المدينة مستعمرة صور ففاقت هذه بالعظمة، وذلك أن الصوريين نبذتهم إحدى الثورات فأسسوا مدينة قرطاجنة على شاطئ إفريقية بالقرب من تونس بعثتهم على ذلك امرأة اسمها ايليسار ونحن ندعوها ديدون (الفارة) ويحكى أن سكان البلاد أبوا أن يبيعوها إلا مسافة تكفي لتغطية جلد ثور ففصلت جلد الثور سيورا رقيقة بحيث اقتضت مكانا واسعا يستوعبها فبنت القلعة إذ ذاك، ولقد اتسعت قرطاجنة لموقعها في منتصف البحر الرومي، ولأن فيها مرفأين فأقامت فيه أيضا مستعمرات وفتحت فتوحا، حتى آل أمرها إلى أن

حكمت شاطئ إفريقية بأجمعه وأسبانيا وسردينيا، وكان لها في كل مكان مكاتب لتجارتها ورعايا يؤدون لها الجزية.

الجيش القرطاجني- اقتضى لقرطاجنة أن يدرب لها جيشا لتصون مكاتبها التجارية من حيف الوطنيين وتربأ برعاياها عن الانتقاض، ومن ثم كانت حياة القرطاجني ثمينة لا يخاطر بها إلا عند الضرورة آثرت قرطاجنة اكتراء الجند فجندت لها جُندا من البربر سكان بلادها، ومن متشردي كل صقع وناحية فصارت صبغة جيشها مبرقشة ملونة يتكلم اللغات كلها ويدين بالأديان كافة، ولكل جندي بزته وأسلحته الخاصة به تخالف بزة رصيفه وأسلحته. فترى فيهم النوميديين يلبسون جلد الأسد يتخذونه وطاء؛ كما يتخذونه غطاء يركبون خيلا سريعة صغيرة بدون نظام ويطلقون القوس وخيولهم تعدو عدوا؛ كما كنت ترى فيهم الليبيين وجلودهم سوداء مسلحين بحراب وطائفة من الأيبيريين في أسبانيا لباسهم بياض مزين بحمرة وسلاحهم سيف طويل محدد وغالبين عراة إلى الزنار يحملون تروسا كبيرة وسيفا محدبا يمسكونه بكلتا يديهم وجماعة من الباليارين مدربين من طفوليتهم على رمي الحجارة، أو كرات الرصاص بالمقاليع، أما القواد فكانوا قرطاجنيين تخافهم الحكومة فترقبهم عن أمم، وربما صلبتهم إذا غلبوا، ولم يحرزوا نصرا مؤزرا.

القرطاجنيون- كان في قرطاجنة ملكان والأمر والنهي لمجلس الشيوخ، وهو مؤلف من أغنى تجار المدينة، ولذلك كانت كل قضية ينهى بها إلى الحكومة مسألة تجارية كره الناس القرطاجنيين لقسوتهم وطمعهم وغدرهم، ولما كان لهم أسطول منظم وعندهم مال يستأجرون به جندا وحكومة باطشة تهيأ لهم توطيد دعائم ملكهم في غرب البحر المتوسط مدة ثلاثة قرون (من القرن السادس إلى الثالث) بين ظهراني شعوب بربرية منشقة على نفسها مختلفة كلمتها.

الديانة الفينيقية- للفينيقيين والقرطاجنيين دين يشبه الديانة الكلدانية فالرب الذكر ويسمي عندهم بعل هو الشمس والربة الأنثى وتدعى بعلت هي

القمر والشمس والقمر في نظر الفينيقيين قوى هائلة تحيي وتميت، ولكل من المدائن الفينيقية ربان فلصيدا بعل صيدون (الشمس) وعشتروت (القمر) ولقرطاجنة بعل عمون ونانيت ولجبيل بعل تمور وباليت ويختلف اسم الأرباب في الاعتبارات إيجادا وعدما وهكذا يعبد بعل مثلا في قرطاجنة باسم مولوش ويعتبر عدما، وقد تنوب عن هذه الأرباب أصنام ولها معابد ومذابح وكهنة يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة باعتبار كونهم موجدين ويقدمون لهم ضحايا بشرية باعتبار كونهم مخربين وتعبد عشتروت ربة الصيد العظيمة في الغابات المقدسة ويصورونها على شكل هلال القمر والحمامة ويرسم بعل مولوش في قرطاجنة تمثالا عظيما من القلز باسطا زراعيه ومدليهما واذا أرادوا تسكين غضبه يرفعون على يديه أطفالا تسقط للحال في هاوية من النار، وقد قدم أعيان مدينة قرطاجنة مائتي طفل من أولادهم ضحايا للربة مولوش في خلال حصار أغانوكل لقرطاجنة.

هذا وإن تلك الديانة على ما نشأت عليه من الشهوات وسفك الدماء لترهب الشعوب الأخرى ولكنهم يحاكونها ويأتمون بها، فكان يذبح اليهود لبعل على الجبال ويعبد اليونان استارتيه وصيدون باسم أفروديت وبعل ملخارت من صور تحت اسم هيراكليس.

التجارة الفينيقية

أشغال الفينيقيين- عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الأرض، ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين وأشوريين، ولا قبائل الغرب البربرية (الأسبان والغاليين والطليان) عهد بركوب البحار وشق العباب والفينيقيين وحدهم جرءوا في تلك الأيام على تجشم البحر فصح أن يدعوا من أجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء يبتاعون من كل شعب سلعة ويتقايضون معه على غلات البلاد الأخرى تجارة

كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برا والغرب بحرا.

القوافل- اعتاد الفينيقيون أن يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاث إحداها إلى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر وعطور بلاد العرب واللؤلؤ والأبازير والعاج والأبنوس وريش النعام وقرود الهند، والقافلة الثانية ترحل إلى بلاد أشور لتعود منها بأنسجة القطن والكتان والحمر والأحجار الكريمة والماء المعطر وحرير الصين، وتقصد القافلة الثالثة أنحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والأواني النحاسية من مصنوعات سكان جبل قافقاسيا "القوقاز".

بحريتهم- بنى الفينيقيون بخشب أرز لبنان المتين قوارب بأشرعة ومجاذيف حملوا عليها متاجرهم البحرية، وما مست حاجتهم أن يكونوا أبدا على مقربة من الشواطئ في ركوبهم البحر إذ كانوا يتجهون حيثما أرادوا بجعل نجمة القطب قيد نواظرهم، وكانوا يستدلون بها على الشمال، ولقد فطر الفينيقيون على الاستخفاف بركوب اليم فألقوا بأنفسهم في مراكب صغيرة تغدوا بهم وتروح في أطراف البحر الرومي، بل جرءوا على اجتياز مضيق جبل طارق، أو كما دعاه القدماء "أعمدة هيركول" فيجتازون البحر المحيط إلى شواطئ إنكلترا، وربما بلغوا بلاد النروج سافرت عصابة منهم في خدمة أحد ملوك مصر في القرن السابع وجازت البحر الرومي لتطوف حوالي أفريقيا، ثم رجعت على ما قيل بعد ثلث سنين من البحر الأحمر وغادرت قرطاجنة حملة ضربت نحو شاطئ إفريقيا إلى خليج غينة، وقد كتب القائد حانون قصة في هذه الرحلة.

البضائع- كان الفينيقيون يبتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة ويبحثون في البلاد المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل يصطادون الصدف من شاطئ بلاد اليونان ومنه يستخرجون صباغا أحمر، وهو الأرجوان، وكانت الأنسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافة ملابس للملوك والأمراء ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل أسبانيا وسردينيا من

مناجمهم، وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الأصفر، وهو مركب من نحاس وقصدير، ولا أثر له في بلاد الشرق ولذا كان الفينيقيون يرحلون في طلبه وينشدونه، حتى في شواطئ إنكلترا في جزائر القصدير المعروفة بجزائر كاسيتريد، وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يبتاعونه تارة؛ كما كان يبتاع النخاس العبيد في ساحل إفريقية إذ الشعوب القديمة كلها كانت تتجر بالرقيق وينزلون طورا في إحدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والأطفال وينقلبون بهم إلى بلادهم، أو يبيعونهم في القاصية، وإذا واتتهم الحال ينقلبون قرصانا، ولا يتحامون إطالة يد التعدي على الأغيار.

سر اختص به الفينيقيون- لم يقلق الفينيقيون إلا من قيام بحارة الأمم الأخرى إلى منازعتهم السلطة على البحار ومجاراتهم في الملاحة والاتجار، فمن ثم كانوا يكتمون الطريق التي يسلكونها لدن عودتهم من الأقطار النائية ولذا لم يعرف أحد في القديم جهة جزائر الكاسيتريد المشهورة التي جلبوا منها القصدير، وقد رأت إحدى المراكب بلاد إسبانيا التي كانت لها صلات تجارية مع فينيقية منذ قرون عرضا بدون تعمل، وكانت قرطاجنة تغرق من تصادفهم من التجار الأجانب في سردنيا، أو في ناحية جبل طارق، حتى إن ربان إحدى المراكب أغرق سفينته ذات يوم عندما رأى سفينة غريبة تطارده مخافة أن تطلع على خطة سيره.

مستعمراتها- أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي اتجروا فيها، وهي مراكز للبرد حصينة واقعة على شواطئ بحر على مرفأ طبيعي يخرجون إليها بضائعهم، وهي في العادة أنسجة وفخار وحلي وأصنام فيأتي أهل تلك البلاد بغلاتهم فيقايضونهم عليها؛ كما يقايض اليوم تجار الأوربيين زنوج إفريقية تقام أمثال هذه الأسواق في قبرص ومصر وجميع بلاد البحر الرومي التي كانت على همجيتها مثل اقريطش (كريت) وبلاد اليونان وصقلية وإفريقية ومالطة وسيردينيا وشواطئ إسبانيا (مالقة وقادس)، وربما أقاموها في بلاد الغول

(موناكو)، وكان أهل البلاد يبنون أكواخهم حول بنايات الفينيقيين فيصبح السوق مدينة ويقتبس السكان أرباب الفينيقيين، وقد دامت عبادة ربة على صورة الحمامة، حتى بعد أن صارت المدينة يونانية؛ كما في سيتير والرب ملخارت؛ كما في كورنت ورب ذو جبهة ثور يفترس الضحايا البشرية؛ كما في أقريطش.

نفوذ الفينيقيين- لم يكن يخطر للفينيقيين شيء على بال لما أسسوا مكاتبهم التجارية إلا الاحتفاظ بمصلحتهم الخاصة، ولكن حدث أن نفعت مستعمراتهم التمدن فإن برابرة الغرب أخذوا عن أمم الشرق، وكانت أكثر منها تمدنا كيفية صنع الأنسجة والحلي والماعون وتعلموا محاكاتها مضي حين من الدهر واليونان لم يعرفوا غير الأواني والحلي والأصنام التي يأتيهم بها الفينيقيون، وعلى منوال هذه البضائع نسجوا بعد فإن الفينيقيين حملوا من مصر وأشور الصناعة والبضائع معا.

الأبجدية- حمل الفينيقيين أيضا إلى البلاد التي نزلوها أبجديتهم وحروف الهجاء، ولم يخترعوا الخط إذ كان المصريون يعرفون الكتابة قبلهم بقرون، وقد استعملوا حروفا تدل كل منها على صوت؛ كما هو الحال في حروف الإفرنج على أن خطهم كان مشوشا بعلامات قديمة يدل بعضها على مقطع وآخر على كلمة برمتها لا جرم أنه اقتضى للفينيقيين إذ ذاك طريقة أبسط لكتابة رسائلهم التجارية فاطرحوا العلامات كلها من مقاطع وصور، ولم يبقوا سوى اثنين وعشرين حرفا يدل كل منها على صوت، أو على لفظ باللسان فاقتبست الشعوب الأخرى هذه الأبجدية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفا، فقد كتب اليهود من اليمين إلى الشمال؛ كما كتب الفينيقيون، وكتب غيرهم كاليونان من الشمال إلى اليمين وكلهم بدلوا شكل الحروف إلا قليلا والخط الفينيقي على التحقيق أصل الأبجديات كلها من يهودي وليسي ويوناني وإيتاليكي وأيتروسكي وإيبيرسكي، وربما كان الخط النرويجي أيضا فالفينيقيون هم الذين علموا العالم الكتابة.

الإسرائيليون - العبرانيون

التوراة- جمع اليهود أسفارهم المقدسة بأسرها في سفر واحد دعوه التوراة، وهو اسم يوناني معناه الكتاب هذا هو سفر اليهود الجليل، وقد صار لأهل النصرانية أيضا كتابا مقدسا، وفي التوراة أيضا تاريخ الأمة اليهودية، ولقد استفدنا كل ما اتصل بنا عن الشعب المقدس من الكتب المقدسة.

العبرانيون- لما نزل الساميون من جبال أرمينية إلى سهول الفرات أخذت إحدى قبائلهم على عهد مملكة الكلدان الأولى تضرب نحو الغرب فجازت الفرات فالقفر فسورية وبلغت بلاد الأردن وراء فينيقية وتعرف هذه القبائل بالعبرانيين يعني أهل ما وراء النهر، وهم كمعظم الساميين شعب من الرعاة الرحالة لم يحرثوا الأرض، ولا سكنوا الدور والمنازل، بل كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر في قطعان بقرهم وغنمهم وجمالهم منتجعين المراعي آوين إلى الخيام على نحو ما يعيش العرب في البادية اليوم، وفي سفر التكوين وصف هذه العيشة البدوية.

البطاركة- كان السبط منهم أسرة كبيرة مؤلفة من الرئيس ونسائه وأولاده ومواليه، وكان للرئيس على الجميع سلطة مطلقة، فكان بهذا السبط أبا وكاهنا وقاضيا وملكا من أجل هذا دعونا هؤلاء الرؤساء بالبطاركة وأعظمهم إبراهيم ويعقوب فالأول أب العبرانيين والآخر والد الإسرائيليين أظهرتهما التوراة في مظهر رجلين أرسلهما الله ليرأسا شعبا مقدسا، وقد أعطى إبراهيم ربه ميثاق ووعده الطاعة هو، ومن يأتي بعده من قومه فبشر الله إبراهيم بذرية تفوق نجوم السماء عددا واطمأنت نفس يعقوب بأن تكون منه أمة عظيمة وشعب جم.

الإسرائيليون- سمي يعقوب باسم إسرائيل، أي: مدافع عن الله لرؤيا رآها ودعي سبطه ببني إسرائيل، أو الإسرائيليون وذكرت التوراة أن القحط حدا يعقوب أن يغادر بلاد الأردن ليسكن وأهل بيته صغارهم وكبارهم على التخوم الشرقية من مصر، وهي البلاد التي دعاه يوسف أحد أبنائه إلى هبوطها، وقد صار

وزيرا لعزيزها أحد الفراعنة وظل بنو إسرائيل في تلك الأرجاء قرونا كثيرة فجاءوا وعددهم سبعون نسمة ونموا على قول التوراة، حتى صار عددهم ستمائة ألف رجل خل عنك النساء والأولاد.

تزول الوحي على موسى- افتتح عزيز مصر يسوم الإسرائيليين ضروب المظالم ويضطرهم إلى صنع الملاط والقرمد لابتناء مدن حصينة فقام من بينهم إذ ذاك موسى أحد أبنائهم، وقد أوحي إليه ربه وعهد إليه أن ينقذهم من الجور والعسف، وكان يرعى غنمه ذات يوم على الجبل فظهر له ملك وسط عليقة تتلظى، ثم سمع هذه الكلمات "أنا رب إبراهيم وإسحق ويعقوب رأيت ما دهم شعبي في مصر من الحزن وسمعت شكواه ممن يظلمونه وعرفت ما يناله من العذاب ولذا نزلت لخلاصه مما ينتابه من المصريين لإنزاله بلادا من أرض كنعان تفيض لبنا وعسلا فتعال إذا أرسلك إلى فرعون تخلص شعبي أبناء إسرائيل وتخرج بهم من مصر" فقاد موسى الإسرائيليين وهاجروا من مصر، وهذا ما يدعى بالخروج، أو سفر الخروج واجتازوا بسفح جبل طور سيناء، وهناك تلقوا شريعة الرب وأخذوا يتيهون جيلا كاملا في القفار جنوبي سورية.

وكثيرا ما كان الإسرائيليون يودون الرجوع إلى البلاد التي تركوها فيقولون: "إنا لنذكر ما كنا نطعمه في مصر من السمك والقثاء والبطيخ والكراث والبصل فخليق بنا أن نؤمر علينا زعيما يقودنا إلى بلادنا، وكان موسى يدعوهم إلى الطاعة، ثم بلغوا الأرض التي وعد الله بها ذراريهم.

الأرض الموعودة- دعيت أرض كنعان، أو فلسطين فدعاها اليهود بلاد إسرائيل، ثم دعيت بعد بلاد اليهودية ودعاها أهل النصرانية الأرض المقدسة، وهي بلاد جافة قاحلة في الصيف، ولكن فيها جبال وآكام وصفتها التوراة بما يلي: لقد ساقك ربك القيوم إلى بلد طيب ذات أنهار وينابيع في الأرض تنبجس من الوادي، وعلى الجبل بلد البر والشعير والكرم والتين والرمان والزيتون والزيت والعسل بلاد تأكل فيها خبزك آمنا من القحط لا ترزأ في مال، ولا ينقصك

شيء من رفاهية الحال وبلغ عدد الإسرائيليين بعد الإحصاء عندئذ ٦٠١٧٠٠ رجل يحمل السلاح منقسمين إلى اثني عشر سبطا عشر منها من نسل يعقوب واثنان من نسل يوسف هذا عدا عن اللاويين، أو الكهنة وعددهم ٢٣ ألف رجل، وكانت تسكن البلاد التي نزلوها عدة شعوب صغيرة تدعى الكنعانيين فأبادهم الإسرائيليون واستولوا على بلادهم.

ديانة الإسرائيليين.

الله الفرد- عبد سائر الشعوب القديمة أربابا كثيرة، أما الإسرائيليون فاعتقدوا بوجود إله منزه عن الهيولي برأ العالم ودبره ففي سفر التكوين أن الله خلق في البدء السموات والأرض، وقد خلق النبات والحيوان وخلق الإنسان على صورته ومثاله فالبشر كلهم صنعة الله.

شعب الله- بيد أن الله اختار من بين الناس جميعا أبناء بني إسرائيل ليجعلهم شعبه وأمته فدعا إبراهيم، وقال له: سأجعل بيني وبينك وبين ذريتك عهدا لأكون ربك ورب ذريتك من بعدك، وقد تمثل الله ليعقوب قائلا له أنا الله القادر إله آبائك فلا تتحام نزول مصر فسأجعلك فيها أمة عظيمة، ولما سأل موسى ربه عن اسمه أجابه: تقول لأبناء إسرائيل إنني أنا الله السرمد إله آبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أرسلني ربي إليكم هذا هو اسمي على الدهر.

العهد- فبين الإسرائيليين والمولى تعالى إذا اتحاد، أو عهد فالقيوم جل جلاله يحب الإسرائيليين ويدفع عنهم البوائق فهم والحالة هذه أمة مقدسة "وأعلى الشعوب كافة في نظره"، وقد وعد أن يجعلهم سعداء أقوياء وتعهد الإسرائيليون أن يقابلوه على ذلك بأن يعبدوه ويخدموه ويطيعوه فيما يريدهم عليه؛ كما يطاع المشرع والقاضي والمعلم.

الوصايا العشر- أوحى القيوم الصمد عز شأنه مشرع بني إسرائيل بوصاياه

إلى موسى على جبل طور سيناء بين البرق والرعد، وهي مسطورة في لوحين، وهما اللوحان اللذان كتب الله عليهما وصاياه العشر بما نصه: لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مُبغضي وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا؛ لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا اذكر يوم السبت لتقدسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور لا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئا مما لقريبك.

الشريعة- على الإسرائيليين ما خلا هذه الوصايا العشر أن يعملوا بكثير من الأوامر الإلهية مما ذكر في أسفار التوراة الخمسة الأولى، وهي التي تتألف منها شريعة إسرائيل فالشريعة تنظم عندهم احتفالات العبادة وتعين الأعياد (السبت كل سبعة أيام والفصح ذكرى خروجهم من مصر وجمعة الحصاد وعيد المظال في موسم قطف العنب) والشريعة هي التي ترتب الزواج والأسرة والتملك والحكومة وتعين العقوبات على الجرائم وتحدد الأطعمة والأدوية فالشريعة عندهم والأمر على ما ذكر مجلة الأحكام الدينية والسياسية والمدنية والجزائية ولمولى الإسرائيليين تعالى أن ينظم أعمال حياتهم جميعا.

(الديانة ألفت الشعب اليهود) لم يقبل الإسرائيليون بحكم الله قبول من

خضع وخنع فقد، قال موسى للاويين، وهو على فراش الموت دافعا إليهم كتاب الشريعة: "خذوا هذا الكتاب ليكون شهادة عليكم يا إسرائيل لأني عارف بما أنتم عليه من شكاسة الخلق وقساوة القلب، ولم تبرحوا طول حياتي تبدون نواجذ العصيان على المولى القيوم فليت شعري ماذا يكون من شأنكم بعد مماتي، وقد حدث أن مرت قرون، ومن العبرانيين من يعبد الأصنام، وربما كانت هذه الفئة هي السواد الأعظم من الأمة على أنهم أصبحوا أشبه بسائر الساميين في سورية وظل الإسرائيليون وحدهم على قدم الإخلاص للمولى جل شأنه فتألف منهم الشعب اليهودي وخرج الشعب المبارك بدين الله المتعال من قبيلة مجهولة على التدريج نعم لإنها أمة قليلة الحصا والعدد ولكنها من الأمم التي لها الشأن الأعظم في تاريخ العالم.

مملكة القدس.

القضاة- نزل العبرانيون أرض فلسطين ولكنهم ظلوا منشقين قرونا كثيرة لم يكن لذاك العهد؛ كما تقول التوراة ملك لإسرائيل بتة، بل كان يعمل على شاكلته ويحكم بما يوحى إليه رأيه وكثيرا ما كان الإسرائيليون ينسون ربهم ويعبدون أرباب القبائل المجاورة فاستشاط ربهم عندئذ غضبا من سيئات أعمالهم وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم يفعلون بهم الأفاعيل، حتى إذا ندموا على ما فرطوا في جنب الله وأصبحوا خاضعين خانعين يرسل ربهم إليهم قضاة يسعون في خلاصهم من أعدائهم الباغتين، وربما مات القاضي وعاد دبيب الفساد يدب في نفوس الإسرائيليين فيسجدون لمعبودات أخرى، وكان هؤلاء القضاة مثل جدعون ويفتاح وشمشون من الغزاة يحررون القبائل باسم القيوم الأبدي، ثم لا يلبث الشعب أن يعود إلى عبادة الأوثان والتلطخ بحمأة العبودية.

الملوك- سئم الإسرائيليون آخر الأمر وطلبوا إلى شمويل (سموأل) الكاهن

العظيم أن يجعل لهم ملكا فملك عليهم شاول على رغم إرادته، وكان على هذا الملك أن يكون منفذا خاضعا لإرادة الرب لكنه حاول الخروج عن الطاعة وشق عصا الجماعة فراح الكاهن العظيم يقول له: لقد نبذت كلام الله ظهريا فسيبعدك ربك عن الحكومة وينزع السلطة من يدك، ثم إن داود، وكان زعيما جنديا خلفه وحمل على أعداء إسرائيل كافة واسترجع لهم جبل صهيون ونقل إليه عاصمته، وهي القدس.

بيت المقدس- كانت القدس بالنسبة إلى بابل وثيبة عاصمة بلاد فقيرة، وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون إلى العمران، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم إقامة المعابد، وكان يقضى على مساكن الخاصة أن تشبه تلك المكعبات من الحجر التي لا تزال تشاهد إلى اليوم في شواطئ لبنان، وقد غشيتها الكروم والتين، ولكن كانت القدس بلد اليهود المقدسة، وكان فيها للملك قصر يسكنه ألا، وهو قصر سليمان الذي دهش العبرانيون بعرشه المصنوع من العاج، وهناك أقيم بيت الرب، وهو أول معبد عبراني.

المعبد- كان المعبد الذي أقيم على عهد سليمان كبيت القربان المقدس عند النصارى مقسوما إلى ثلاثة أقسام ففي داخله يقوم قديس القديسين، حيث كان تابوت العهد، ولم يكن يسمح لغير الكاهن العظيم أن يدخله مرة في السنة، وفي وسطه المكان المقدس، وكان فيه مذبح البخور ومسرجة ذات أغصان سبعة ومائدة الخبز يدخل إليه الكهنة لحرق الغالية ووضع القرابين، وفي المقدمة ساحة البيعة مفتحة أبوابها للناس تنذر فيها الضحايا على المذبح الكبير وعليه، فقد صار معبد القدس بعد واسطة عقد الأمة يقصدونه من أقاصي فلسطين لحضور الاحتفالات، وكان الكاهن الكبير الذي يرجع إليه أمر العبادة من أعاظم الرجال، وربما كان في الأحايين أكبر سلطة من الملك.

الأنبياء.

نكبات إسرائيل- إن سليمان آخر ملك عرف بالحول والطول وانفصل بعده عشرة أسباط ألفوا مملكة إسرائيل تلك المملكة التي عبد سكانها عجول الذهب وأرباب الفينيقيين، ولم يخلص منها الدين لله وحده، أو للملك بيت المقدس سوى سبطين ومنهما قامت مملكة يهوذا (٩٧٧)، ولقد انتهكت قوى تينك المملكتين بما 'ضطرا إلى دخوله من المعارك، حتى إذا جاءتهما جيوش الفاتحين من الشرق خربت مملكة إسرائيل بأيدي بختنصر ملك الكلدان (٥٨٦).

إحساس الإسرائيليين- رأى المؤمنون من الإسرائيليين هذه المصائب عقوبة لهم، وأن الله عذب شعبه لخروجه عن طاعته على نحو ما جرى قديما على عهد القضاة وأسلمه للفاتحين يمزقونه كل ممزق وركب أبناء إسرائيل هواهم واجترحوا الآثام في جانب مولاهم فبنوا علالي وقصورا في المدن كافة وحذوا حذو الأمم المحيطة بهم فخالفوا بذلك أمر ربهم، وما حرمه عليهم فصنعوا صورا مسبوكة وسجدوا للكواكب وعبدوا الصنم بعل ولذا نبذ الله تعالى أصل إسرائيل وعاقبهم فجعلهم طعمة لمن يكتسح بلادهم ويسلب طارفهم وتلادهم.

الأنبياء- على ذاك العهد ظهر الأنبياء، وهم إلياس وأرميا وأشيعيا وحزقيل، وفي العادة أن يخرجوا من القفر بعد أن يقضوا زمانا في الصيام والصلاة والاعتبار والتدبر يأتون باسم الله لا غزاة مثل القضاة، بل منذرين ومبشرين يدعون الإسرئيليين إلى الإنابة وقلب الأصنام والتوبة إلى بارئ النسم وينذرونهم بالخطوب التي يبعثها الله عليهم بعد إذا لم ينيبوا إليه فكانوا من ثم يدعون ويتنبأون.

التعليم الجديد- رأى هؤلاء الرجال المستمسكون بالأمر الإلهي أن العبادة الرسمية في القدس غثة باردة وليت شعري لم يذبحون البقر ويحرقون البخور إجلالا لله على نحو ما يفعل الوثنيون يقول عيسو "أصيخوا إلي بأسماعكم وعوا ما يقوله تعالى ماذا أعمل بجموع قرابينكم، فقد شبعت من ضحايا الغنم، ومن

دهن الحيوانات السمينة، وما عاد يلذ لي دم الثيران، ولا الخرافان، ولا التيوس فكفوا إذا عن أن تقدموا لي ضحايا هي من العبث فإن نفسي عزفت عن استنشاق بخوركم ومتى ترفعون أيديكم أحول نظري عنكم؛ لأن أيديكم ملآى بالدم المهراق فقوموا وطهروا أنفسكم وارجعوا عن سيئات أعمالكم عودوا أنفسكم عمل الصالحات وخذوها بتوخي طريق الرشاد وحماية المظلومين وأقسطوا اليتيم ودافعوا عن الأيم وعندما تصير خطاياكم كالقرمزي حمراء تبيض كالثلج"، وبهذا رأيت أن الأنبياء أرادوا الاستعاضة عن القيام بالنذور والضحايا بالعدل وصالح الأعمال.

المسيح- استحق بنو إسرائيل ما دهمهم من المصائب، ولكن لكل قصاص حد ينتهي إليه وغاية يقف عندها فقد، قال عيسو: باسم الحي القيوم أيها الشعب لا تخش الأشوري أبدا فإنه سينالك من عصاه مثل ما كان ينالك من المصري في الزمن الغابر، ولكن ستفثأ ثورة غضبي قريبا ويرفع عن كاهلك ذاك العبء الثقيل وعليه، فقد علم أنبياء الشعب اليهودي أن ينتظروا بعثة من يخلصهم وهيئوا السبل للمسيح.

الشعب اليهودي

الرجوع إلى بيت المقدس- جاء أبناء يهوذا من سهل الفرات، ولم ينسوا وطنهم ولطالما احتفلوا به وتذكروه في أناشيدهم يقولون جلسنا على شاطئ أنهار بابل وبكينا، وقد ذكرنا صهيون فعيداننا كانت معلقة في أشجار الصفصاف على ضفة النهر، وكان يقول لنا من أتوا بنا تغنوا ببضع أناشيد من جبل صهيون، ولكن أنى لنا أن نتغنى بنشيد للرب في أرض غريبة وبعد سبعين سنة في العبودية أذن سيروس فاتح بلاد بابل أن يعودوا إلى فلسطين فجددوا بناء البيت المقدس والمعبد وعادوا إلى إحياء الأعياد والاحتفاظ بالكتب المقدسة وجددوا العهد مع ربهم علامة على أنهم عادوا إلى طاعته وعدوا من شعبه، وهذا

العهد عبارة عن ميثاق على الأصول كتبه أعيان الشعب ووقعوا عليه.

اليهود- دامت مملكة القدس الصغرى مدة سبعة قرون يحكمها ملك تارة وكاهن كبير أخرى، وفي كلتا الحالتين كانت تؤدي الجزية إلى زعماء سورية فجبى جزاها الفرس أولا، ثم المقدونيون، ثم السوريون، ثم الرومانيون وإذ صدق اليهود (دعوا كذلك لدن رجوعهم) مع ربهم ظلوا على عهدهم الأول من العمل بشريعة موسى والاحتفال بالأعياد وتقديم النذور في القدس، وكان الأكبر يحفظ الشريعة بمظاهرة مجمع الأعيان والكتبة ينقلونها والعلماء يفسرونها للشعب وجمهور المؤمنين يرون من واجباتهم الجري عليها والعمل بدقيقها وجليانها واشتهر الفريسيون خاصة بغيرتهم وتفانيهم في القيام بضروب الأعمال الصالحة.

المدارس (الكنائس)- ومع هذا، فقد كان اليهود يرحلون في التجارة وينتشرون خارج بلادهم في مصر وسوريا وآسيا الصغرى وايطاليا، وكانت طائفة من أهل مذهبهم في المدن الكبرى جميعا كالإسكندرية ودمشق وأنطاكية وأفيس وكورنت وورمية، وكانوا أبدا يجتمعون في صعيد واحد ليحفظوا كيانهم ويجمعوا شملهم المشتت بين الوثنيين، ولم يقيموا المعابد؛ لأن الشريعة كانت تحظر عليهم ذلك، وليس لهم أن يبنوا سوى معبد يهودي واحد ألا، وهو معبد القدس، حيث كان يحتفل بالأعياد وتقام المواسم والشعائر، بيد أنهم كانوا يجتمعون ليشرحوا كلام الله ويتلوه ودعيت هذه الأماكن باسم يوناني (الكنيس) ومعناه المجالس.

حراب المعبد- ظهر المسيح في خلال تلك المدة فصلبه اليهود واضطهدوا حوارييه سواء كان في بلادهم، أو في المدن الكبرى التي حل فيها الجم الغفير منهم، ولقد شقت القدس عصا الطاعة عام ٧٠ على الرومانيين فأخذت عنوة وذبح سكانها كافة، أو بيعوا بيع الإماء والعبيد فألقى الرومانيون النار في المعبد، وقد حفل وطابهم بالأعلاق المقدسة، ومن يومئذ لم يعهد لليهود مجمع لدينهم.

ما كتب على اليهود بعد تفرقهم عاشت الأمة اليهودية بعد خراب عاصمتها، ولما تشتت شملها تحت كل كوكب في العالم انشأت تستغني عن المعبد وابقت كتبها المقدسة مكتوبة بالعبرية والعبرية لغة بني إسرائيل الأصلية لم يتكلم بها اليهود منذ رجوعهم من بابل، بل اقتبسوا لغات الشعوب المجاورة كالسريانية والكلدانية وخصوصا اليونانية على أن المنورين في الدين من الربانيين ظلوا يعرفون العبرية، وهم يشرحون التوراة ويفسرونها وهكذا حفظت الديانة اليهودية وبفضل اللغة العبرية أيضا بقي الشعب اليهودي وكثر أشياع هذا الدين في الأغيار، فكان في المملكة الرومانية أناس كثيرون ممن يدينون باليهودية وليسوا من العنصر اليهودي في شيء.

قويت شوكة الكنيسة المسيحية في القرن الرابع فطفقت تضطهد اليهود اضطهادا دام إلى يوم الناس هذا في البلاد المسيحية جمعاء، ومن العادة أن يتسامح مع اليهود في إجراء مراسيم ديانتهم لغناهم واستثمارهم بفروع الأعمال المالية ولكنهم ينحونهم عن ممارسة الوظائف الإدارية، ولقد أكرهوا في معظم المدن أن يلبسوا ثيابا خاصة وينزلوا في حي خاص مظلم وخيم وبيل، وأن يبعثوا أحيانا بأحدهم ليصفع في عيد الفصح والناس يرمونهم بأنهم يسممون الينابيع ويقتلون الأطفال ويدنسون القربان المقدس، وربما يثورون بهم في الأحايين فيقتلونهم ويسمون ما في دورهم ويسقيهم قضاة البلاد السم، أو يعذبونهم، أو يحرقون لأقل حجة تهمة ولطالما نفتهم الحكومات وطردوا من بلادهم وصادرت أموالهم، ولقد اجتث دار اليهود من فرنسا وإسبانيا وإنكلترا وإيطاليا، ولم تبق منهم بقية إلا في بلاد البرتغال وألمانيا وبولونيا، وفي البلاد الإسلامية، ومن هذه الممالك رجعوا إلى سائر قارة أوروبا منذ انتهت أيام اضطهاداتهم وكف الناس عن إرهاقهم وإعناتهم.

الفرس - دين زردشت

إيران- بين نهري دجلة والسند وبحر الجزر والخليج الفارسي صقع عظيم يعرف ببلاد إيران تبلغ مساحته خمسة أضعاف مساحة فرنسا، أو تزيد، ولكن معظمه محدب قاحل فهو يتألف من صحارى رمال محرقة، ومن أنجاد باردة قارسة تشقها أودية عميقة شجراء وتحيط بها جبال شاهقة وإذ حيل بين الأنهار وجريها فهي لا تسير إلا ريثما تضيع في الرمال، أو في بحيرات مالحة ويشتد هواء هذه البلاد ويتقلب فيكون حرا في الصيف وقرا في الشتاء، وقد يجتاز من يهبط هذه البلاد من منطقة تبلغ درجة حرارتها نحو ٣٢ درجة تحت الصفر إلى منطقة حرارتها ٤٥ سبتغرادا بمعنى أن تلك البلاد جمعت إلى برد سيبريا حرارة السينغال، وهناك تعصف الرياح الرعارع فتفعل في الأجسام فعل الحسام، بيد أن الأودية وضفاف الأنهر محصنة منبتة، وهذه البلاد هي، ولا جرم مصدر الدراق وشجر الكرز ومستنبت الثمار والمراعي.

الإيرانيون- سكنت بلاد إيران قبائل من الأريين[٣] (القاطنين ببلخ، أي: بكتريا، وهي الوطن الأصلي للجنس الأري) كانوا كسائر أبناء هذه البلاد جنس من الرعاة المسلمين المحاربين، ولقد كان الإيرانيون يقاتلون على ظهور الخيل ويطلقون السهام ويلبسون ألبسة من الجلد يجعلونها وقاية على أبدانهم من هواء بلادهم الشديد.

زردشت- عبد الإيرانيون أولا ما عبده قبلهم الأريين من قوى الطبيعة وخصوصا الشمس "ميترا" وقام بين أظهرهم حكيم اسمه زردشت (...... وله كتب كثيرة منها ما له علاقة بالشريعة، ثم ظهر زردشت وأصلح هذا الدين) ويدعوه

---

(٣) ما كان في هذا الفصل بين هلالين هو في الغالب من إملاء العالم الدكتور مورا مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء صاحب جريدة حكمت الفارسية الغراء بمصر واليه رجعنا في تصحيح بعض الأعلام

الإفرنج زرواستر فأصلح ديانة الإيرانيين بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد، ولم يبلغنا من أخباره غير اسمه الزاندافستا (الرندو بازندوافستا) لم يبق شيء مكتوب يؤثر عن زردشت، ولكن تعاليمه المؤلفة بعده بزمن طويل قد حفظت في الراندافستا، أي: الشريعة والإصلاح، وهو كتاب الفرس المقدس، وقد كتب هذا السفر بلغة قديمة لم يفهمها أتباع هذا المذهب أنفسهم ودعوناها، أي: الإفرنج بارند، وكانت تنقسم على ما ورد في أساطيرهم إلى إحدى وعشرين نسخة كتبت على اثني عشر ألف جلد ثور ضم بعضها إلى بعض بأسلاك من الذهب وأبادها المسلمون لما فتحوا بلاد فارس واحتفظت بعض أسرات إيرانية بتعاليم زردشت وأخلصوا دينهم له فلجئوا إلى بلاد الهند فحفظ فيها أحلافهم المدعوون بارسيس تلك الديانة القديمة، وقد وجد عندهم سفر تام من الراندافستا وقطع من الكتابين الآخرين.

أورمزد "هرمر وهرمس" وأهريمن "رمز إلى العقل والنفس عند العامة إله الخير والشر" هذه ديانة زردشت على نحو ما ورد في تلك الكتب إلا أن هرمر الذي يدعوه الإفرنج أورسرد، وهو الديان الذي لا يخفى عليه شيء خلق العالم والقوم يصلون له بهذه الألفاظ ادعو الخالق هرمر واحتفل بشعائره فإنه النور والضياء عظيم رحيم كامل شهم ذكي جميل سام طاهر يعرف العلم الصحيح مصدر اللذة، وهو الذي برأنا وصورنا وأطعمنا واذ كان على جانب من الصلاح لم يخلق إلا ما هو كذلك، وما يرى في العالم من شر، فقد يراه رب الشر إنكرامانيو، أي: روح العذاب وندعوه إهريمن (وديون، أي: شيطان).

الملائكة والشياطين- يقف إهريمن الشقي المحرب قبالة هرمر البارئ الحليم، ولكل منهما طائفة من الأرواح فجنود هرمر هم الملائكة المطهرون "ياراستا" وجنود أهريمين شياطين جبناء "ديو" ويسكن الملائكة في الشرق في ضوء المشرق والشياطين في الغرب في ظلمات الشفق وكلا الجيشين لا يزالان في حرب دائمة والعالم ساحة قتالهما؛ لأن كليهما حاضر في كل مكان فيسعى هرمر وملائكته

إلى الاحتفاظ بالخلق وإسعادهم وصلاحهم ويطوف إهريمن وشياطينه حولهم لإهلاكهم وسوء طالعهم وطلاحهم.

خلائق هرمر وأهريمن كل حسنة في الأرض هي من صنع هرمر وتستخدم للخير فالشمس والضياء اللذان يطردان الليل والكواكب والشراب المخمر الذي يتراءى كأنه ضوء سيال والماء المروي للإنسان والحقول المزروعة التي تغذيه والأشجار التي يستظل بها والحيوانات الأهلية والكلب والطيور منها خصوصا ما يعيش منها في الضوء، ولا سيما الديك؛ لأنه يبشر بالنهار هذه كلها برأها هرمر، وعلى العكس ينبعث كل ما يضر من أهريمن فيكون شرا مثل الليل والجفاف والبرد والقفر والنباتات السامة والشوك والحيوانات الكاسرة والأفاعي والحلمات الطفيلية (كالبعوض والبراغيث والبق) والحشرات التي تعيش في الجحور المظلمة كالصيان والعقارب والضفادع والجرذان والنمل وهكذا تبعث الحياة والطهارة والحقيقة والعمل وكل ما حسن في عالم الأخلاق من هرمر والموت والقذارة والكذب والكسل وكل ما خبث وساء ينبعث من أهريمن.

العبادة- مصدر العبادة والأخلاق من هذا الاعتقاد فعلى المرء أن يعبد رب الخير[4] ويناضل عنه يقول هيرودتس إن من عادة الفرس أن لا يقيموا هياكل ومعابد ومذابح للأرباب ويعد من أتى ذلك كافرا بالنعمة؛ لأن هذه الأمة لا تعتقد اعتقاد اليونان من أن للأرباب صورة على نحو صورة البشر، وأن هرمز ليبدو بهيئة النار، أو الشمس ولذا يحتفل الفرس بعبادتهم في الخلاء على الجبال أمام موقد مشتعل فينشدون الأناشيد تمجيدا لهرمز ويذبحون له الحيوانات (كذا) دليلا على عبادته.

الأخلاق- ناضل الإنسان عن هرمز محسنا لعمله منقحا لعمل أهريمن

---

(٤) إن بعض زنادقة الفرس أمهدوا (هم في أرض الجزيرة) يعبدون رب الشر على عكس ذلك ويذهبون إلى أن مذهب الخير لما كان في ذاته صالحا ورحيما لا حاجة أن يخضع له ويتقرب إليه بأنواع القربات وتدعى هذه الطائفة اليزيدية (عبدة الشيطان) قاله المؤلف

فيجاهد في الظلمات، وهو يمد النار بالحطب الجاف والعطور ويجاهد في القفر بحرث الأرض وابتناء البيوت ويجاهد حيوانات أهريمن بقتل الحيات والضباب والحلمات الطفيلية والحيوانات الكاسرة ويجاهد الدنس، وذلك أنه يتطهر ويدفع عنه كل ما مات وخصوصا الأظافر والشعور وحيثما وجدت الشعور والأظافر المقصوصة فهناك يجتمع الشياطين والحيوانات القذرة ويجاهد الكذب جاريا على قدم الصدق، قال هيرودتس: إن الفرس يستقبحون الكذب، وهو عندهم عار وسبة؛ كما أنهم يكرهون الاستدانة؛ لأن المديون يكذب بالضرورة ويجاهد الموت، وذلك بالزواج والاستكثار من الولد جاء في الراندافستا ما أقبح البيوت التي حرمت من النسل والذراري.

الجنائز- متى مات الإنسان تعود جثته إلى رب الشر، ولذلك يقتضي إنقاذ الدار منها لا بإحراقها فإنها تنجس الدار، ولا بدفنها فإنها تنجس الأرض، ولا إغراقها فإنها تنجس الماء، ومن فعل ذلك فيكون قد تلطخ بحمأة القذارة أبد الدهر وطريقة الفرس في دفن موتاهم تختلف عن غيرهم من الأمم فيجعلون الجثة في مكان عال مكشوفة جبهتها نحو السماء مثقلة بأحجار، ثم يركنون إلى الفرار خشية من الشياطين لأنها تجتمع بزعمهم في أماكن الدفن، حيث مأوى المرض والحمى والقذارة والرعب والشعور القديمة وعندها تجيء الكلاب والطيور، وهي من الحيوانات الطاهرة فتطهر الجثة بافتراسها.

مصير الأرواح- تنفصل روح الميت عن جسده، وفي اليوم الثالث من موتها يؤتى بالروح على الصراط (شنيواد) المؤدي إلى الجنة مارا فوق هاوية جهنم فيسأل هرمز الروح حينئذ عن حياتها السالفة فإن كانت محسنة تعضدها الأرواح الطاهرة وأرواح الكلاب وتأخذ بيدها لاجتياز الصراط ويدخل بها إلى مقام السعداء (برودس، أي: فرودس) فيهرب الشياطين لأنها تتجافى عن روح الأرواح التقية، أما روح الشرير فتصل على العكس من ذلك إلى الصراط ضعيفة مرتجفة لا يأخذ أحد بيدها ويلقي بها الشياطين في الهاوية ويتناولها روح الشر

ويقيدها في قعر الظلمات.

طبيعة الديانة الهرمزية، أو الهرمسية المزدية- نشأت هذه الديانة في بلد يشتد فيه الاختلاف والتناقض ففيها الأودية الباسمة بزرعها والأراضي البائرة المحزنة والواحات الرطبة والقفار المحرقة والحقول والسهول الرملية بحيث تتراءى قوى الطبيعة فيها كأنها في حرب عوان أبدا، وهذا الجهاد الذي يمثل للفارسي فيما يحيط به قد اتخذه شريعة للعالم وهكذا تألفت ديانة خالصة من الشوائب تدفع بالإنسان إلى العمل والفضيلة على حين قد انتشر هذا الاعتقاد بالشيطان والجن في الغرب وشغل شعوب أوربا كافة بالأوهام.

المملكة الفارسية.

الماديون[٥]- سكنت بلاد إيران عدة قبائل، ولم يشتهر بينها سوى الماديين والفرس خيم الماديون في غرب بلاد فارس، وهم أقرب إلى الأشوريين، ولذلك كان على أيديهم خراب نينوى وبلادها "٦٢٥"، ولكن لم يلبثوا أن استغرقوا في الترف وأنشئوا يتخذون ثيابا مسدولة ويألفون البطالة ويعتقدون اعتقادات خرافية شأن الأشوريين الساقطين، وما زالوا على ذلك، حتى امتزجوا معهم، أي: امتزاج.

الفرس- ، أما الفرس فكانوا في الأنحاء الشرقية (والجنوبية) واحتفظوا بأخلاقهم وديانتهم وشدتهم يقول هيرودتس أن الفرس لا يعلمون أولادهم إلى سن العشرين غير ركوب الخيل ورمي النشاب وقول الصدق.

قورش أوسيروس، أو كيخسرو- قام رئيسهم قورش حوالي سنة ٥٦٠ وخلع ملك الماديين (الذي هو جده لأمه) وجمع تحت لوائه شعوب إيران كافة ففتح بهم ليديا وبابل وجميع بلاد أسيا الصغرى ويروى لهذا الملك قصة فصلها

---

(٥) (بلاد مادي يسميها العرب بلاد الجبل والعراق العجمي وأزربايجان واستراباد، أي: ولايات فارس وكرمان ومكران، أي: بلوجستان وخراسان)

هيرودتس في تتويجه تفصيلا شافيا، قال: إنه دعا نفسه في بعض مازيره على الأحجار بقوله أنا قورش ملك الكتائب والعظمة والاقتدار أنا ملك بابل وسومير وأكاد ملك الأقاليم الأربعة وابن كمبير (كيكاوس) وسلطان سوزيان.

رسوم تيستون- أهلك كمبير بكر أولاد قورش أخاه سمرديس وفتح مصر (على قول اليونان) علمنا ذلك مما اتصل بنا من الرسم الذي مثل فيه ذلك، ولا تزال ترى إلى اليوم في تخوم الفرس وسط سهل أفيح صخرة هائلة نحتت نحتا عموديا علوها ٤٥٠ متر، وهي ضخرة تيستون، وهناك صخور ناتئة على حجر تمثل ملكا متوجا ويده اليسرى على قوس، وهو يدوس أسيرا وتسعة أسرى آخرون واقفون أمامه، وقد قيدهم بنفسه وكتبت ترجمة حياة الملك في رسم بثلاث لغات، فقد أعلن الملك داريوس دارا ذلك فقال: هذا ما قمت به قبل أن أغدو ملكا، فقد كان كمبيز بن قورش من بني جنسنا يحكم هنا قبلي، وكان له أخ لأبيه وأمه اسمه سمرديس فقتل ذات يوم كمبيز أخاه سمرديس، ولا علم للقومبما جنته يداه، ثم وجه كمبيز وجهته نحومصر وبينا هو نازل فيها ثار به الشعب، وكان قد أصبح الكذب مألوفا إذ ذاك في تلك البلاد، وفي بلاد مادي وسائر العمالات فقام موبذان[٦] كان حاضرا إذ ذاك اسمه عوماتا وجدع الأمة بقوله: أنا سميرديس بن قورش وعندئذ انتقض الشعب أجمع وانصرفوا نحوه متخلين عن كمبير ثم قصى كمبير يحبه بجراح جرح نفسه به وبعد أن أتى عوماتا ما أتى من هذه الحيلة واستلب من كمبير بلاد الفرس ومادي وسائر الأقطار جرى في الخطة التي شاءها وصار ملكا على هذه البلاد وحاكما متحكما في أهلها فخافه الشعب بظلمه، وكان لا يستنكف من قتل الأمة عن بكرة أبيها لئلا تكشف حيلته ويعرف القوم أنه لضيق بسمرديس بن قورش ودعي في أسسه، وقد أظهر الملك داريوس هذه الخديعة، ولم يكن أحد في بلاد الفرس ومادي بحرا على استرجاع

٦) موبذ موبذان، أي: رئيس الكهنة

تاج الملك من هذا المؤيدان عوماتا، قال دارا بعد أن قدم ما سلف: وعندئذ تقدمت ودعوت الرب هرمز فأعانني بالتوسل به، وكان في صحبتي باس ذوو إخلاص وصدق وأعانوني على قبل عوماتا وخاصة رجاله فأصبحت ملكا بمشيئة هرمز واستعدت الملك الذي كان بنو قومنا سلبوه وأرجعته إلى حورتي وأخذت أعيد المذابح التي طوى بساطها المويدان عوماتا، وذلك لأني كنت مخلصا للأمة واعدت الأناشيد والاحتفالات المقدسة إلى سابق عهدها واضطر دارا بعد أن ضرب ذاك الدخيل عوماتا ضربة قاضية أن يقاتل عدة زعماء ثائرين فقال: لقد قاتلت تسع عشرة مرة وغلبت تسعة ملوك.

المملكة الفارسية- علم بما مضى أن دارا أخضع المملكة الختلسة وأعاد مملكة الفرس، وقد وسع نطاقها بفتح تراس "تراتيا، وهي اليوم بلاد التلغاز والروملي" وولاية من الهند، وكان ينضم تحت لوائه شعوب الشرق أجمع من ماديين وفرس وأشوريين وكلدانيين ويهود وفينيقيين وسوريين وليديين ومصريين وهنديين، فكان سيف سطوته يحمي الأصقاع الواقعة بين نهر الدانوب "الطوبة" عرثا ونهر الأندوس "السند" شرقا وبين بحر الحور شمالا إلى شلالات النيل جنوبا مملكة لم يعهد لها مثيل في الضخامة ١٢٠ مملكة، بيد أن قبيلة جاءت بعد واستولت على تركة الممالك الآسياوية بأجمعها.

أقيال الفرس- قلما يعني ملوك الشرق بأمر رعاياهم إلا ليسنزفوا أموالهم ويمتهنوا في سبيل سلطانهم أبناءهم وينالوا مديحهم وثناءهم، وما قط أخذوا أنفسهم بالنظر في شؤون من يحكمونهم، وكان شأن دارا[٧] في هذا المعنى شأن سائر ملوك الشرق ترك كل قبيل في بلاده يحكم نفسه على ما يشاء ويشاء هواه محتفظا بلغته ودينه وشرائعه وأحيانا برؤسائه وسادته من قبل على أنه كان

---

(٧) (هو ابتدع طريقة البريد وتجنيد العشرة والمئات والألوف الخ وجعل لكل مملكة حاكما مدنيا وحاكما وعسكريا وجعل كلا عينا على صاحبه يرسلان إليه بتقاريرهما كل أسبوع)

يعي بتنظيم دخل المملكة الذي يتقاضاه من رعاياه فقسم بلاده إلى عشرين[٨] حكومة سماها إمارة، وكان في كل حكومة شعوب مختلفة كل الاختلاف سواء كان بلغتها، أو بعاداتها ومعتقداتها، وكان على كل حكومة أن تؤدي مسانهة خراجا معينا بعضه نقد ذهب وفضة وبعضه غلات وبوانج قمح وخيل وعاج فيتقاضى حاكم كل مقاطعة، أو قيلها ممن وسد إليه أمرها الخراج ويبعث به إلى مولاه الملك.

دخل المملكة بلغ مجموع دخل الملك ثمانين مليون مسكة زماما ما عدا خراج الغلات، وإذا اعتبرنا قيمة النقود في ذاك العصر فإنها تعادل ستمائة مليون جنيه في أيامنا، وكان الملك ينفق هذا على حكومته وجيشه وخاصته ومدح قصره ويبقى عنده كل سنة مساتك عظيمة من العين يدخرها في صناديقه، وكان ملك الفرس مثل سائر المشارقة يرى امتلاك الكنوز العظيمة من دواعي الأبهة والتمجد.

لم يكن في العالم أغنى ولا أقدر من ملك الفرس، فقد كان اليونان يدعونه السلطان الأعظم ملك الملوك شاهنشاه، وكان له كسائر ملوك الشرق سلطة مطلقة على رعاياه كافة فرسا كانوا أم غيرهم من سائر الشعوب الخاضعة لعرشه وأنت ترى فيما ذكره هيرودتس كيف كمبيز يحامل أعظم سادات قصره سأل يوما بريكستاسب يرى كشتاسب، أي: روح العظمة، وكان ابنه يسقسه ماذا تقول الأمة في امرئ فأجابه مولاي انهم يثنون على محامدك أطيب الثناء ولكنهم يذهبون إلى أن لك ميلا قليلا للخمر، قال كمبيز، وقد استشاط غضبا من هذا: اعلم إذا كان الفرس يقولون حقا وصدقا فإذا أنا رميت بسهمي قلب

---

(٨) قال المؤلف ذكر هيرودتس عشرين حكومة، وقد عثر في الرسوم المزبورة على إحدى وثلاثين حكومة قال مرزا مهدي خان الظاهر أن هذا الالتباس في تقدير الأعداد جاء من أن ممالك هذا الفاتح العظيم كانت منقسمة ثلاثة أقسام منها مملكتا مادي والفرس الخاصة، وما بقي منهما قسمان قسم استعماري وقسم استهلاكي

ابنك واقفا أمامك في هذا البهو فذلك أن الفرس لا يعرفون ما يقولون، وما هو إلا أن أعد قوسه وضرب ابن بريكستاب فخر الفتى صريعا فجاءه الملك ينظر أين أصابه سهمه فرآه قد أصماه ومزق حشاه فاستقر السرور الملك، وقال لوالد الغلام، وهو ضاحك: لقد رأيت بهذا أن الفرس قد أضاعوا رشدهم فقل لي هل عهدت أحدا يطلق السهم إطلاقي له فيصيب الغاية على ما رأيت من الرشاقة فقال بريكستاسب: لا أعتقد أيها المولى أنه في وسع الرب نفسه أن يرمي النبال مثلك في الدقة والاعتدال.

أعمال الفرس- أدى شعوب آسيا في كل دور من أدوارهم جرية للفاتحين وخضعوا للظالمين والغاشمين فنفعهم الفرس كثيرا بأن كفوا بعضهم عن مقاتلة بعض وأزالوا من يسهب أسباب الشحناء، وذلك؛ لأنهم أخضعوا كل الشعوب لرئيس واحد، وكان عهدهم عهد سلام لم تعهد فيه مدن تحترق، ولا ديار تخرب، ولا سكان تذبح، أو تؤخذ زرافات وأفواجا لتستعبد.

مدينتا سوس وبرتوبوليس[٩] - عنى ملوك الماديين والفرس بإقامة القصور على نحو ما كان يقيم ملوك أشور وأحسن ما اتصل بنا خيره من تلك القصور قصور دارا في سوس وبرسوبوليس، وقد حفر المسيو ديولافوا الافرنسي خرابات سوس فعثر فيها على نقوش وقرامد مرينة بالمينا تبين إرتقاء الصنائع إذ ذاك وبقيت من قصر البرسوبوليس خرائب عظيمة، وقد نحت في صخر الجبل سطح عظيم قام عليه القصر، وهو يوصل إليه بسلم واسع بانحدار قليل بحيث كان يتأتى لعشرة فرسان أن يصعدوه معا.

النقش الفارسي- حذا نقاشو الفرس حذو الأشوريين في إقامة قصورهم فتجدها في برسوبوليس؛ كما تجدها في بلاد أشور سقوفا متسعة السطوح

---

(٩) (سوس في ولاية ششتر هي التي ظهرت فيها شريعة همورابي وبرسوبوليس هي اصطخر في ولاية فارس بالقرب من مدينة شيراز)

يحرسها أسود من الحجر والنقوش الناتئة تمثل صيودا واحتفالات، وقد أحسن الفرس في إتمام نموذجاتهم في ثلاثة أشياء، وذلك بأن استعملوا الرخام عوضا عن القرميد وجعلوا في الردهات سقفا بالخشب المصور وانشئوا أعمدة خفيفة على شكل جذوع الأشجار في أقصى ما يعلم من الحذاقة واللطف، وهي أعلى من محيطها باثنتي عشرة مرة، ولذلك جاءت نقوشهم أجمل أثرا وأوقع في النفوس من نقوش بلاد أشور وقلما نجح الفرس في الصنائع ويظهر أنهم كانوا أحشم شعوب ذاك العصر وأطهرهم وأشجعهم، وكانت وطأة حكمهم في آسيا مدة قرنين أقل حورا مما عرف من ضروب الحكومات، وكانوا أميل إلى الرفق بمن يحكمون.

اليونان - العناصر اليونانية

صورة هذه البلاد- أرض يونان من الأقاليم الضيقة المضطرب (هي ٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع) لا تكاد مساحتها تزيد عن مساحة سويسرا ولكنها بما فيها من اختلاف الاهوية، وما يتخللها من جبال ويتقسمها من الخلجان إقليم غريب في شكله خلق ليؤثر تأثيرا كبيرا في أخلاق ساكنيه وتقطع أرض اليونان من وسطها سلسلة من الجبال البند فيناوح الجبل فيها جبلا مثله ويقوم الصخر إلى جانب الصخر، حتى إذا بلغ ترعة كورت ينخفض وترتفع مقاطعة المورة في الجانب الآخر من الترعة فيعلو على سطح البحر ستمائة متر كأنه حصن أحاطت به سلاسل عالية وعرة مثلجة تنزل في البحر على خط قائم وتمتد الجزر على طول الشاطئ، وما هي إلا جبال معمورة يمر رأسها فوق الماء ونقل في هذه الأرض ذات الوهاد والنجاد التربة الزراعية وتكاد لا ترى حيثما ألقيت ناظرك غير صخور جرداء مرداء، أما الأنهار فتشبه سيولا ليس فيها غير طريدة ضيقة من التربة المنبتة بين مجراها ونصفه جاف وبين صخور الجبال الجرداء، وكان في هذه البلاد الجميلة بعض غابات وأشجار سرو وغار ونخيل وكروم غرست في مواضع من التلال، ولكن قلما أتت بغلات جيدة، أو بمراعي حصيفة فبلاد هذا

شأن طبيعتها ينشأ أبناؤها ممشوقة قدودهم قوية أجسادهم قانعة نفوسهم.

البحر- تعد بلاد اليونان من البلاد الساحلية، وهي أصغر من البرتغال وشواطئها تكاد تقرب من شواطئ أسبانيا لكثرتها ينساب فيها البحر من عدة خلجان ووقائع[١٠] وتجاره، ومن العادة أن يحيط باليم صخور تتقدم، أو جزر تتقارب يتألف منها مرفأ طبيعي، وهذا البحر أشبه بحيرة لأمد فيها، ولا جزر، ولذلك سلمت شواطئه من الضرر، وليس لونه كالبحر المحيط أبيض كامدا كئيبا، وهو في العادة هادي صاف ولونه كالبنفسج؛ كما يقول هوميروس، ولا أكثر استعدادا من هذا البحر للسفر فيه سفرا قصيرا، ولقد تهب ريح الشمال صيحة كل يوم فتسير بها قوارب مدينة أثينة نحو آسيا وتقذفها ريح الجنوب في المساء إلى المرفأ والجزر من بلاد اليونان إلى آسيا الصغرى قائمة مثل صخور الكمين، وإذا صحت السماء تقطع السفينة المسافة، وهي بمقربة من اليابسة تراها كل حين، ولذلك كان لسكان هذه البلاد من سكون بحرهم باعث على ركوبه واجتيازه فأصبح اليونان من ثم بحارة وتجارة وسياحا ولصوص بحر ومتشردين على نحو ما كان الفينيقيون فانتشروا في العالم القديم أجمع وجلبوا إلى بلادهم سلع مصر وبلاد الكلدان وآسيا واختراعاتها.

هواؤها- لطف هواء بلاد اليونان، حتى حتى أن الجليد في أثينة لا يحدث إلا في كل عشرين سنة والحر معتدل في الصيف بما يهب عليها من نسيم البحر وإلى اليوم لا يزال الشعب فيها ينام في الطرقات منذ شهر مايو (أيار) إلى أواخر سبتمبر (أيلول) والهواء فاتر جاف، وكان يرى على بضعة فراسخ في القلعة المطلة على أثينة ريش تمثال بالاس، وليست دوائر الجبال القاصية مستورة بالضباب؛ كما هو الحال عندنا معاشر الفرنسيس، بل إنها تتحل بأسرها في السماء الصافية هذه البلاد بجمالها تدفع المرء أن يتخذ الحياة عيدا فيرى كل

---

(١٠) (في القاموس الوقيعة نقرة في جبل، أو سهل يستنقع فيها الماء جمعه هو قاع ووقائع)

شيء يبسم حواليه فمن برهة في الحدائق بالليل واستماع أصوات الصراصير، ومن الجلوس في ضوء القمر والضرب بأسباب وقصد الجبال للشرب من مائها واستصحاب الراح وشربه على النغمات والأغاني وقضاء الأيام في الرقص هذه هي بلاد اليونان، وما هي بلاد اليونان، وما هي إلا بلاد جيل من الناس فقير مقتصد فتي لا يعرف الهرم أبدا.

بساطة العيشة اليونانية- لا يتعب المرء من حرارة هذه البلاد، ولا يشقى ببردها، بل يعيش في الهواء الطلق مسرورا قليل النفقة، ولا تقتضيه البلاد غذاء عزيزا، ولا ثيابا ثقيلة، ولا دارا مرفهة، فقد اليوناني بتبليغ تحفته من الزيتون وسمك والسردين ويلبس أملا وقميصا ورداء كبيرا وكثيرا ما كان يخرج حافيا مكشوف الرأس وداره بناية منيعة ليست من المتانة بحيث يدفع اللصوص عن دخولها بثقب حائطها، ولا له من الأثاث غير فرش وبعض لحف وبضع أواني جميلة ومصباح، وكانت الجدران خالية من الزينة مبيضة بالجير (الكلس)، ولا يأوى إلى الدار إلا آونة النوم فقط.

بلاد اليونان الأصلية

أصل اليونان- كان أصل الشعب الساكن في هذه البلاد الجميلة الضيقة النطاق من الجنس الآري أنسباء الهنود والفرس جاءوا مثلهم من جبال آسيا، ولقد نسي اليونان تطواف أجدادهم الطويل فكانوا يقولون أنهم ولدوا من التراب كالصراصير، بيد أن لغتهم وأسماء أربابهم لم تترك مجالا للشك في أصلهم، وكان اليونان الأول كسائر الآريين يقتاتون باللبن ولحوم القطعان ويسيرون مدججين بأسلحتهم، وهم أبدا على قدم القتال ينضمون قبائل وفضائل تحت إسرة بطاركتهم.

أساطيرهم- جهل اليونان أصولهم كسائر الشعوب القديمة، فلم يكن لهم اعتناء أسلافهم، ولا بالزمن الذي توطنوا فيه أرض يونان، ولا شيء من أخبارهم

وأعمالهم فيها، وإن حفظ ذكر الحادثات الطارئة؛ كما وقعت ليتوقف على إعداد الأسباب لها، ومن أسبابها الكناية غير أن اليونان لم يعرفوها إلا حوالي القرن الثامن (ق.م)، ولم يكن لهم واسطة لحساب السنين، ثم اتخذوا بعد طريقة حساب السنين اعتبارا من المهرجان العظيم الذي كانوا يحتفلون به في أولمبيا كل أربع سنين وتدعى هذه المدة الدورة الأولمبية، وقد وضعت الألومبية الأولى عام ٧٧٦ فتسلسل تاريخ اليونان منذ ذاك الحين، ولم يتصل بما وراء ذلك ومع هذا، فقد نقلت أساطير كثيرة عن هذه المدة الأولى في البلاد اليونانية وخصوصا وقصص قدماء الملوك والأبطال الذين كانوا يعبدونهم كأنهم نصف أرباب، وهذه الأقاصيص مشوبة بحكايات يتعذر الإلمام بما فيها من حق وصدق، فقد ذكروا في أثينة أن الملك الأول المدعو سكروبس كان نصمه ملكا ونصفه حية وذكروا في ثيبة أن كادموس مؤسس المدينة جاء من فينيقية للبحث عن أخت أوروبا التي خطفها ثور، وكان قبل تنينا وزرع أضراسه فنبتت منها مقاتلة، ومنهم تناسلت الأسرات الشريفة في ثيبة وزعموا في مدينة أرعوس أن أصل الأسرة المالكة من بيلوبس، وكان أعطاها المعبود زيوس كتفا من العاج للاستعاضة عن كتفه التي أكلتها إحدى الأرباب وهكذا كان لكل بلد أساطير يتلونها ويتناقلونها وظل أبناء اليونان يذكرونها إلى ما بعد ويتبتون لأبطالهم القدماء نصيبا من روح الربوبية مثل أبطالهم برسي وبلير وفون وهيراكليس وتيري ومينوس وكاستورس وبولوكس وميليمابرس وأديس ومعظم اليونانيين، بل أن الطبقة المنورة منهم اتحدوا هذه التقاليد حقائق لا تراع فيها إلا قليلا تلقوها على نحو ما تؤخذ الحادثات التاريخية أخبار الحرب بين أبي أدبيس ملك ثيبة وجملة الأرعونت التي سافر في طلب جزة الكبش التي قام بحراثتها ثوران لهما ارحل من قلز تقذف النار من أفواهها.

حرب طروادة- أشهر هذه الأقاصيص كلها حروب طروادة، وهي أوسعها بيانا وتفصيلا فيروى أنه كان نحو القرن الثاني عشر مدينة عتبة ذات سطوة اسمها

طروادة، وكانت الحاكمة المتحكمة على شاطئ القارة الآسياوية فجاء أحد أمراء هذه المدينة واسمه باريس إلى أرض يونان وسبى هيلانة حليلة ميلاس ملك اسبرطة فاتفق أغامنون ملك أرعوس مع سائر ملوك اليونان وانفذوا لحصار طروادة جيشا يونانيا على أسطول مؤلف من ألف ومائتي سفينة فدام الحصار عشر سنين إذ كان الرب ريوس راضيا عن الطرواديين عاقدا النصر بألويتهم، ولقد اشترك ...... اليونان كافة في هذا الحصار فقتل هكتور رئيس المدافعين عن حياض طروادة، بيد أشيل، وكان أجمل اليونانيين خلقة وأشجعهم نفسا وجر جثته حول المدينة قاتل أشيل بسلاح إلهي وهبته إياه أمه ربة البحر، ثم هلك بسهم أصابه في عقبه، حتى إذا يئس اليونان من الاستيلاء على المدينة بالقوة عمدوا إلى الحيلة فأوهموا أنهم أزمعوا الرحيل وتركوا ورائهم حصانا ضخم الجثة من خشب اختبأ فيه زعماء الجيش فأخذ الطرواديين هذا الحصان وأدخلوه مدينتهم فلما جن الليل خرج القواد منه وفتحوا أبواب المدينة لليونان فحرقت طروادة وذبح الرجال واستعبد النساء.

ولما قفل زعماء اليونان من عزاتهم هبت عليهم العاصفة فغرق بضهم في البحر وقذفت الأمواج بفريق منهم إلى شواطئ بعيدة، وكان من حظ غولس أكثر هؤلاء الزعماء جريزة ودهاء وأطولهم يدا في كيد المكايد أن قضى عشر سنين تتقاذف به البلاد، حتى أدت به الحال أن، فقد سفنه جمعاء ونجا من الغرق برأسه.

وبعد، فقد كان الاعتقاد بحرب طروادة شائعا في القرون القديمة شيوع الأخبار الثابتة فزعم القوم أن غاية الحصار كانت سنة ١١٨٤ وحددوا مركز تلك المدينة، وقد خطر للمسيو شيلمان من علماء الآثار سنة ١٨٧٤ أن يحفر محل هذه المدينة فأقتضى له أن يزيل أنقاض عدة مدائن منضدة فوق بعض فعثر على عمق خمسة عشر مترا في أعمق طبقة من تلك الأنقاض على آثار مدينة حصينة استحالت رمادا وظفر في خرائب أهم تلك الأبنية بصندوق ملئ بالحلي من ذهب

سماء كبربريام، وكان تمت نقش تلك المدينة التي ظهر سورها كله صغيرة حقيرة وعثروا فيها على عدد كثير من الأصنام الصغيرة الرديئة الصنع والوضع، وهي تمثل ربة لها رأس بومة (وعلى هذه الصورة كان اليونان يمثلون الربة بالاس) ومع كل هذا فليس تمت دليل يقوم على أن هذه المدينة الصغيرة دعيت باسم طروادة قديما.

ميسينيا- ورد في الأساطير اليونانية أن الملك أغامنون الذي كان قائد الحملة اليونانية على مدينة طروادة كانت عاصمته مدينة طروادة، وأن زوجته قتلته عند عودته من هذه الغزاة ودفن بالقرب من قصره، ولقد عرف اليونان مكان مدينة ميسينيا لأنها كانت مأهولة إلى القرن الخامس قبل المسيح، ولا يزال إلى اليوم حول الجبل سور من الصخور الضخمة مصفوفة بعضها فوق بعض بدون ملاط يلحم بين أجزائها وتحتها خمسة أمتار، وكان اليونان يدعون هذا السور الحيطان السيكلونية اعتقادا منهم بأن الجبابرة سيكلون قد أقاموا بنيانها ورفعوا قواعدها ويدخل إلى هذا السور من باب علوه زهاء ثلاثة أمتار مؤلف من ثلاثة صخور هائلة وفوقها عمود بين أسدين منقوشين، وهذا هو باب الأسود.

ولما اكتشف شيلمان سنة ١٨٧٦ مدينة طروادة عزم أن يبحث عن قبر أغامنون في ميسنيا، وكان الحفر قد جرى فيها غير بعيد عن سطح الأرض فحفر شيلمان في التراب، حتى وصل إلى الصخر فلما كان على عشرة أمتار من العمق عثر على ستة قبور فيها سبع عشرة جثة مع كمية كبيرة من الحلي الذهبية وأساور وعقود ودبابيس وتيجان وسبعمائة سفيقة ورقة من ذهب وزهاء مائتي سيف وحجر مع نصال مموهة بالذهب والفضة، وكان على وجوه بعض الجثث برقع من السفيقة، وكانت هذه القبور على ما ظهر مدافن أمراء ميسينا.

ومنذ ذاك العهد اكتشف الباحثون في كثير من أنحاء اليونان أشياء كثيرة ومنها أواني خزفية وحلي تشبه خزف ميسينا وحليها، وقد عثر في بعض الأحيان بين هذه الدفائن على حلي مصرية من عهد الدولة التاسعة عشرة فاستنتجوا من

ذلك بأنه كان في يونان منذ الزمن العريق في القدم بين القرن الثامنم عشر والخامس عشرق. م ملوك أصحاب شوكة يستطيعون معها إنشاء مدن حصينة ذات غنى متوسط وتيسر لهم به أن يكنزوا الكنوز ويستصنعوا الآثار النفيسة، وهذا ما دعي بالتمدن الميسيني.

أشعار هوميروس- إن القصيدتين المنسوبتين للشاعر هوميروس، وهما الإلياذة التي ذكرت فيها حروب اليونان ورجولية أشيل أمام طروادة والأوديسة التي جاءت فيها حوادث عولس بعد سقوط طروادة هاتان القصيدتان هما اللتان أذاعتا في أطراف العالم أجمع سقوط مدينة طروادة، وقد حفظتا قرونا دون أن يكتبا، فكان المغنون الذين ألفوا الترحل يستظهرون أبياتا طويلة منهما وينشدونها في الأعياد، وفي القرن السادس أمر أحد أمراء أثينة واسمه بيرسترات أن تجمع القصيدتان وتكتبا فأصبحتا بعد ومازالتا أبدا أجمل الآداب اليونانية المعجبة المطربة يقول اليونان إن مؤلفهما هوميروس كان أحد أبناء يونان من مدينة أيونية وعش نحو القرن التاسع، أو العاشر ويمثلونه على صفة شيخ ضرير فقير ويهبط أرضا ويصعد أرضا وتنازعت سبع مدن شرف نسبته إليها تدعي كل منها أنها مسقط رأسه، وقد وقع التسليم بذلك تقليدا بدون مناقشة فيه، وفي أواخر القرن الثامن عشر قام أحد علماء الألمان واسمه فولف أن بعض الناقص في هاتين القصيدتين أداة من يجزم بأنهما ليستا من نظم شاعر واحد ولكنه كتاب مؤلف من مقاطيع لشعراء مختلفين، وقد حمل أهل العلم على هذه القضية حملات منكرة، وهم بين مثبت لها تماما ومنكر لها تماما وظلوا مدة نصف قرن يتنازعون في وجود هوميروس، أو عدمه ومازال فريق أهل العلم إلى اليوم على أن هذه المسألة متعذر حلها، ومن المؤكد أن هذه القصائد قديمة العهد جدا، وربما كانت من القرن التاسع ألفت الإلياذة في أسيا الصغرى، وربما تألفت من مجموع قصيدتين خصت إحداهما بحروب طروادة وثانيتهما بحوادث أشيل، أما الأوديسة فإنها على ما يظهر من نظم شاعر واحد، ولكن ليس ثمت من دليل يقوم على أنها

من نظم مؤلف الإلياذة بعينه.

اليونان على عهد هوميروس- يتعذر علينا أن نوغل في تاريخ اليونان إلى قرون بعيدة وأشعار هوميروس أقدم مستند لشأنهم، ولما نظم هذا الشاعر منظومته نحو القرن التاسع قبل ميلاد المسيح لم يكن لبلاد اليونان إذ ذاك اسم يطلق على سكان اليونانية قاطبة فسماهم هوميروس باسم قبائلهم الأصلية ويظهر أنهم؛ كما وصفهم قد نجحوا منذ غادروا أسيا فعرفوا حرث الأرض وبناء المدن الحصينة وتألفوا شعوبا صغيرة وأطاعوا ملوكا لهم، وكان لهم مجلس شيوخ ودار ندوة، وقد فاخر اليونان بحكومتهم واحتقروا الشعوب النازلة بقربهم؛ لأنهم كانوا دونهم فدعوهم البرابرة، وقد صرح عولس بخشونة السيكوليس بقوله ليس لهم قواعد في العدل، ولا أندية يتشاورون فيها وأفرادهم يحكمون نساءهم وأولادهم بالذات، ولا يعنى بعضهم ببعض ومع هذا، فقد كان اليونان إلى ذلك العهد نصف برابرة، فلم يعرفوا الكتابة، ولا النقود، ولا تطريق الحديد وقلما كانوا يجرأون على ركوب البحر وتجشم أخطاره ويزعمون أن الغول سكن جزيرة صقلية.

غارات على أرضهم ورحلات إليها.

تاريخ اليونانية- لم يسكن جميع شعوب اليونان منذ الزمن الأطول البلاد التي كانوا فيها في القرن السابع، أي: في العصر الذي أخذ أهل العلم يعرفون عنهم شيئا يوثق به، وقد حفظ كثير من هذه الشعوب ذكرى نزولهم في تلك البلاد وامتازوا عن الشعوب العريقة في القدم النازلة في تلك البلاد جاءت أمم كثيرة فاحتلت أرض يونان بقوائم سيوفها وتشتت شمل عيرهم أمام المغيرين عليهم ويقول اليونان أن بدء هذه الحملات الشعواء والرحلات كانت من القدم بحيث لم تصلنا أخبارها مسطورة ونقلت وشاع ذكرها تقليدا، أو يقولون إنها كانت في القرن الثاني عشر، أي: بعد أحداث طروادة بثمانين سنة، ولا عبرة بهذا

التاريخ إذ لم يكن لليونان وسائط يحسبون بها في ذاك العهد المتطاول على أن هذا التاريخ أخذ قضية مسلمة بدون جدال، ولا نزاع فيه دعي أقدم سكان يونان بالبلاسج ولعل معناه القدماء، ولم يعرف عنهم شيء، ولا فيما إذا كانوا من جنس يوناني، أو من جنس آخر، ومن هؤلاء السكان لا يعرف غير اليونان، ولا يعلم أيضا كيف أبدل اسم بلاسج بالهيلانيين إذ لم يرد في أشعار هوميروس أيضا ذكر لهذا الاسم، ومن المقرر أن بضعة بلاد حفظت أثرا من آثار فاتحيها وغزاتها، فقد جاء قوم برابرة من البلاد المشهورة بالألبانيين الأرناؤوط اليوم وهاجموا سهل بينية الفسيح فدعي بعد باسم تساليا وتألفت من هؤلاء المهاجمين عصابة من الفرسان الأشراف وأمسى سكان البلاد الأصليين عملة يزرعون ويحرثون ليس إلا، وقد رحل إلى وادي سيفيز الذي سمي باسم نيوسيا كل من لم تخضع نفسه لهذا الحكم.

وبعد ردح من الدهر خرج الدوريون من جبال البند واجتازوا برزخ كورت وأغاروا على بلاد المورة واستوطنوا من أقاليمها ما أمرعت تربته وغنيت رباعه وبقاعه مثل لاكونيا وميسينيا وأرغوليديا وسيكيونيا وكورنت وميكار ويروى أن قدماء ملوكهم دعوهم الهيراكليديين، أي: نسل المعبود هيراكليس ليغلبوا رعاياهم الثائرين ويعيدوهم إلى عروشهم، وكان ملوك إسبرطة يرون أنهم من نسل قدماء السكان لا من الدوريين، وقد استحال الشعب الذي احتل البلاد التي أغار عليها الدوريون إلى زراع وأهل فلاحة.

واستولت عصابة من الإيتوليين الذين صحبوا الدوريين في تلك الحملة على مقاطعة إيلديا في الغرب وانهال الإشيانيون ممن أبت نفوسهم الخضوع على شاطئ جزيرة المورة الشمالي وطردوا منها الأيونيين وأسسوا الاثنتي عشرة مدينة الأشيانية فلجأ الأيونيون المطرودون إلى مقاطعة أتيكيا وامتزجوا بسكانها الأقدمين، ومن ذلك العهد عرف الأثينيون، أي: سكان أتيكيا شعبا أيونيا، ثم انفصلت عصابات من عدة شعوب وراحوا يؤسسون مستعمرات في السيف الآخر

من البحر والأيوليون أقدم هذه العصابات النازلة في آسيا، ثم سكنوا بعد هذا الشاطئ بعينه واحتل الدوريون جزيرة أقريطش كريت وبعد زمن احتل اليونان صقلية وايطاليا الجنوبية.

الدوريون- يراد بالدوريين نسل سكان الجبال النازلين من الشمال ممن طردوا، أو أخضعوا سكان السهول وشاطئ بلاد اليونان الجنوبية المعروف ببلاد المورة ويذكر هؤلاء المغيرون أن ملوكا من اسبرطة من نسل البطل هيراكليس قد طردهم رعاياهم فجاءوا يبحثون عنهم في جبالهم فتبع الدوريون أخلاف هذا البطل حبا به ونصبوهم على عروشهم وأغاروا على السكان فاستصفوا أرضهم وديارهم، وكان هذا العنصر جيلا من الناس اشتهر بجماله وقوته وصحة أجسامه وتعود البرد وشظف العيش وحياة الفقر والفاقة فترى رجالهم ونساءهم يلبسون ثيابا قصيرة لا تصل إلى ركبهم والدوريون أمة حربية دعاها الاضطرار إلى أن تكون أبدا على قدم الدفاع تحمل عدتها وعتادها، وهم أقسى أهل يونان لبعد إقليمهم عن البحر، ولذلك احتفظوا بأخلاق الأجيال المتوحشة، وهم أعرق في اليونانية من غيرهم من سكان تلك الأمصار؛ لأنهم كانوا على وحدتهم لا يستطيعون الامتزاج بالعرباء، ولا تقليدهم في منازع أخلاقهم.

الأيونيون- يدعي شعوب ايتكيا والجزائر وشاطئ آسيا بالأمة الأيونية، ولا يعلم من أين جاءتهم هذه التسمية، وهم على عكس الدوربين جنس من البحارة، أو التجار، ومن أكثر شعوب اليونانية تهذيبا؛ لأنهم استفادوا من الاحتكاك بأمم مشارقه أعرق منهم في الحضارة واقتبسوا من النظر إليهم، وهم ضعاف في صبغتهم اليونانية لامتزاجهم بالآسيويين ولأنهم نحوا نحو هؤلاء في عاداتهم إلا قليلا يميلون إلى السلم ويولعون بالصناعات ويعيشون عيش الترف يمضغون الكلام ويرفقونه ويلبسون ثيابا ضافية الأذيال على مثال المشارقة.

الهيلانيون- هذان العنصران، أو الجنسان المتباينان المعروفان بالدوريين والأيونيين هما أشهر عناصر اليونان واقدرها فإقليم إسبارطة للدوريين وإقليم

أثينية للأيونيين، وليس السواد الأعظم من اليونان دوريين، ولا أيونيين ويعرفون بالأيوليون، وهو اسم مجهول يطلق على شعوب مختلفة في تلك الأصقاع من ايوليين واكرانيين وفوسيديين وبيوسيين من أهل البلاد اليونانية الوسطى والأشائيين من أهل المورة وكل من تقدم ذكرهم يسمون باسم الهيلانيين الذين عرفوا منذ ذاك العهد، وهم لا يعرفون وجه تسميتهم هذه؛ كما نجهل نحن ذلك على أنهم يقولون أن دوروس وغولس كانا أولاد هيلانة وأيون حفيدها.

مستعمرات اليونان[11]

الاستعمار اليوناني لم يقتصر الهيلانيون على سكنى بلاد اليونان فقط، بل قام منهم طوارئ من أهل المدن أنشئوا بلدانا في جميع الأنحاء المجاورة، وكانت عدة من هذه الممالك الصغيرة اليونانية في جميع جزائر الأرخبيل، وعلى جميع شواطئ آسيا الصغرى وأقريطش وقبرص، وفي كل ما أحاط بالبحر الأسود إلى بلاد القافقاس والقريم على طول البلاد العثمانية في أوريا المعروفة إذ ذاك بتراسيا، وعلى شاطئ إفريقية، وفي صقلية وإيطاليا الجنوبية إلى شواطئ فرنسا واسبانيا.

أخلاق هذه المستعمرات- يبدأ تاريخ المستعمرات اليونانية من قرون كثيرة، أي: من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس، وهذه المستعمرات اشتقت من كل المدن ونتجت عن كل جنس دوريا كان، أو أيونيا، أو أبوليا ولطالما قامت المستعمرات في أماكن قفرة تارة، وفي بلاد مأهولة أخرى أسست حينا بالفتح وآونة بالإتحاد مع السكان وأنشأها بحارة، أو تجار، أو منفيون، أو متشردون وتمتاز هذه المستعمرات على اختلاف زمانها ومكانها وجنسها وأصلها بخلق عام وأنها نشأت دفعة واحدة بمقتضى قواعد ثابتة، وما كان الطوارئ، أو المستعمرون من اليونان

---

11) جاء هذا الفصل متأخرا عن هذا بضعة فصول في الطبعة الأخيرة

يحلون في بلد واحدا بعد واحد عصابات صغيرة، ولم ينزلوا بقعة عرضا فيقيمون لهم مساكن تصبح بالتدريج مدينة على نحو ما يفعل الطوارئ من الأوربيين في أميركا اليوم، بل كان الطوارئ منهم يسافرون قضهم وقضيضهم دفعة واحدة ورئيسهم واحد فتؤسس البلدة الجديدة في يوم واحد، وكان تأسيس إحدى المدائن يعد احتفالا دينيا فيحط المؤسس لها سورا مقدسا ويحمل بيتا مباركا يوقد فيه نار مقدسة.

تقاليد المستعمرات- ينصح مما نقل من القصص القديمة في تأسيس بعض هذه المستعمرات وجه الاختلاف بينها وبين المستعمرات الحديثة واليك كيفية استعمار مدينة مرسيليا والبداءة به، فقد جاء إلى بلاد الغال فرنسا اليوم أوكسينس أحد أهالي مدينة فوسي في آسيا الصغرى على سفينة تجارية فدعاه أحد زعماء الغاليين إلى عرس ابنته، ومن عادة هذا الشعب أن تدخل العروس بعد الطعاك حاملة كأس تقدمها لرجل تختاره من الجماعة فوقفت أمام اليوناني ومدت الكأس نحوه فظهر للقوم أن هذا العمل كان بإلهام من السماء إذ لم يكن متوقعا فما كان من الزعيم الغالي إلا أن زوج أوكسيس من ابنته وسمح له بأن يؤسس ورفاقه مدينة على خليج مرسيليا تم لما رأى أهل فوسى أن الجيش الفارسي يحاصر مدينتهم يعدون لهم سفنا نقل عيالهم وأهالهم وأصنامهم وحلي معابدهم وغادروا بلدهم ماحرين في سفنهم وأقسموا عند منصرفهم أن لا يعودوا إليها إلا إذا عامت على وجه الماء الجديدة المحياة التي ألقوها في البحر، وقد بكت كثير منهم هذا العهد وعادوا إلى مسقط رؤوسهم، أما الباقون فظلوا يشقون العباب بعد العباب، حتى وصلوا إلى مرسيليا بعد أن تحشموا أهوالا كثيرة وأسس الأيونيون مدينة ميلت تاركين نساءهم وراءهم واستولوا على بلد يقطنها ناس من آسيا فذبحوا الرجال وتزوجوا نسائهم وبناتهم قسرا ويقال: إن هؤلاء النساء أقسمن أن لا يتناولن الطعام مع أزواجهن، وأن لا يناديهم بيا أزواجنا عادة بقيت قرونا يعمل بها نساء ميلت، أما مستعمرة برقة في إفريقية، فقد أسست بأمر

صريح من المعبود أبولون ووحي منه، فلم يكن سكان مدينة تبرا الذين أمروا بذلك يحاذرون من نزول بلد مجهول، ولم يعملوا بهذا الأمر إلا بعد سبع سنين، وكانت جريرتهم عرضة للجفاف فاعتقدوا أن أبولون ساقهم إلى تلك الجزيرة عقابا منه لهم وحاول الطوارئ الذين أنقذوهم أن يرجعوا فداهمهم مواطنوهم وأكرهوهم على السفر وبعد أن قضوا عامين في إحدى الجزر، وقد حانتهم فيها أسباب النجح انتهى بهم الحال أن يستوطنوا أبد الدهر مدينة برقة، فكان منها مدينة عامرة راقية.

خطورة المستعمرات- من شأن هذه الطوارئ أن تؤسس حكومة جديدة في كل مكان تنزله، ولا تخضع لأم القرى التي انفصلت عنها بته وهكذا بلغت الحال بأن كان البحر المتوسط محاطا بمدن يونانية كل منها مستقلة تمام الاستقلال فأصبح كثير من هذه المدن آية في غناه وقوته لم تضاهه بهما المدن التي خرجت منها، وكان لها أصقاع أوسع وأخصب وسكان أوفر وأكثر ويقال: إنه كان في مدينة سيباريس في إيطاليا ثلثمائة ألف رجل يحمل السلاح، وأن كروتون جيشت جيشا مؤلفا من مئة وعشرين ألف مقاتل وباقت سيراكوزه في صقلية وميلت في آسيا بقوتهما مملكتي إسبارطة وأثينة، وكان يدعى جنوب إيطاليا يونان الكبرى، وما كانت المملكة الأصلية غير بلاد صغرى بالنسبة لتلك المملكة المأهولة كلها بالطوارئ من اليونان وحدث أن كان الهيلانيون أوفر عددا في البلاد المجاورة منهم في بلاد اليونان نفسها وترى بين رجال تلك المستعمرات طائفة صالحة من المشاهير مثل هوميروس والسيوس وساقوس وطاليس وفيثاغورس وهيراقليطس ودموقريطس وانفيدكلس وأرسطوطاليس وأرخميدس وثيوكريتس وغيرهم.

المدن- ظل اليونان منقسمين إلى طوائف صغيرة في كل البلاد التي نزلوها؛ كما كانوا على عهد هوميروس وغير خاف أن أرض يونان وايطاليا الجنوبية منقطعة بالبحر والجبال، ولذلك انقسمت بالطبع إلى عدد كبير من المقاطعات

الصغيرة كل منها منفردة عن جاراتها برأس من البحر، أو انحدار من الصخر بحيث يسهل الدفاع عنها وتضعب المواصلات فكانت تتألف من كل مقاطعة حكومة على جدتها مدينة، وقد بلغت أكثر من مئة مدينة، وإذا أحصيت المستعمرات بلغت زهاء الألف[١٢]، وليست مملكة اليونانية إلا صورة مصغرة بالنسبة إلينا فإن إيتيكيا كلها لا تساوي نصف أصغر مقاطعات فرنسا بهذا العهد، أما أراضي كورنت، أو ميكار، فقد صارت ريفا، أو مزارع، ومن العادة أن يكون ما يعبرون عنه مملكة عبارة عن مدينة وساحل ومرفأ، أو بضع قرى مبعثرة في الفلاة حول قلعة فترى من المملكة الواحدة قلعة المملكة الثانية وجبالها، أو مرفأ المملكة المجاورة وكثير من هذه المالك لا يسكنه أكثر من بضعة ألوف من الناس وأعظمها لا يكاد يكون فيه مائتان، أو ثلثمائة ألف نسمة وبعد، فلم يؤلف الهيلانيون، أو اليونانيون أمة برأسها، ولا انفكوا من التقاتل والتقاطع على انهم تكلموا لغة واحدة على حد سواء وعبدوا آلهة واحدة وعاشوا عيشة واحدة منذ شطوط إسبانيا على شاطئ البحر الأسود فكانوا بهذه العلامات يتعارفون؛ كما يتعارف أبناء نبعة واحدة ويمتازون عن سائر الأمم التي يدعونها البرابرة فينظرون إليها نظر الاستخفاف والامتهان.

الديانة اليونانية

تعدد الأرباب- اعتقد اليونان اعتقاد سائر قدماء الآريين بأرباب كثيرة، ولم يكن لهم شعور باللانهاية، ولا بالأزلية، ولم يؤمنوا برب واحد تكون السماء سرادقه والأرض سلمه ومرتقاه. واعتقد اليونان أن كل قوة في الطبيعة من هوائها وشمسها وبحرها هي قوة إلهية ونسبوا كلا من هذه القوى إلى رب خاص إذ لم يدركوا أن علة واحدة تنتج كل هذه الأكوان ولذا عبدوا عددا عديدا من هذه الآلهة فكانوا وثنيين على هذا النحو.

(١٢) في الطبعة الأخيرة حذف المؤلف هذه الفقرة الطويلة كلها إلى آخر الفصل

نسبة الشهوات البشرية ودعوى تجسد الرب- كل رب هو قوة من الطبيعة وله اسم خاص به ولشدة تصور اليونانيين وسعة خيالهم مثلت لهم أذهانهم تحت هذا الاسم كائنا حيا في أبهى المظاهر من الصور البشرية، وكانوا يتمثلون المعبود، أو المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة وامرأة وسيمة المحيا وعندما كان عولس، أو تيليماك يصادفان رجلا عظيما وسيما يبدآن بسؤاله عما إذا كان ربا من الأرباب، وقد صور على ترس البطل آشيل صورة جيش، قال هوميروس في وصفه له: إن آريس وآتينيه كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تتعلق بالأرباب إذ البشر أقزام قصار القامات، وكان الأرباب اليونانيون بشرا يلبسون ثيابا ولهم قصور وأجساد كأجسادنا، وهم إن لم يموتوا يجرحون وذكر الشاعر هوميروس كيف أن أحد المحاربين جرح الرب آريس فراح يصرخ منت الألم، وهذا الضرب من اختيار الأرباب على مثال البشر هو ما يدعى أنثروموبومورفيسم، أي: تجسيد الأرباب.

علم الميثولوجيا- للأرباب أقرباء وأولاد ورهط وأسرات؛ لأنهم أناس كالآدميين فأمهم ربة وإخوتهم أرباب وأولادهم أرباب غيرهم، أو ناس هم نصف أرباب وتدعى أنساب هذه الأرباب ثيوغوبيا وللأرباب تاريخ وحوادث ولهم قصص في مواليدهم وأخبار شبيبتهم وأعمالهم فالرب أبولون مثلا ولد في جزيرة ديلوس، وكانت لجأت إليها أمه لاتون، وقيل: عيلانا كان قد جرب تلك البلاد في سفح جبل البارناس وهكذا كان لكل مقاطعة يونانية أخبار تروها لأربابها سموها الخرافات، ومن مجموعها يتألف الميثولوجيا، أي: تاريخ الأرباب.

الأرباب المحليون- بقي الأرباب اليونانيون، وهم على صفتهم البشرية على ما كانت عليه أولا كوائن طبيعية، فكان القوم يتخيلونها؛ كما يتخيلون البشر وقوى الطبيعة، فقد كانت النا ياد فتاة جميلة ونبعا منبجسا في آن واحد وتخيل هوميروس الشاعر أن نهر جزيرة الرات هو رب، وقال فيه: لقد تدفق نهر الرات على البطل آشيل، وهو يزبد غيظا ويرغي حنقا ويجر طافحا بالزبد

والجثث وظلت الأمة تقول إن الرب زيوس ينزل المطر ويرسل الرعد، وكان اليوناني يعتقد أن الرب عبارة عن مطر وسيل وسماء، أو شمس لا السماء والشمس والأرض على الجملة. وكان ربه مسامتا للسماء التي تظله والأرض التي تقله والنهر الذي يعله فمن، ثم كان لكل مدينة أرباب ومعبودات كثيرة فمن رب الشمس إلى أرباب الأرض إلى رب البحر، وكانت تلك الأرباب منفصلة عن شمس البلد المجاورة وأرضها وبحرها بمعنى أنه كان لأهل كل مقاطعة ربها ومعبوداتها الخاصة بها فليس رب إسبارطة زيوس ربا لأثينة زيوس بعينه، وربما كان يذكر في قسم واحد ربان تحت اسم أتينيه، أو ربان تحت اسم أبولون ذكر أحد من طاف بلاد اليونان من السياح. أنه شاهد ألوفا من الأرباب كانت تدعى أرباب المدينة، ولم يكن هناك سيلا ماء، أو غابة غبياء، ولا أكمة شماء إلا، وهي مؤلهة[١٣] ولها صفة لا يشاركها فيها غيرها، وربما كان هذا المعبود صغيرا لا يعبده إلا ناس من أهل الجوار، وما مزاره غير مغارة في الصخر.

الأرباب الكبيرة- وهم اليونان أن فوق طوائف الأرباب الكثيرة الصغيرة المنبثة في كل مقاطعة بضعة أرباب كبيرة كالسماء والشمس والأرض والبحر المدعوة بهذا الاسم ولها في كل مكان معبد خاص، أو مزار يتقرب فيه إليها، وكانت تمثل كل من هذه الأرباب أهم القوى الطبيعية، وما أكثر عدد هذه الأرباب التي اشترك أهل اليونان كافة في التقرب إليها فإنك لو أحصيتها لا تكاد تصل في عددها إلى العشرين، ومن سوء عاداتنا معاشر الإفرنج أن ندعو هذه الأرباب بأسماء أرباب لاتينية وإليك حقيقة أسمائهم.

زيوس المشتري هيرا جويون أتينيه منرفا أبولون أرتميس ديان هرميس عطارد هيمرتوس فولكين هيستيا فيسا أريس المريخ أفروديت الزهرة بوزيدون نبتون أنفيتريت رونة كروبوس زحل ريهيا سيبيل ديميتير سيريس برسبغونة روزرين هاديس بلوتون ديوينروس باخوس، وهذه الزمرة من الأرباب هي التي كانت تعبد

---

(١٣) (يقول الشاعر أزيودس اليوناني: إنه كان في بلاده ثلاثون ألف رب)

في كل المعابد على الجملة ويتوسل إليها في الصلوات.

خصائص الأرباب- لكل من هذه الأرباب هيئته وهندامه وأدواته المدعوة خصائص هكذا تصورها المؤمنون من أبناء يونان وهكذا مثلها النقاشون منهم، ولكل خلقه المعروف به بين عابديه، ولكل منها عمله الخاص به في العالم ويقوم بوظائف معينة، وذلك بمعونة أرباب ثانوية تطيعه في العادة ويتصرف فيها بأمره فالرب أثينة مُثلا، وهو على صورة عذراء ذات عينين براقتين مثلث قائمة، وهي تحمل رمحا، وعلى رأسها خوذة، وعلى صدرها سلاح لامع، وهي عندهم ربة الهواء النقي والحكمة والاختراع، وعلى جانب من الهيبة والشراسة.

ومثل هيفيرتوس رب النار حاملا بيده مطرقة، وعلى صورة حداد أعرج قبيح الهيئة وزعموا أنه ينزل الصاعقة، وأن الربة أرتميس كانت عذراء متوحشة تحمل قوسا وكنانة، وهي تطوف الغابات تتصيد مع زمرة من الجنيات، وهي ربة الغابات والصيد والموت، أما هرميس الذي قتلوه لابسا نعالا مجنحة فهو رب المطر المخصبة وله أعمال أخرى، وهو رب الأسواق والأماكن ورب التجارة ورب السرقة ورب الفصاحة يسري بأرواح الموتى ويمشي في السفارات بين الأرباب ويقوم على تربية الحيوانات وللرب اليوناني أبدا عدة وظائف في الغالب هي في نظرنا متخالفة غير أن اليونان تخيلوا أن بينها تشابها ويرتأون لها صلة وعائدا.

الأولمب وزيوس- كل من هذه الأرباب أشبه بملك في مقره ومع هذا، فقد لاحظ اليونان أن جميع قوى الطبيعة لا تسير بالتصادف وأنها تعمل يدا واحدة فكانوا يطلقون اللفظ الواحد للتعبير عن النظام والعالم ففرضوا أن الأرباب اتحدوا على تسيير نظام العالم وأنهم كان لهم شرائع وحكومة؛ كما للبشر وكنت ترى في شمالي اليونان جبلا ذا قمم مكسوة بالثلج لم يصعد إليه بشر واسمه جبل الأولمب، وعلى هذه القمة المستورة عن أعين الناس بما يتراكم عليها من الضباب توهم اليونان أن الأرباب يعقدون جلساتهم فيجتمعون مستترين بتنور سماوي يتفاوضون في شؤون العالم وعظيمهم زيوس المشترى يرأس تلك

الجلسات؛ لأنه رب السماء والنور الذي يؤلف السحاب ويرسل الصواعق وصوروه على مثال شيخ مهاب ذي لحية بيضاء جالس على عرش من ذهب، وهو الذي خص بالزعامة دون سائر الأرباب، ولذلك تراها تخضع له فإذا بدرت من أحدها بادرة المقاومة في أمر يهددها زيوس وإليك ما ذكره هوميروس على لسانه: اعقدوا في السماء سلسلة من ذهب وتعلقوا بها أنتم معاشر الأرباب ذكورا كنتم أو إناثا ولو بذلتم الجهد كلكم لا تجرون زيوس إلى الأرض، وهو الملك الآمر، وعلى العكس إذا أردت أن أجذب السلسلة إلي فإني أجذب إلي الأرض والبحر، ثم أعلقه بقمة الأولمب ويبقى العالم كله معلقا مصلويا ما دمت أعلى منزلة من الأرباب والبشر.

آداب الميثولوجيا اليونانية- وهم اليونان أن معظم أربابهم من القسوة والسفك والخداع والسفاهة على جانب فاخترعوا لهم أخبارا سفيهة وأعمالا نابية عن طور اللياقة، وكان هرميس بزعمهم لصا بغنجها وحفزها وآريس بقسوته، وكانوا كلهم من العجب بحيث لا ينفكون عن اضطهاد من تساهل في تقديم الضحايا لهم، ولما أعجبت نيوبي ملكة ثيبة بكثرة أسرتها لم يصعب عليها أن رأت الرب أبولون يصمي أولادها بالسهام ويمزقهم كل ممزق، وكان من حال تلك الأرباب في الحسد نحيث لا تتمالك من رؤية إنسان بلغ غايات السعادة فاليونان رأوا السعادة من أعظم الأخطار؛ لأنها تجلب غضب الأرباب حتما، ولذلك ابتدعوا ربة للغضب والانتقام سموها يميريس ويذكرون عنها قصصا كالآتية مثلا ذلك أن بوليكراتس الظالم من أهل جزيرة سيسام خاف يوما حسد الأرباب إذ غدا ذا طول وحول، وكان يملك خاتم ذهب له موضع كبير في نفسه فألقاه في اليم لئلا تكون سعادته مشوبة بالشقاءثم إن صيادا أحضر لبوليكراتس ذات يوم سمكة عظيمة وجد خاتمه في جوفها، فكان ذلك بنظره شؤما دالا على وقوع المصيبة الأكيدة فحوصر بعد في مدينته وأخذ وصلب وعاقبه أرباب يونان على سعادة نالها وحظ من النعم أصابه.

عرف الناس بهذا أن الميثولوجيا اليونانية كانت عارية عن الأخلاق إذ كان الأرباب قدوة سيئة للناس، قال ذلك فلاسفة اليونان وضيقوا على الشعراء الذين نشروا هذه الحكايات وذكر أحد تلاميذ فيثاغورث أن معلمه اطلع على الجحيم فرأى فيه روح هوميروس الشاعر مصلوبة في شجرة وروح إزيودس الشاعر مدلاة في دعامة عقوبة لهما على إهانتهما للأرباب، وقال كسينوفان: إن هوميروس وازيودس قد تسبا للأرباب أعمالا من شأنها أن تكون عارا بين البشر وشنارا عليهم، وهناك إله واحد لا يشبه البشر بأجسادها، ولا بعقولها، وكان يزيد على ذلك قوله لو كان للبقر والأسود أيد واستطاعت أن تصور كالناس لصنعوا للأرباب أجسادا تشبيه أجسادهم ولجعلت الخيل للأرباب أجسادا كالخيل والبقر والناس يذهبون إلى أن للأرباب إحساسا وصوتا وجسدا هذا قول كسينوفان، وهو من الحق والعدل بمكان إذ قد جعل اليونان الأول أربابهم على صورهم مثل ما كانوا عليه في ذاك العهد سفاكين غدارين حسودين معجبين وكذلك كل أربابهم، ثم صاروا على نسبة التحسين في أخلاقهم متبرمين من هذه المبادئ كلها عازفين عنها، ولكن تاريخ الأرباب وأخلاقهم كانت مقررة بحكايات قديمة أخذها أهل الأجيال الحديثة لم يجرءوا على تغيير أرباب أجدادهم الفظة السخيفة بغيرها.

أبطالهم

البطل- البطل في بلاد اليونان رجل معروف يغدو بعد موته روحا ذات سلطان، ولا تتم له الربوبية، بل ينال منها نصفها فمن، ثم لا يسكن الأبطال في الأولمب في سماء الأرباب، ولا يدبرون شؤون العالم أجمع ولهم مع هذا أيضا سلطة فوق كل سلطة بشرية يعينون بها أحبابهم ويهلكون أعداءهم ولذا عبدهم اليونان عبادتهم لأرباب واستعانوا بهم وتضرعوا إليهم، وما من مدينة، أو قبيلة، أو أسرة إلا ولها بطل خاص بها، وهو عبارة عن أشباح متخيلة تحميها فتعبدها وتتقدم إليها بأنواع القربات.

ضروب الأبطال- ومن هؤلاء الأبطال فئة اشتهرت في الأساطير وغدت من الأعيان مثل اشيل وأوليس وأغاممنون، ولا شك في أن بعضهم لا حقيقة لهم قط مثل هيراكليس وأديب، وليس بعضهم إلا أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس وعولس غير أن عبدتهم ينظرون إليهم نظرهم إلى أشخاص قدماء، وقد عاش معظم هذه الأرباب وبعضهم من الأعيان قد ذكرهم التاريخ، وكانت لهم أعهمالهم مثل ليونيداس وليزاندر وكانا من القواد وديمقراط وأرسطو وكانا فيلسوفين وليكورك صولون وكانا مشرعين وعبد أهل مدينة كروتون أحد مواطنيهم فيلبس؛ لأنه كان أجمل أهل زمانه في بلاد اليونان، وكان الزعيم الذي يقود الطوارئ ويؤسس مدينة يعد بين السكان البطل المؤسس فيقيمون له معبدا ويتقربون إليه كل عام بأنواع النذور والقربات وهكذا كان ملتياديس الأثيني يعبد في مدينة من أعمال تراسيا وبرازيداس الإسبارطي الذي قتل في دفاعه عن أمفيبوليس؛ كما يعبد في هذه المدينة إذ اعتبره السكان مؤسسا لبلدهم.

حضور الأبطال- يظل البطل ساكنا في البلد التي دفن فيها جسده سواء كان في قبره، أو في الجوار، وقد وصف هيرودتس هذا المعتقد فكانت مدينة سيسيون تعبد البطل أدراتس فأقامت في الساحة العامة مصلى إكراما له، ولقد رأى كليستين جبار سيسيون أن يتخلص من هذا البطل فراح يسأل هاتف دلفيس عما إذا كان يفلح في طرد أدراتس فأجابه الهاتف بقوله: إن أدراتس كان ملك الديسويين وأنه لص وقاطع طريق فلما لم يستطع كليستين أن يطرد هذا البطل عمد إلى الحيلة فبعث إلى ثيبة يبحث عن عظام بطل آخر اسمه ميلانيبس وجعلها في مقبرة المدينة في احتفال حافل، قال هيرودتس: إنه عمل كذلك؛ لأن ميلانيبس كان من ألد أعداء أدراتس قتل له صهره وأخاه، ثم جعل تلك الأعياد النذور تقدم إلى ميلانيبس بعد أن كانت تقدم إلى أدراتس زمنا وراح يقنع سائر اليونانيين أن البطل المغتاظ يركن إلى الفرار.

مداخلة الأبطال- للأبطال قوة إلهية ففي وسعهم؛ كما في وسع الأرباب أن يفعلوا الخير والشر: كما يشاءون، ولقد أخطأ الشاعر استريشور في كلامه على هيلانة المشهورة تلك التي جيء بها إلى طروادة على نحو ما ورد في الأساطير فكف بصره للحال، حتى إذا رجع عن كلامه عاد بصيرا ويزعمون أن هيلانة صارت نصف ربة بعد موتها فأرسلت لشاعر بالداء بادئ ذي بدء، ثم أتبعته بالدواء ويدعون أن الأبطال الحامية لبلد تدفع عنها الأدواء والمجاعة وتذب عن حياضها من غارة الأعداء، وقد زعم الجند الأثيني أنهم رأوا بين صفوفهم في حرب ماراثون تيزيه بطل أثينة ومؤسسها، وقد تدجج بسلاح لامع في حرب سلامينة وظهر البطلان أجاكس وتيلامون اللذان كانا فيما مضى ملكي جزيرة سلامينة في أعلى ذروة منها باسطين ذراعيهما نحو الأسطول اليوناني، قال تيموكلس: وما قهرنا الفرس إذ قهرناهم، ولكن الأرباب والأبطال قهروهم، وفي إحدى روايات سوفقليس أديب إلى تولون بينما كان أديب مشرفا على الموت رآه ملك أثينة وثيبة وأراده كلاهما على الرضا بترك جثته تدفن في أرضهما ليكون بطلا حاميا لها فأجاب طلبهما في أن يدفن في بلاد الأثينيين، وقال للوكهم: إني لا أكون بعد موتي خاليا من النفع في هذا القطر، بل أكون ركنا ركينا لا تقاويه ألوف الألوف من المحاربين، وكان يرى أن بطلا واحدا يساوي جيشا برمته ويرهب بأس هذا الشيخ، ولا رهبة الأحياء جميعا.

العبادة

بدء عبادة الأرباب- كان الأرباب والأبطال على ما لهما من الحول والطول يبشرون الناس في جماع الخيرات والسيئات؛ كما يشاؤون، فكان من الخطر ان يكونوا على المرء إلبا، وكان من العقل أن يكونوا وإياه يدا واحدة، ولقد ذهب القوم إلى أنهم كانوا أشبه بالبشر يسخطون إذا تركوا وشأنهم ويرضون إذا دعي بهم، وعلى هذا الفكر نشأت العبادة، فكان عبارة عن إتيان صالح الأعمال مع

الأرباب لنيل رضاهم، وقد صرح أفلاطون بالرأي العام كما يلي، قال: إن الاضطلاع بالقول والقيام بصالح الأعمال مع الأرباب سواء كان في الصلوات، أو في النذور هو من التقوى التي بها نجاح الخاصة والبلاد وعكسها هو الشقاء الذي به تنثل عروش الممالك وتندك معالم العمران. يقول كسينوفان في آخر كتابه الفروسية: إن الأرباب لا يرضون عمن يفزعون إليهم في حاجاتهم فقط، بل يرضون عمن يكرمهم في بحبوحة النجاح فالديانة كانت بادئ ذي بدء عهدا وميثاقا، فكان اليوناني يسعى في استرضاء الأرباب وينال من مقابلة ذلك مغانم ومنافع، قال أحد كهنة أبولون لمعبوده: إني قد أحرقت من أجلك ثيرانا ثمينة منذ زمن طويل فاقبل الآن تضرعاتي وارم بسهام عضك أعدائي.

الأعياد العظيمة- زعم اليونان أن لأربابهم إحساسا وعواطف كعواطف البشر، ولذلك عنوا بالقيام بكل ما يسترضى به الإنسان فكانوا يقدمون لهم لبنا وخمرا وحلواء وفاكهة ولحما، وكانوا ينشئون لهم قصورا ويحتفلون إكراما لهم بأعياد إذ كانت تلك المعبودات أربابا سعيدة تحب الفرح والمناظر الجميلة، وما كان العيد؛ كما هو الحال عندنا اليوم عبارة عن أفراح، بل كان احتفالا دينيا يضرب في خلاله عن الأعمال وتأخذ الأمة في إبداء مظاهر المسرة على رؤوس الأشهاد أمام المعبود فمن ثم كان اليوناني يسر بهذه الأعياد ويحتفل بها إجلالا لأربابه ومعبوداته لا قياما بأهوائه الخاصة وشهواته جاء في نشيد قديم إكراما للمعبود أبولون إن الأيونيين يدخلون السرور عليك بما يقومون به من مطاعنتهم المعهودة وغناهم ورقصهم.

الألعاب الاحتفالية- نشأت الألعاب الاحتفالية من هذه المسليات التي كانت تقام إعظاما للأرباب، فكان لكل مدينة ضرب من ضروبها تكرم بها معبوداتها، وما كانت في العادة تقبل لمشاركتها بها غير أبناء وطنها ومع هذا، فقد كانوا يقومون بالألعاب يشترك بها جماع أبناء يونان ويحضرونها، وذلك في أربعة أماكن من البلاد اليونانية وتدعى الألعاب الأربعة العظيمة وأخص تلك

الألعاب ألعاب أولمبيا يحتفل بها كل أربع سنين إكراما للمعبود زيوس وتدوم خمسة أيام أو ستة، فيأتي دهماء اليونان من أطراف البلاد تغص بهم الملاعب والمشاهد ويأخذون في تقديم الضحايا والتقرب بالصلوات إلى المعبود زيوس الشمس وسائر الأرباب، ثم يتبارى القوم في الأعمال التالية عدو على الأقدام حول الملعب قتال يعرف عندهم بالباساتل؛ لأنه كان عبارة عن خمسة ألعاب فيقفز المتبارون ويركضون من طرف الملعب إلى طرفه الآخر ويقذفون إن تعثر بطارة من معدن ويرمون الحراب ويتقاتلون بالأيدي والأبدان، ثم ملاكمة تجمع الأكف يتقاتلون فيها وأذرعهم مستورة بسيور من جلد ومسابقة عجلات كانت تجري في الميدان والعجلات خفيفة يجرها أربعة جياد ويتصدر القضاة في الألعاب بألبستهم القرمزية، وقد يتوجوا بأكاليل الغار فينادي المنادي بعد القتال باسم الظافر واسم والده على رؤوس الأشهاد ويتوج بتاج من الزيتون جراء ما وفق له ويستقبله مواطنوه استقبال الظافر الفاتح، وربما خرقوا خرقا في حائط ليمروا به منه فيقبل نقله مركبة تجرها أربعة من الجياد لابسا القرمزي والشعب كله يحفزه، وكان بعد هذا النصر الذي نعده اليوم من أعمال المصارعين في المحال العامة من أحسن الأعمال وأولاها على ذلك العهد يحتفل بها أعظم الشعراء، ولم يكن هم بندار أشهر شعراء الأغاني القدماء غير نظم المقاطيع في سباق المركبات ويروى أن أحدهم واسمه دياكوراس رأى في يوم واحد ولدين له، وقد توجا فحملاه على أعين القوم حمل الظافرين فلما شاهد الشب أن أمثال تلك السعادة عظيمة جدا بالإضافة إلى الميت ناداه مت يا دياكوراس إذ ليس في وسعك أن تكون بعد معبودا فضاق ذرع دياكوراس من الاضطراب ومات، بيد أيدي ولديه، وفي نظره ونظر أبناء يونان أن رؤية ولديه وأكفهما قوية شتنة وسوقهما سريعة كان ذلك منتهى السعادة الأرضية، وعلى هذا يحق لليونان أن يعجبوا بالقوة الطبيعية، فقد كان أقوى المصارعين من أحسن الجند في الحروب التي يتقاتلون فيها جندا لجند.

الفأل- كان اليونان يرجون من آلهتهم أعمالا كبيرة لقاء تلك الواجبات والأعياد والاحتفالات فكانت المعبودات تحمي عبدتها وتسبغ عليهم برود العافية والغنى والنصر وتقيهم المصائب والنوائب التي يتوقعون نزولها ترسل علامة من لدنها يفسرها الناس، وهذا ما كان يدعى بالفأل. قال هيرودوتس: كان إذا اقتضى لإحدى المدن أن تمتحن ببعض الخطوب يتقدم لها على ذلك علامة في العادة، ولقد تفاءل أهل شينو صاقر تفاؤلا دلهم على ما ينالهم من الهزيمة، فلم يرجع من مائة فتى بعثوا بهم إلى دلفيس يترنمون وينشدون سوى فتيين وهلك سائرهم بالوباء، وعلى ذاك العهد انقض سقف مدرسة المدينة على أطفال كانوا يتعلمون القراءة، فلم ينج منهم سوى طفل واحد، وكان عددهم مائة وعشرين هذه هي الإمارات التي قدم الأرباب إرسالها على أبناء يونان مدرهم وعددهم، ولقد كان اليونانيون يرون الأحلام والطيور التي ترفرف في السماء وأحشاء الحيوانات التي يتقربون بها لأربابهم، بل وكل ما يقع نظرهم عليه من الزلزال والكسوف إلى غطسة يغطسها المرء يرون كل هذه الأمور الطبيعية أمارات الهيبة فيها سعادتهم وشقاؤهم ففي حملة صقلية بينا كان نيسياس القائد الأثيني يركب جيشه المنهزم في السفن أوقفه خسوف القمر فظن أن الأرباب بعثت بهذه العجيبة تنذر الأثينيين أن لا يتموا ما بدءوا من الأعمال الحربية فاضطر نيسياس إلى الانتظار سبعة وعشرين يوما، وهو يقدم القرابين تسكينا لغضب الأرباب فمد الأعداء في هذه الفترة مساء المدينة وحطموا أسطولها وبددوا شمل جيشها، ولم ير الأثينيون لما بلغهم هذا النبأ سوى أمر واحد نجوا من أجله نيسياس، وذلك أنه كان عليه أن يعرف أن اختفاء القمر بالنظر إلى جيش منهزم علامة جيشه، وفي غضون العودة المعروفة لعودة العشرة آلاف خطب القائد كسينوفون في جنده فلما انتهى إلى هذه العبارة لنا الأمل الوطيد أن يرجع والمجد إلينا بمعونة الأرباب عطس أحد الأجناد على الأثر فأخذ الجيش يصلي ويضرع إلى الرب على أن بعث لهم هذا الفأل فهتف كسينوفون إلا بتقديم ضحايا لزيوس إذ بعث إلينا ما

نتفاءل به بيننا نحن نتفاوض في سلامتنا.

هاتف الغيب- كان الرب في الأحايين يجيب سؤل من يدعوه ويستشيره من المؤمنين لا إشارة صماء، بل على لسان أحد الملهمين من علية الناس فيأتي الرب مزار رب ينشدون أجوبة يتلقونها ونصائح يستنصحون بها، وهذا هو معنى الهاتف بالغيب وإنك لترى في أماكن كثيرة من بلاد اليونان وآسيا جملة صالحة من الهاتفين بالغيب وأشهرهم في دودون من بلاد أنيروس ودلفيس في سفح جبل البارناس، فكان الرب زيوس في دودون يجيب دعوة المضطرين بدوي أشجار البلوط المقدسة والرب أبولون كان المستنصح في دلفيس، وكان يسري في مغارة من معبده من شق التراب مجرى نسيم ظن اليونان أن الرب بعث به؛ لأنه ما استنشقه إنسان إلا وخرف وجن ولذا وضعوا أتقية على شق الأرض، وهي عبارة عن امرأة نيسيا فتجلس على تلك الأتقية بعد أن تستحم في حمام مقدس وتقبل الإلهام فما هو إلا أن يأخذها شيء من البحران العصبي، حتى تبدأ تصرخ بأصوات وتتفوه بكلمات متقطعة فيتلقاها منها كهنة يجلسون حولها فينظمونها شعرا ويقصونها على من جاء يستنصح، فكان هتاف الغيب من نيسيا هذه مشوشا ملتبسا، ولما سألها كريزوس عما إذا كان يجب عليه أن يشهر على الفرس حربا أجابته بقولها: إن كريزوس يدمر مملكة عظيمة، ثم إن مملكة عظيمة تقوضت أركانها ولكنها كانت مملكة كريزوس، وكان للإسبارطيين ثقة عظمى بالبيسيا، ولم يكونوا يسيرون حملة دون استشارتها، وقد اقتدى بهم سائر اليونانيين وهكذا كانت دلفي مبعث الهاتف الوطني.

الأمفكتيونيا- ألف اثنا عشر رجلا من أعيان الشعوب اليونانية جمعية سموها الامفكتيونيا حبا بحماية قبر دلفيس، فكان يجتمع نواب هذه الشعوب كل في دلفيس للاحتفال بعيد أبولون وللنظر فيما إذا كان المعبد يخشى عليه من يد الأذى؛ لأنه كان فيه ثروة عظيمة ربما تدعو النصوص أن ينهبوه، وقد صادر أهل سيرا، وهي المدينة القريبة من دلفيس هذه الكنوز الثمينة في القرن

السادس فأعلن عليهم الأعيان المشار إليهم حرب من استنتاج الأمور المحظورة وحرق سياج المقدسات فأخذت سيرا وهدمت من أساسها وبيع سكانها بيع الرقيق وأصبحت أرضها كأن لم تغن بالأمس.

ومع هذا فلا ينبغي أن يذهب ذاهب إلى أن مجمع الامفكتيون أشبه في وقت من الأوقات مجلسا يونانيا، بل إنه لم يعن إلا بمعبد أبولون لا بالشؤون السياسية، وما قط ضرب على أيدي شعوب الأمفكتيون، حتى لا يثيروا بينهم دواعي الشقاق والهاتف الغيبي والأمفكتيونيا في دلفيس كان لهما من السطوة حظ أوفر من سطوة الهاتفين والامفكتيونيين ولكنه ما ضم قط أشتات اليونانيين وجعلهم أمة قائمة برأسها.

إسبارطة - شعبها

لاكونيا- لما هاجم أهل الجبال من الدوريين شبه جزيرة المورة نزلت أعظم عصابة منهم في مقاطعتي إسبارطة ولاكونيا ومقاطعة لاكونيا واد ضيق يشقه نهر عظيم يعرف بالأوروتاس يحيط يحيط بهما جبلان عظيمان غطيت قممهما بالثلوج، وقد وصفهما أحد الشعراء بقوله أيتها الأرض الغنية التربة المخصبة الرياع المتعذر استنباتها واستثمارها أيتها البلدة الجوفاء المحصورة بين جبال قائمة الكئيبة في منظرها المنيعة بين ظهراني سكانها القدماء فأصبح بعضهم رعايا لهم وفريق منهم عبيدهم ومواليهم، وبهذا انقسم سكان لاكونيا إلى ثلاث طبقات هم تاهيلوتيون والبيريكيون والإسبارطيون.

الهيلوتيون- سكنت هذه الطبقة من السكان أكواخا منتشرة في الفلاة وأقاموا على حرث الأرض وزراعتها، وما ملكوا الأراضي التي كانوا يعملون فيها، ولم يكونوا مطلقين في مغادرتها، وما كان حالهم في ذلك إلا حال عبيد القرون الوسطى مستأجرين تابعين للأرض خلفا عن سلف عاملين لمالكها الإسبارطي، وكان يتناول منهم أفضل قسم من غلاتهم ولطالما احتقرهم الإسبارطيون

وحاذروا بأسهم وأساءوا معاملتهم واضطروهم إلى لبس ثياب غليظة وضربوهم بلا داع ليذكروا أنهم عبيد أرقاء، وربما أسكروهم في الأحايين لينفروا أبناءهم من السكر، وقد شبه أحد شعراء إسبارطة الهيلوتيين بحمر موقورة تكبو وتنوء تحت أعباء الأحمال وإعياء الضرب.

البيريكيون- سكنت هذه الفئة مئات من القرى في الجبال، أو على الساحل وألفوا الأسفار البحرية واتجروا وصنعوا المواد الضرورية للحياة فكانوا أحرارا يدبرون شؤون مزارعهم، بيد أنهم كانوا يؤدون ضريبة لحكام إسبارطة ويخضعون لهم.

حالة الإسبارطيين- أبغض الهيلوتيون والبيريكيون ساداتهم الإسبارطيين يقول كسينوفون لم يكن لأحدهم عندما تكلمه في شأن الإسبارطيين أن يكتم مبلغ سروره لو تسنى له أن يأكل الإسبارطيين أحياء زلزلت إسبارطة ذات يوم وكادت تتداعى أركانها فما كان بأسرع من البرق، حتى انهال الهيلوتيون من أطراف الفلاة ليقتلوا الإسبارطيين الناجين من الهلاك، ثم انتفض البيريكيون وأبوا الخضوع على أن الإسبارطيين كانوا من سوء السلوك بحيث يستحقون سخطهم، ولقد أمر الإسبارطيون عقيب حرب اشترك فيها كثير من الهيلوتيين في معسكراتهم أن ينتقوا من اشتهر منهم بالشجاعة ووعدوهم أن يعتقوهم، وكان هذا الوعد منهم حيلة ليعرفوا بها أشجعهم نفوسا وأجرأهم على إبداء نواجذ الثورة فانتخب ألفان منهم طافوا بهم أرجاء المعبد متوجة رؤوسهم إشارة إلى الحرية، ثم أدخلهم الإسبارطيون في خبر كان، ولم يعرف أحد كيف هلكوا على حين كان المضطهدين عشرة أضعاف مواليهم، وما قط ربا الإسبارطيون على تسعة آلاف رب أسرة يقابلهم مائتا ألف من الهيلوتيين ومائة وعشرين ألفا من البيريكيين واقتضى أن يعادل واحد من الإسبارطيين عشرة من مواليهم في مسائل القتل وإذ اعتادوا المصارعة قضت الحال بأن يكون أفرادهم أقوياء أشداء فكانت إسبارطة معسكرا لا جدار له، وكان شعبها جيشا على قدم الدفاع أبدا.

الأولاد- يؤخذ أطفال هذه الأمة منذ ولادتهم ليكون منهم أجناد فكل مولود يؤتى أمام المجلس فإذا وجد أنه ضعيف أشوه عرضوه على مجلس؛ لأن أحوالهم أوجبت أن لا يكون جيشهم مؤلفا إلا من أرباب القوة والجلادة فمن يستحيونهم يؤخذون من أهلهم في السابعة من عمرهم ويربون مع أقرانهم كأنهم أولاد جماعة فيروحون عارية أقدامهم، وليس على أبدانهم غير رداء واحد هو وقايتهم صيفا وشتاء وينامون على كدس من القصب ويغتسلون في المياه الباردة من نهر الأوروتاس ويقللون من الطعام ويردرون كثيرا وأطعمتهم غليظة ليعتادوا أن لا يملئوا معدهم ويقسمون إلى سرايا كل سرية مائة رجل، ولكل منها زعيم وكثيرا ما يريدونهم على التطاعن بالأرجل والأكف ويساطون في عيد أرتيميس، حتى تسيل دماؤهم أمام هيكله، وربما مات بعضهم متأثرا من الضرب على أنهم قلما يستغيثون فيرون الشرف ألا يرفعوا أصواتهم يريدون بذلك تدريبهم على أن يقتتلوا ويحتملوا العذاب والألم وكثيرا ما يمنعون عنهم الطعام بتاتا فيسرقون ما يقتاتون به فإذا خدعوا يضربون بالسياط ضربا مبرحا، وكان من أحد أولاد الإسبارطيين؛ كما قيل، وقد سرق ثعلبا صغيرا وخبأه تحت ثوبه أن آثر جعل بطنه فريسة للثعلب ينهشه على افتضاح أمره وإظهار فعلته، وكان يراد تدريب هؤلاء الأطفال على حسن التخلص في الحروب فيسيرون غاضين أبصارهم ساكتين وأيديهم تحت ثيابهم لا يلتفتون يمنة، ولا يسرة كأنما على رؤوسهم الطير أمام الهياكل، وكان عليهم ألا يتكلموا على الطعام ويطيعوا كل من يلقونهم، وذلك لكي يخضعوا للنظام.

البنات- أما سائر اليونانيين فيحجبن بناتهم في البيوت ويشغلنهم بحياكة الصوف أراد الإسبارطية أن يقووا أجسام نسائهم ويجعلونهم من المقدرة بحيث يغلبن الأقوياء من الأولاد فمن، ثم كانوا يربون البنين على غرار البنات إلا قليلا، ولقد كانوا يتمرنون في رياضاتهم على الركض والقفز ورمي الأطر والطعن

بالحراب، وقد وصف شاعر ألعابا كانت فيها البنات كالمهارى مسترسلة شعورهن والغبار ثائر ورائهن، وقد اشتهر من أمرهن أنهن كن أصح نساء يونان وأشجعهن.

التهذيب- حياة الرجال منظمة أيضا كحياة الجندي إذ قضت الحال أن لا تنثني عزائمهم أمام جمهور الأعداء فيكون الإسبرطي في السابعة عشرة من سنه جنديا ويظل كذلك إلى الستين فكانت الأزياء وساعة القيام والمنام والطعام والرياضات محُددة معروفة بنظامات؛ كما هو الحال في ثكنة الجند اليوم فإذا لم يحارب الإسبارطي يستعد للحرب فيمرن نفسه على العدو والقفز وحمل السلاح ويروض كل حين عامة أطراف جسمه من عنقه وذراعيه وكتفيه وساقيه، ولا يحق له أن يتجر، ولا أن يحترف، ولا أن يحرث أرضا فهو جندي، وليس عليه أن يحيد عن مهمته بمعاطاة، أي: عمل كان، وليس له أن يعيش في أسرته على هواه فإن الإسبارطيين يتناولون الطعام زمرا زمرا، ولا يخرجون من بلادهم إلا بإذن، وهذا يعد من باب تنظيم جيش في ديار العدو.

الإيجاز في الكلام- قاسى هؤلاء المحاربون شظف العيش فكانت سحناتهم صفيقة تقرأ فيها العجب والخيلاء، وكانوا يختزلون الكلام اختزالا، وهذا ما يسمى بالكلام الموجز وبالإفرنجية لا كونيك نسبة إلى مقاطعة لاكونيا، وقد بقي منها هذا التعبير فكانت الحكومة تبعث إلى حامية على خطر من مباغتة العدو لها برسالة لا تكتب فيها سوى كلمة الحذر، ولقد أخطر ملك الفرس جيشا إسبارطيا أن يطرح سلاحه فأجابه القائد تعال خذه، ولما استولى لراندر على أثينة لم يكتب سوى هذه الجملة سقطت أثينة.

الموسيقى والرقص- كانت الأشغال الإسبرطية صنائع حربية بجيش حمل الإسبارطيون معهم ضربا من الموسيقى خاصة بهم كانت على جانب عظيم من الوقار والحماسة والكراهة في الاستماع، وهي من ضروب الموسيقى العسكرية فيروح الإسبارطيون إلى ساحة الوغى على نغمات المزمار ويسيرون على الإيقاع ورقاصهم عبارة عن استعراض قائد الجند فيرقص الراقصون الرقص العسكري

المألوف ببلاد يونان المدعو بالبيريك مسلحين ويتابعون عامة حركات القتال ويشيرون بالضرب والكر والفر والطعن بالحراب.

بأس النساء- عرف النساء بتحميس الرجال على القتال واشتهرت آثار شجاعتهن في يونان فكتبت فيها المصنفات، وقد قتلت امرأة إسبارطية ولدها لفراره من الزحف قائلة إن نهر الأوروتاس لا يجري ليشرب منه الوعول، وما علمت إحدى نساء تلك البلاد أن خمسة أولاد لها هلكوا فقالت: ليس هذا ما أسألكم عنه فهلا كتب النصر لإسبارطة فلما أجيبت بالإيجاب قالت: إذا فلنحمد الآلهة ولنشكر لهم.

الترتيبات

الملوك والمجلس- للإسبارطيين أولا كما لسائر أبناء يونان ملوك ومجلس شيوخ ودار ندوة، وقد حفظت كل هذه الترتيبات، ولكن من، حيث الصورة فقط فالملوك، وهم من نسل المعبود هيراكليس يشرفون ويكرمون ولهم حق التصدر في المواضع الأولى في المآدب ويقدم لهم من الطعام ما يكفي اثنين، وإذا مات أحدهم يلبس جميع الرعايا عليه الحداد، بيد أنهم لم يتركوا لهم أدنى حكم، بل يراقبونهم كل المراقبة، وكان مجلس النواب مؤلفا من ثمانية وعشرين شيخا منتخبين من العيال الغنية القديمة يقومون بما ندبوا إليه مدى الحياة ولكنهم لا يحكمون.

المفتشون- إن المفتشين هم السادة الحقيقيون في إسبارطة، وهم خمسة حكام يتجدد انتخابهم كل عام ويناط بهم تقرير السلم والحرب وفصل القضايا، وهم يرافقون الملك في قيادة الجيش فيديرون حركة الأعمال الحربية وكثيرا ما يريدونه على الرجعة من الحرب، وهم في العادة يستشيرون أعضاء مجلس الشيوخ ويقررون ما ينبغي باتفاق آرائهم، ثم يجمعون الإسبارطيين في إحدى الساحات ويطلعونهم على ما تم من القرار ويطلبون إليهم أن يصدقوا عليه، أما الأمة فإنها

تستحسن ما تم بالهتاف دون أن تناقش في أقل مسألة، ولا يعلم فيما إذا كان للأمة الحق أن ترفض ما قرر، وهي التي علمت الخضوع، وأن لا تعاند أصلا، وكانت هذه الحكومة حكومة أشراف مؤلفة من عدة أسرات حاكمة فمن، ثم لم تكن إسبارطة بلاد مساواة، وكان فيها أناس يدعون أهل المساواة، وذلك؛ لأنهم كانوا سواء فيما بينهم، أما غيرهم فيدعون المرؤوسين ولم يكن لهم شيء من الحكم البتة.

الجيش- بفضل هذه الطريقة في الحكم احتفظ الإسبارطيون بأخلاقهم الجبلية القاسية، فلم يكن عندهم نقاشون، ولا مهندسون، ولا خطباء، ولا فلاسفة، بل إنهم انصرفوا كلهم إلى الحروب وحذقوا علم الكر والفر أيما حذق وغدو من المقننين لغيرهم من اليونانيين وأتوا العالم بعملين عظيمين أحسن طريقة في القتال وأحسن طريقة في التفكير.

المسلحون- كان اليونان قبلهم يسيرون إلى القتال بغير انتظام فيمتطي الزعماء صهوات الخيول، أو عجلات خفيفة ويتقدمون صفوف الحملات والناس يتبعونهم مشاة، وقد تسلح كل منهم؛ كما أراد، وقد تفرقوا طرائق قددا، وليس في وسعهم أن يكونوا يدا واحدة في العمل، أو المقاومة، وما هو إلا أن يستحيل القتال إلى مبارزات، ثم إلى مذابح، أما في إسبارطة فللمقاتلة بأجمعهم سلاح واحد، وكانت وسائل دفاعهم درعا يغطي النصف الأعلى والخوذة تقي الرأس والمسامي (الطماقات) تقي الساق والتروس تجعل في مقدمة الجسد، أما وسائل هجومهم فسيف قصير ورمح طويل ويسمى المسلح على هذه الصورة باسم إيبوليت والمسلحون من الإسبارطيين مقسومون إلى كتائب وسرايا وفرق وشراذم على مثال ترتيب جيوشنا لهذا العهد إلا قليلا، فكان الضابط يقود إحدى هذه العصابات ويبلغ رجاله أوامر الرئيس بحيث أنه يتأتى للقائد العام أن يوحد حركة الجيش كله، وهذه الطريقة التي نراها سهلة هي بالنسبة لليونان إبداع عجيب.

مصاف الجيش متى بلغ الجند مقدمة الأعداء يأخذون مصافهم ويكون في العادة على ثمانية صفوف متقاربين بعضهم من بعض مؤلفين من جموع متكاتفة تدعى جحافل ومصافا ويقدم الملك، وهو قائد الجيش عنزة على سبيل النذر للأرباب، وإذا تفاءلوا بأحشاء الذبيحة تفاؤلا حسنا يبدأ جماعة من الجند يرددون لحنا وعندئذ تهتز صفوفهم فيباغتون أعداءهم مسرعين على الإيقاع ونغمات المزمار والرمح يعول والترس على الجسد فيحملون عليهم وصفوفهم متراصة فينكسون أعلامه بجموعهم ووثوبهم ويهزمونهم ويقفون حالا لئلا يقطع مصافهم وإنه ليتسنى لكل جندي أن يحمي أخاه مادام سير الجيش كتفا إلى كتف فيكون بذلك كالبنيان المرصوص يتعذر على العدو أن يحد إلى حرقه سبيلا نعم إن هذه التعبئة كثيفة في ذاتها ولكنها تكفي لغلبة جيش مشوش وقلما يقاوم ناس منفردون مثل تلك الجموع، ولقد فهم سائر اليونان هذا الأمر فأقتدوا جميعهم بالإسبارطيين ما ساعدتهم المكنة، فكان جندهم حيثما حلوا مدججين بالسلاح وقاتلوا جحافل وكتائب متراصة.

الرياضة الجسمية- اقتضى تدريب رجال جفاف أقوياء ليتسنى مهاجمة العدو في مثل تلك الصفوف وتنكيس أعلامه لأول وقعة، فكان على كل جندي أن يحسن البراز والصراع فمن، ثم رتب الإسبارطيون الرياضات البدنية واقتدى بهم سائر اليونانيين فأصبحت الرياضة عملا من أعمال الأمة كافة وأكثر أعمالها اعتبارا ما يكلل صاحبه في الأعياد العظيمة عرفت إحدى المدن في البلاد النائية بين برابرة الغول، أو البحر الأسود وثبت أنها يونانية إذ كان لها ملعب للأعمال الرياضية، وكان هذا الملعب قطعة مربعة عظيمة تحيط بها أروقة، أو دهاليز، وهي في الأغلب على مقربة من نبع وله حمامات وقاعات للتمرين فيحضر السكان إلى ذاك المكان للنزهة والمجاذبة فهو أشبه بناد، وكان الفتيان يقضون في هذ الملعب عامين على الأقل يختلفون إليه كل يوم يتعلمون القفز والركض ورمي الإطار وضرب الحراب ويتصارعون بوسط الجسد لتقوية العضلات والجلد

وينغمسون في الماء البارد ويطلون أبدانهم بالزيت ويتمسحون بمسحة.

المصارعون- معظم الإسبارطيين يقضون عامة حياتهم في ممارسة هذه التمرينات إربا ومروءة فلا يعتمون أن يصحوا مصارعين، وقد وفق بعضهم إلى أن تمت على أيديهم خوارق ويقال: إن ميلون من مدينة كروتون في إيطاليا كان يحمل نورا على كتفيه يوقف عجلة، وهي راكضة بأن يمسكها من خلفها، ولقد كان هؤلاء المصارعون يخدمون في الحروب خدمة الأجناد وكثيرا ما يقومون بقيادة الرحوف، وبهذا صح قولنا إن الرياضات البدنية بمثابة تدريب على الحرب.

أعمال الإسبارطيين- تعلم الإسبارطيون من اليونانيين التروض والقتال وجاء منهم مصارعون أقوياء أشداء وجند منظم وعرفوا بهذه المزية في بلاد اليونان، وكانوا من أجل ذلك يحترمون في كل مكان، ولما قضي على سائر الشعوب اليونانية أن تقاتل الفرس مجتمعة تحت راية واحدة لم يستنكفوا من اتحاد الإسبارطيين زعمائهم، قال خطيب أثيني، وكان هذا الأمر بحجة صحيحة واستحقاق تام.

أثينة - الشعب اللاتيني

أتيكيا- فاخر الأثينيون لكناهم أبدا بلادا واحدة وادعى أجدادهم أنهم ولدوا من الرمل كالريزان، وقد اجتاز الفاتحون من سكان الجبال بالقرب من بلادهم، ولم يهاجموها وقلما دعتهم أتيكيا إلى قتالها هذه المقاطعة مؤلفة من جبال شاهقة صخرية ناتئة في البحر على شكل مثلث الأضلاع، وهذه الصخور المشهورة يقطع رخامها ويعسل نحلها جرداء مرداء بينها وبين البحر ثلاثة سهول صغيرة قاحلة لا تروي (لجفاف سواقيها في الصيف)، ولا يقوم بتغذية أمة كبيرة.

أثينة- على فرسخ من البحر أعظم من تلك السهول قامت صخرة عظيمة وحيدة منتصبة، وقد أنشئت أثينة في سفحها، أما المدينة القديمة التي كانت تدعى الأكروبول (المدينة العالية) فإنها كانت في قمة الجبل، وقد أخذ سكان

أتيكيا يتفرقون إلى ممالك عديدة فكانت كل قرية تحكم نفسها بنفسها ولها ملك فجمع جميعها تحت زعامته، وهو ملك أثينة فيتألفون بذلك مدينة واحدة، وليس معني ذلك أنهم كلهم يحطون رحالهم في المدينة، بل يظل كل منهم يسكن قريته ويزرع أرضه، بيد أنهم كلهم عبدوا أربابا واحدة، وهي أثينة معبودة أثينة وخضعوا بأجمعهم لملك واحد.

ثورات أثينة- قد رجعت أثينة فنزعت السلطة الملكية واستعاضت عنها بتسعة زعماء (أركون) يتبدلون كل عام وإنا لنجهل هذا التاريخ كل الجهل إذ لم يبلغنا عن ذاك الوقت أقل كتابة يستند إليها ويروي أن الأثينيين عاشوا قرونا في شقاق يضطهد أشراف أصحاب الأملاك (أوباتريد) العملة من أصحاب المياومات في أراضيهم ويبيع الدائنون مدينيهم بيع الأرقاء، ولقد عهد الأثينيون حبا بتوطيد الراحة إلى صولون أحد حكمائهم أن يسن لهم قوانين يسيرون عليها فقام بثلاث إصلاحات أولا تقليل قيمة السكة، وهو مما سهل على المدينيين أن يوفوا ما عليهم من أهون سبب ثانيا جعل الفلاحين ملاكا للأراضي التي يزرعونها، ومن ذاك الحين صار في أتيكيا كثير من صغار أصحاب الأملاك مما لم يعهد مثله في بلاد يونانية ثالثا قسم السكان عامة إلى أربع طبقات بحسب مداخيلهم وقضى على كل منهم أن يؤدي الضرائب ويقوم بالخدمة العسكرية على نسبة ثروته، أما الفقراء فأعفاهم من الضرائب والخدمة، ولقد خضع الأثينيون بعد صولون إلى بيزيستراس أحد أبنائهم العالمين العارفين، ثم بدأ الاضطراب سنة ٥١٠.

إصلاح كليستين- استفاد كليستين أحد زعماء الأحزاب من هذه الاضطرابات فقام بثورة عظيمة، ولقد سكن كثير من الغرباء في أتيكيا، وكان معظمهم ملاحين وتجارا يقطنون مدينة بيرا بالقرب من المرفأ فأعطاهم كليستين حقوق الوطنيين وساواهم بالسكان الأقدمين فصار من ثم في تلك المقاطعة شعبان مختلفان سكان أتيكيا وسكان بيرا وكانا يتميزان أحدهما عن

الآخر بعد ثلاثة قرون من هذا الاختلاط باختلاف سحناتهم فيشبه أهل أتيكيا سائر اليونانيين ويشبه أهل بيرا الأسياوين وهكذا زاد الشعب الأثيني فأصبح أمة جديدة، ومن أكثر سكان بلاد اليونان حركة ونشاطا حتى إذا كان القرن الخامس تألفت الهيئة الاجتماعية في أثينة تأليفها الأخير، فكان ثلاث طبقات من السكان يقطنون أتيكيا إلا، وهم الموالي والأجانب والوطنيون.

الموالي- ألموالي هم السواد الأعظم من أهل البلاد، فلم يكن ثمة رجل مهما بلغ من الفقر المدقع ألا ويملك مولى، أما الأغنياء فيملكون منهم كتيبة وملك بعضهم نحو خمسائة مولى، وكان من شأن هؤلاء الموالي أن يبقوا في الدور وشغلهم الطحن والعجن وحياكة الثياب ونسجها وطبخ الطعام وخدمة ساداتهم ويعمل بعضهم في المعامل حدادين وصباغين، أو يشتعلون في المقالع والمناجم الفضية ويقوم سيدهم بأودهم ولكنه يبيع لنفسه كل ما تنتجه أيديهم ويأتي ثمرة أعمالهم، ولا يعطيهم من جميع ذلك إلا الطعام، فكان عامة الخدمة والعاملين في المناجم ومعظم الصناع عبيدا وأرقاء يعيشون في المجتمع دون أن يعدوا منه، بل لا يتصرفون بأنفسهم، وهم ملك مواليهم حشما ومادة، ولم يعتبروا إلا اعتبار عروض تملك، وربما دعوهم "أجسادا"، وليس لهم من شريعة غير إرادة سيدهم ولسيدهم عليهم كل حق وسيطرة فإن شاء شغلهم، وإن شاء حبسهم، وإن شاء حرمهم من طعام، وأن شاء ضربهم، وإذا نشأت لأحد الوطنيين قضية يتأتى لخصمه أن يطلب تعذيب مواليه ليقروا بما يعملون، وقد امتدح عدة خطباء أثينيين هذه العادة وعدوها ضربا من ضروب الحذق لأخذ شهادة صحيحة، قال الخطيب إيريه: التعذيب أحسن وأسطة لنيل البراهين، ولذلك متى كان عليك أن توضيح مسألة منازعا فيها فإياك أن تعمد إلى الإصرار، بل إنك تصل إلى كشف القناع عن محيا الحقيقة بجعل العبدان في العذاب الشديد.

الأجانب- هم ناس من أصول مختلفة يقيمون في أتيكيا، وهم الذين يدعون

الميتيكيين (أي المتساكنين)، ولم يكف الرجل؛ كما هو الحال عندنا أن يولد في أرض أثينية ليعد وطنيا، بل يجب أن يكون ابن وطني وعبثا استوطن الطراء في أتيكيا أجيالا كثيرة، وما عدت قط أسراتهم أثينية فالميتكيون والحالة هذه لم يكن لهم أن يشتركوا في الحكومة، ولا أن يتروجوا وطنية، ولا أن يقتنوا ملكا على حين كانوا أحرارا في أشخاصهم ولهم حق السفر في البحر، وأن يكونوا صيارف وتجارا على شرط أن يتخذوا لهم زعيما ومولى يمثلهم أمام القضاء، وكان في أثينة زهاء عشرة آلاف أسرة من الميتيكيين ومعظمهم صيارف وتجار.

الوطنيون- اقتضت الحال أن يكون الإنسان ابن وطني، أو وطنية ليكون وطنيا أثينيا ومتى بلغ الفتى الثامنة عشرة من عمره يعد عندهم راشدا فيقف أمام جموع الشعب ويدفع إليه السلاح الذي يقضى عليه حمله ويقسم يمينا فيقول أقسم بأني لا أهين هذا السلاح المقدس، ولا أغادر موقعي في صفوف العداء، وأن أخضع للحكام والقوانين وأشرف عين وطني فيكون بهذا الحلف وطنيا وجنديا معا ويقضى عليه بعد أن يخدم في الجندية إلى سن الستين وله لقاء ذلك حق الجلوس في مجلس الأمة والقيام بوظائف الحكومة، وربما رضي الشعب الأثيني بجعل رجل وطنيا على حين ليس هو ابن وطني ولكنه يرضى بذلك على صفة استثنائية وتوسعا في المكرمة العظيمة فيوافق المجلس على قبول الغريب وينبغي أن ينتخبه على الأقل ستة آلاف وطني بعد تسعة أيام من هذا الاقتراع، وفي جلسة ثانية، وذلك في انتخاب سري والشعب الأثيني هو كدائرة مطبقة لا يدخل فيه أعضاء جدد إلا إذا رضي الأعضاء القدماء بقبوله على أنهم لا يقبلون غير أبنائهم.

المجلس- يلقب الأثينيون حكومتهم بالحكومة الديمقراطية (أي حكومة الشعب)، وليس هذا الشعب ما نعني به عندنا من جمهور السكان، بل هو جماعة الوطنيين وخلصاء الأشراف وعددهم بين خمسة عشر ألفا إلى عشرين ألف رجل، وهم زعماء الأمة بأسرها ولهؤلاء الجماعة سلطة مطلقة وكلمة عليا، وهم على

التحقيق ملوك أثينة فإن مجلسهم يلتئم ثلاث مرات في الشهر للمفاوضة والاقتراع يجتمعون في الهواء الطلق في ساحة ألبيكس فيجلس الوطنيون على مقاعد من حجر ذات درجات ويقعد الحكام بإزائهم على مصطبة ويفتتحون الجلسة باحتفال ديني وصلاة يصلونها، ثم يعلن المنادي بصوت جهوري بالمسألة التي يتناقش فيها المجلس قائلا من منكم يشرع في الكلام أولا، ولكل وطني الحق أن يطلب ذلك وعندها يصعد الخطباء المنبر بحسب تفاوت أعمارهم ومتى تكلموا كافة يضع الرئيس المسألة المطلوبة على بساط البحث فيقترع المجلس بأن يرفع أعضاؤه أيديهم، ثم ينصرفون.

المحاكم- لما كان الشعب حاكما فهو يقضي في القضايا لذاته، ولكل وطني بلغ الثلاثين من عمره أن يكون من أعضاء مجلس الحكم فيجتمع الحكام في القاعات الكبرى فرقا كل فرقة مؤلفة من خمسمائة نسمة، وفي كثير من القضايا يلتئم فرقتان، أو ثلاث فرق من الحكام فتتألف المحكمة من جمهور يبلغون ألفا، أو ألفا وخمسمائة قاض، ولم يكن للأثينيين حكام؛ كما هو الحال عندنا لرفع القضايا، بل كانت هذه المهمة من وظيفة الوطني الذي يعهد إليه تجريم المجرمين فيتمثل المدعي والمدعي عليه أمام المحكمة ويخطب كل منهما خطبة لا تزيد على وقت حدد بساعة دقاقة مائية، ثم يبدأ القضاة بالموافقة على وضع حصاة بيضاء، أو سوداء فإذا توفر للمدعي بضعة آراء (أصوات) زيادة على خصمه يحكم عليه ويحرم.

الحكام- كان الشعب الحاكم في حاجة إلى مجلس لوضع المسائل موضعها من النحت وإلى حكام ينفذون ما يقرره ويتألف المجلس من خمسمائة وطني تصيبهم القرعة حولا كاملا وإذ كثر عدد الحكام خص عشرة منهم لتعبئة الجيش وقيادته وثلاثون لإدارة الشؤون المالية وستون منهم يعهد إليهم خطة الحسبة من النظر في الشوارع ونظافتها والأسواق وبياعتها والأوزان والقياسات، وما يتبعها.

منعة هذه الحكومة- لم تكن السلطة في أثينية في أيدي الأغنياء والشرفاء؛ كما كانت في إسبارطة، بل كانت تقرر كل مسألة بأكثرية الآراء وتتعادل الآراء فيجري انتخاب الحكام وأعضاء المجلس والعمال بالقرعة إلا القواد، فإنهم لا ينتخبون كذلك والوطنيون يتساوون لا من، حيث الأمور النظرية، بل من، حيث الأمور العملية، ولقد، قال الحكيم سقراط لأحد أهالى أثينة المنورين، وكان لا يجرأ على الكلام أمام الشعب: "يا هذا ممن تخاف؟ أمن القصارين أم من السكافين، أو المعمارين، أو الحرانين أم من السوقة والمرتزقين فمن هاته الطبقات يتألف المجلس" وكثيرون من هؤلاء الحكام مضطرون إلى الإحتراف ليعيشوا، ولم يكن في وسعهم أن يخدموا الحكومة بالمجان، ولذلك عينت لهم مشاهرات وأجورا فيتناول كل وطني أجرة جلسة واحدة في المجلس، أو المحكمة ثلاثة فلوس، أو خمسة وأربعين سانتيما من سكسنا، وهو القدر الذي يتأتى لرجل أن يعيش به في ذاك العصر من أجل هذا كثر الأعضاء الفقراء في هذه المجالس وجلسوا على دكات المحاكم مع الأغنياء كتفا إلى كتف ووجها لوجه.

الفوضويون من الشعب- لما كانت تفصل المسائل برمتها في المجلس، أو المحاكم بالمناقشة فيها وإلقاء الخطب في مضامينها كان فصحاء القوم هم أرباب المكانة المكينة في الأمة فاعتادت هذه أن تسمع لأصوات الخطباء، وأن تعمل بنصائحهم وتعهد إليهم في السفارات، وأن تعينهم قوادا، أو زعماء ويدعى هؤلاء الرجال الفوضويين "أو زعماء العصاة"، أما حرب الأغنياء فيضحك منهم، وقد مثل أريستوفان الشعب في إحدى الروايات الهزلية في صورة شيخ سخيف فقال: أنت غبي تصدق كل ما تسمع تستسلم لأهل النفاق والدسائس يتلاعبون بك على هواهم وتغتبط بالسعادة متى خطبوا فيك، وقال أحدهم خطابا لأحد نراع الآفاق: أنت يا هذا شقي فظ غليظ وصوتك شديد، وفي بلاغتك من القحة، وفي حركاتك من السرعة ما يؤهلك على ما أرى إلى كل ما يلزمك لحكم أثينة.

الحياة المنزلية

اخترع الأثينيون وظائف كثيرة عهد القيام بها إلى فئة من الوطنيين، فكان الوطني اللأثيني كالموظف والجندي في أيامنا مهتما بالانصراف إلى الأعمال العامة يصرف أيام حياته في إشهار الحرب والحكم على الشعب ويقضي ساعاته في المجلس، أو في المحكمة، أو في الجيش، وفي مجال الرياضة، أو في السوق، وكان له أبدا امرأة وأولاد؛ لأن الدين يأمره بذلك ولكنه ما كان يعيش عيش البيوت.

الأولاد- يحق للوالد عندما يولد له مولود أن يطرحه ويطرده خارج بيته فيموت طريحا إذا لم يلتقطه أحد ابناء السبيل ويربيه ليجعله مولى له وأنت ترى أن أثينة اتبعت في هذا خطة جماع الشعوب اليونانية والبنات كن ينبذن في العراء ويطرحن خارج المنازل أكثر من البنين، قال أحد الخطباء الهزليين: إن الابن يربى في الغالب ولو كان ذووه في أقصى دركات الفاقة، أما الابنة فتهمل ولو كان أهلها من الغنى على جانب فإن قبل الوالد الولد يعد من الأسرة ويترك أولا في مساكن النساء بالقرب من الأم، حيث يظل البنات إلى أن يتزوجن، أما البنون فينفصلون عن تلك البيوت في السابعة من عمرهم فيسلم الطفل الأثيني إلى المربي الذي يعهد إليه تعليمه وتحسين هيئته والخضوع والطاعة وكثيرا ما يكون المعلم من طبقة الموالي إلا أن والد الطفل جعله في حل من ضرب ابنه، وهذه كانت عادة عامة في القديم، ثم يذهب الولد على الكتاب يتعلم القراءة والكتابة والحساب وإنشاد الأشعار والتغني مع جماعة الموسيقيين على نغمات المزمار، ثم يأخذ في تعلم الألعاب الرياضية، وهذه غاية ما يتعلمه الولد فيجيء من هذا التعليم من أبناء الأثينيين رجال صحيحة أجسامهم هادئة أفكارهم يدعوهم اليونانيون أهل الصلاح والجمال، أما الفتاة فتظل بالقرب من أمها لا تتعلم شيئا ويذهبون إلى أنه يكفي الابنة الأثينية أن تحسن الخضوع وتتشبث بأهداب الطاعة، وقد مثل كسينوفان أحد أغنياء الأثينيين المهذبين، وهو يخاطب الحكيم سقراطا في شأن زوجه، قال: لم تكد تبلغ الخامسة عشرة، حتى تزوجتها، وقد كان ذووها جعلوها إلى ذاك العهد تحت المراقبة الشديدة وأرادوا ألا تبقى وتعيش،

ولا تسمع شيئا على التقريب مما أهلها؛ لأن تكون امرأة تحسن نسج الصوف وتصنع منها ثيابا ورأت بأي الطرق يستخدم الإماء والخادمات، ولما اقترح عليها زوجها أن تكون شريكة في حياته أجابته مدهوشة: على أي أمر أعينك وهل أنا قادرة على شيء؟ فلطالما قالت لي أمي: إن شأني الخاص بي أن أكون عاقلة فمعنى كون المرأة عاقلة أن تخضع، وهذه هي الفضيلة التي تطلب إلى المرأة اليونانية.

الزواج- تتزوج الفتاة في الخامسة عشرة من سنها وأهلها يختارون لها زوجها فيكون تارة شابا من أسرة قريبة، أو رجلا طاعنا في السن من أصدقاء والدها، ولا يعدو أبدا أن يكون وطنيا أثينيا، وقد تعرفه الفتاة من قبل في بعض الأحوال، وما قط أخذ رأيها في معنى زواجها، ولما تكلم المؤرخ هيرودتس عن أحد أبناء يونان، قال: إن كالياس هذا جدير بأن يتكلم المتكلمون في أمره للخطة التي يسلكها مع بناته فإنهن متى صلحن للزواج ينحلهن من المال شيئا كثيرا ويسمح لهن باختيار أزواج لهن، ومن أبناء الأمة ويزوجهن بمن ينتخبنهم.

النساء- كان في داخل كل بيت أثيني مسكن منعزل خاص بالنساء يدعى الحرم، ولا يختلف إلى هذا المسكن غير الزوج والأنسباء وتبقى فيه ربة البيت دائما مع صويحباتها وأماتها تراقب أعمالهن وتلقنهن أصول تدبير المنازل وتوزع بينهن الصوف ليحكنه، وهي تشغل نفسها بحياكة الثياب أيضا وقلما كانت تخرج من دارها إلا في الأعياد الدينية، ولا تظهر في مجتمعات الرجال قط، قال الخطيب ازيس: حقا إنه لم يكن لأحد أن يجرأ على العداء عند امرأة مزوجة فإن النساء المزوجات لا يخرجن لتناول الطعام مع الرجال، ولا يسمحن لأنفسهن أن يأكلن مع الغرباء وغير المحارم، وما كانت المرأة التي تخالط الرجال معدودة في جملة النساء المحتشمات المهذبات وهكذا لم تكن المرأة، وهي على حالها من الاعتزال والجهل ذات عشرة مقبولة فيتزوج بها الرجل لا لتكون شريكة حياته، بل لتقوم بأمر بيته وتلد له أولادا، ولأن العادة والدين عند اليونانيين يقضيان بأن يكون

للمرء خليلة.، وقال أفلاطون: إذا تزوج المتزوج فليس برضاه وذوقه السليم بل؛ لأن الشريعة تقضي عليه بذلك، وقال مياندر الشاعر الهزلي: هذه العبارة إذا شئت التحقيق فقل أن الزواج شر ولكنه شر لا مناص منه ولذا كان أبدا للنساء في أثينة؛ كما في معظم المدن اليونانية مقام وضيع في المجتمع.

الحروب المادية

سببها- بينا كان اليونان آخذين في تنظيم مدنهم كان ملك الفرس يجمع شتات بلاد الشرق كافة تحت لواء واحد، ولقد تقابل اليونان والمشارقة، وكان المصاف بينهم لأول الأمر في آسيا الصغرى، وكان على شاطئ آسيا مستعمرات يونانية غنية مأهولة فطمع قورش ملك فارس في ضمها إلى بلاده فبعثت تلك المستعمرات تستنجد بالإسبارطيين، وقد اشتهروا بأنهم أجرأ أبناء اليونان وأنذروا بذلك قورش فأجابهم بقوله إنني ما خشيت قط هذا الضرب من الناس الذين يجتمعون في ساحة وسط مدنهم لينخدع بعضهم بعضا بالإيمان والعهود (كلامه على ساحة السوق) فغلب أبناء اليونان في أسيا وأصبحوا رعايا ذاك الخاقان الأعظم وبعد ثلاثين سنة تقابل الملك دارا مع يونان اوريا ولكنهم ظهروا عليه هذه المرة فأرسل الأثينيون عشرين سفينة على الأيونيين العصاة فدخل جندهم في ليديا واستولوا عنوة على مدينة ساردس عاصمة ليديا وأحرقوها فأنتقم دارا عن ذلك بأن خرب المدن اليونانية في آسيا، ولم يبق على يونان أوريا، وقيل: إنه أمر أن يتمثل لديه ضابط في كل مأدبة يكرر على مسامعه قوله مولاي تذكر الأثينيين، وقد بعث إلى المدن اليونانية يطلب ترابا وماء، وهذه الإشارة الشائعة عند الفرس كانت دلالة على أن شعبا يخضع بلاده لسلطة الخاقان الأعظم فأوجس معظم اليونانيين خيفة واستسلموا خاضعين ناجعين فطرح الإسبارطيون المندوبين من الفرس في بئر قائلين لهم أن يأخذوا منها ماء وترابا يحملونها إلى ملكهم، وهذه كانت فاتحة الحروب المادية.

مبادلة الخصمين- إن التباين بين هذين العالمين المتحاربين قد أشار إليه هيرودتس أحسن إشارة في صورة محاورة بين كسيركيس ملك الملوك وديمارات أحد المنفيين من الإسبارطيين فقال: هذا أتجاسر أن أؤكد لك أن الإسبارطيين يعلنون عليك حربا، حتى ولو انحاز سائر أبناء يونان كافة إلى حزبك ولو لم يبلغ جيشهم ألف رجل فأجاب كسيركيس ضاحكا وليت شعري هل في وسع ألف رجل أن يشهروا حربا على هذا الجيش الكثير العدد والعدد وإني لأخشى أن يكون في كلامك تحذلق كثير وهب أن عددهم خمسة آلاف فنحن زهاء ألف لقاء واحد فلو كان لهم زعيم مثلنا فإن الخوف يحمسهم ويزيد نفوسهم مضاء فيرجفون بضرب السياط على جيوش أكثر منهم حضا وعددا وإذ أنهم أحرار لا علاقة لهم بأحد فليس لهم من الشجاعة أكثر مما خصتهم به الفطرة يقول ديمارات: إن ليس الإسبارطيون دون غيرهم في حرب يتلاقى فيه المتحاربون جسدا لجسد، حتى إذا انضموا بعضهم إلى بعض صاروا جيشا برأسه، ومن أشجع الناس وأمضاهم وقصارى القول فإنهم وإن كانوا أحرارا في الظاهر ليسوا كذلك في سائر شؤونهم فلهم حاكم مطلق ألا وهو "القانون" فهم يخافونه كثيرا ويرهبون بأسه أكثر من رهبة رعايانا لك يطيعونه، والقانون يأمرهم أن يثبتوا في مصافهم أبدا إلى أن يغلبوا، أو يموتوا - إليك حال هذين يزحفون إلى العدو إلا إذا انهالت السياط عليهم، وقد جاءوا بسيف القوة والقهر إلى حرب لا يهمهم أمرها، ولا سلاح لديهم، ولا نظام في مصافهم فهم لا يلبثون أن يركنوا إلى الفرار بمجرد أن تغيب أعين الحراس عنهم وتقاتل الماديون والفرس وحدهم في بلاتيه وميكال ونجا الرعايا، وكان الجند الفارسي سيء النظام والعدة يلبس ثيابا طويلة، وقد وقيت رؤوسهم بقلنسوة من لباد وحفظت أجسامهم أتراس من شجر الصفصاف والخلاف وسلاحهم قوس ومدية وحربة قصيرة جدا، ولم يكونوا يستطيعون القتال إلا بعيدين ويقاتل الرجل رجلا مثله، أما الإسبارطيون والمتحدون معهم بعقد المحالفة فكانوا على عكس ذلك تقيهم التروس العظيمة

والخوذ ووقايات السوق ويسيرون جموعا مشتبكة لا تقاوم يخرقون صفوف العدو بحرابهم الطويلة، وما هو بأسرع من رد الطرف، حتى تصير الحرب ملحمة كبرى ومذبحة تباع فيها الأرواح بيع السماح.

نتائج الحروب المادية- قادت إسبارطة الجيوش، ولكن كما، قال هيرودتس: كانت أثينة هي التي أنقذت اليونانية بأن كانت لها مثالا في المقاومة وألفت أسطول سلامينة، وقد استفادت أثينة من هذه النصرة، أما المدن الأيونية من الجزر وشاطئ آسيا حملة واحدة، فقد ثارت ومردت وألفت عصابة تبايعت فيها على الموت في سبيل الذود عن أوطانها من مهاجمة الفرس وأما الإسبارطيون، وهم شعوب جبلية فلما لم يستطيعوا أن يديروا حربا انصرفوا راجعين أدراجهم فأصبح الأثينيون إذ ذلك زعماء العصابة، وفي عام ٤٧٦ جمع أريسدس قائد أسطولهم نواب المدن المتحالفة فقر رأيهم على متابعة حرب الخاقان الأعظم وتآمروا بينهم على تقديم سفن ومحاربين، وأن يؤدوا كل سنة قطيعة من المال قدرها ٤٦٠ تالاتا (أي مليونا وسبعمائة ألف فرنك) وجعلت الحرابة بمدينة ديلوس في معبد أبولون معبود الأيونيين، وكان عهد إلى أثينة أن تقود الجيوش وتجبي القطائع، وقد ألقى أريستدس في البحر قطعة من الحديد المحمي واقسموا كلهم أن يحتفظوا جميعا بالعهود إلى يوم تطفو هذه الحديدة على سطح الماء، وذلك حبا بتأكيد العهد وتفاديا من نقض يمين الإخلاص.

وقد حدث مع هذا أن الحرب وقفت وعقد اليونان، وكان النصر أليف ألويتهم أبدا معاهدة سلمية، أو هدنة مع الخاقان الأعظم فأبى الملك أن يعد يونان آسيا من رعاياه (نحو سنة ٤٤٩) وهنا سؤال يورد في هذا الباب، وهو كيف انتهت معاهدة أريستديس وهل كان على المدن المتحدة أن تؤدي القطائع على حين ليس عليها أن تقاتل بعد فأبى بعضها ذلك، حتى قبل أن أطفئت نار الحرب وزعمت أثينة أن المدن كانت أخذت على أنفسها العهد على الدهر فاضطرتها إلى أن تؤدي ما يطلب إليها، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها لم تجد حراثة ديلوس فتيلا،

ولذلك نقلها الأثينيون إلى مدينتهم واستخدموها في ابتناء المصانع والمعاهد ولطالما كانوا يقولون إن المتحدين يؤدون ما يتقاضونه من الضرائب للخلاص من أيدي الفرس فمن، ثم لم يكن لهم ما يطالبون به بتة مادامت أثينة تدفع عنهم عادية الخاقان الأعظم، وهذا مما غير حالة المتحالفين فصاروا ملزمين بدفع الضرائب لأثينة، وما عتموا أن أمسوا رعاياها فزادت أثينة في فنائهم وأكرهت مواطنيهم على المثول أمام المحاكم الأثينية، بل قد أنفذت بطوارئ من قبلها ليستعمروا جانبا من أرضهم، وبهذا النظر أصبحت أثينة أم القرى تحكم زهاء ثلاثمائة مدينة متفرقة في الجزر وشواطئ الأرخبيل وتجبي قطيعة قدرها ستمائة تالان في كل سنة.

الصنائع في بلاد اليونان

أثينة على عهد الإمبراطور بيركليس

بيركليس- كانت أثينة في منتصف القرن الخامس من أقدر المدن اليونانية يدبر أمرها بيركليس أحد أبناء الأسرات العظيمة، وكان مقلا من الكلام غير متبذل في شخصه، ولم يكن يتوقع في أعماله رضا الأمة، بل كان الأثينيون يحترمونه، ولا يجرون إلا على نصائحه، وهو معروف بأنه متمكن من شؤون الإدارة ومعرفة البلاد، ولذلك دخلوا تحت سيطرته وحكمه فأدار سياسة أثينة كليا أربعين سنة؛ كما، قال معاصره توسيديس المؤرخ: إن الحكومة الديمقراطية كانت موجودة بالاسم، بل كانت تلك الحكومة حكومة الوطني الأولى على التحقيق.

أثينة ومصالحها- كانت منازل القوم الخاصة في أثينة؛ كما في معظم المدن اليونانية ضيقة واطئة متراكمة بعضها على بعض يكون منها أزقة ضيقة منعطفة سيئة التبليط، وقد جعل الأثينيون عظمتهم في معالمهم العامة فمنذ أخذوا يجبون من محاليفهم قطائع لتصرف في سبيل الحروب كانوا ينفقون

النفقات الطائلة في إقامة أبنية جميلة فعمروا في ساحة أحد الشوارع رواقا مزينا بالصور (الفسسيل) وأنشئوا في المدينة دار تمثيل ومعبدا إكراما لتيريس أحد أبطالهم وأوديون معهد الشعر والموسيقى، وذلك للمسابقة في هذا العلم، ولكن قامت أجمل المباني على صخرة الإكروبول كأنها على قاعدة هائلة، وهما معبدان (أحدهما هو البارثينون جعل قربى للمعبودة أثينة حامية مدينة أثينة) والآخر هيكلٌ ضخم من القلز يمثل أثينة وسلم من الآثار الجليلة يصل إلى البروبيلي ورواق الرخام في أثينة، ومن ذلك العهد كانت أثينة أجمل بلاد اليونانية وأنضرها.

عظمة أثينة- ومع ما خصت به أثينة من الصفات المشار إليها كانت أيضا مدينة أهل الصنائع، فقد حشر إليها الشعراء والخطباء والمهندسون والمصورون والنقاشون، وكان بعضهم من أهل أثينة ووجهاؤها وجاءها البعض الآخر من أطراف أرض اليونان يحملون إلى تلك المدينة العظيمة نتائج صناعاتهم وطرف طرائفهم لا جرم أنه نبغ كثير من أرباب الصنائع اليونان لم يكونوا من أهل مدينة أثينة، وذلك قبل القرن الخامس وبعده بكثير من الزمن، ولكن قل أن اجتمع هذا القدر العظيم من أرباب الصنائع في مدينة واحدة، ولقد كان معظم اليونانيين من أكيس أرباب المعارف في الصناعات وموادها، بيد أن الأثينيين فاقوا غيرهم بحس ذوقهم وصنع أيديهم وامتازوا بعقول مثقفة ورغبة في الطرف وآثار الظرف واللطف ولئن جاء من أبناء اليونان أمة رفيعة القدر عالية المكانة في تاريخ الحضارة فذلك لأنها أمة تحسن ملكة الصناعات فلا جيوشهم القليلة، ولا بلادهم الصغيرة الرقعة خدمت العالم خدمة أعظم من خدمة صناعهم لها فإليك السبب الذي من أجله كان القرن الخامس أجمل عهد في تاريخ اليونان والداعي إلى أن جعل أثينة تستأثر بفضل الشهرة أكثر من غيرها من المدن اليونانية.

امتازت أثينة أولا ببلاغة خطبائها فكانت حقا بلد الأدب وحسن الإلقاء فبلخطب في مجلس الأمة يقرر إشهار الحروب وعقد السلم وقطع القطائع والضرائب وكل الشؤون العظيمة وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا، أو يبرؤون فللخطباء السلطة، وعلى الأمة أن تعمل بنصائحهم ومواعظهم، وربما عهدت إليهم بتدبير شؤون المملكة، فقد عين كليون قائدا ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب وللخطباء نقود وكثيرا ما يلجأون إلى بلاغة القول لنيل من عداتهم في سياستهم، وربما اغتنوا؛ لأنهم ينالون من أرباب الغايات ما يرضيهم من المال ليغضدوا أحد الأحزاب، فقد أخذ أشيل مالا من مكدونيا وقبض ديموستين دراهم من ملك الفرس.

ثم إن بعض الخطباء ينشؤون خطبا ليلقيها غيرهم، ولا يسوغ لمن كانت له قضية أن يرفعها بواسطة محام؛ كما هو الحال عندنا، بل تقضي شريعة البلاد أن يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات فمن، ثم كان عليه أن يروح إلى أحد الخطباء يلتمس منه تأليف خطاب له يستظهره ليتلوه أمام المحكمة ولطالما جاب بعض الخطباء بلاد اليونان وتكلموا في موضوعات توحيها إليهخم المخيلة فأقاموا لهم: كما نقول مقامات وعقدوا أندية ومؤتمرات[14] وكان قدماء الخطباء يتكلمون بدون تصنع مقتصرين على أن يقصوا على المنابر الكوائن بدون أن يعمدوا إلى أساليب خطابية فيقفون في المنبر لا حراك لهم دون أن يصرخوا، أو يتحركوا، وكان الملك بيركليس يخطب خطبه على طريقة هادئة دون أن يحرك أهداب ردائهوعندما كان يقف في منبر الخطابة، وقد تكلل رأسه حسب العادة بأوراق الشجر يزعم الشعب أنه يتخذ ربا من أرباب الأولمبيا، ولكن الخطباء الذين جاءوا بعد ذلك طمعوا في إثارة الأمة والنفوذ إلى شعورها

---

(١٤) (اشتهر عشرة من هؤلاء الخطباء خاصة فدعوا خطباء أتيكيا العشرة)

واصطلحوا على الإنشاء المتين يروحون في المنبر ويعدون منشدين متحركين، وما عتمت الأمة أن اعتادت هذا الأسلوب في الفصاحة، ولما أخذ ديموستين يتكلم في منبر الخطابة للمرة الأولى طفق الحضور يقهقون ويضحكون من أسلوبه إذ لم يكن يحسن التلفظ، ولا الوقوف، ثم ما لبث أن مرن على الإلقاء وإحسان الحركات المطلوبة، حتى صار نديم الشعب وعزيزه دبت الأيام ودرجت الليالي وديموستين خُطيب في أمته، وقد سئل بعد عن أول صفة في الخطيب فأجاب بأنها العمل، ثم سئل ثانية فقال: العمل، ثم سئل ثانية فقال: العمل ومعنى العمل طريقة الإلقاء فإنها كانت تهم اليونان أكثر من الخطبة.

الحكماء- كان منذ قرون عند يونان آسيا خاصة أناس يراقبون المادة ويفكرون في أمرها لقبوا بالحكماء والعلماء، وقد عنوا بالطبيعيات والفلك والتاريخ الطبيعي إذ لم يكن العلم قد انفصل بعد عن الفلسفة وهكذا كان حال مشاهير الحكماء السبعة ببلاد يونان في القرن السابع.

السفسطائيون- جاء ناس على قرب عهد بركليس إلى أثينة فاتخذوا تعليم الحكمة صناعة واجتمع لهم كثير من التلاميذ أنشئوا يتقاضونهم أجور الدروس التي يلقونها وجعلولا ديدنهم الإنكار على الدين والعادات وأصول إدارة المدن اليونانية ويوهمون أنها غير مبنية على العقل ويأخذون من ذلك أن المرء لا يعرف شيئا صحيحا مما كان قريبا من الصواب في عهدهم، وليس في طاقته أن يعرف أمرا صدقا كان أو زورا، وقال أحدهم: لا وجود لأمر ومتى وجد صعبت معرفته ويدعى هؤلاء المعلمون للتشكيك بالسفسطائيين، وقد خص بعضهم بملكة الخطابة.

سقراط والفلاسفة- حاول سقراط أحد شيوخ أثينة أن ينكر على السفسطائيين ويوقفهم عند حدهم على فقر حاله وبشاعة منظره ولكنة لسانه، ولم تكن له دروس يلقيها كأولئك السفسطائيين، بل يكتفي بالرواح إلى المدينة يخاطب من يصادفهم من جماعتهم بكثرة ويحملهم بكثرة الأسئلة على أن يفكروا

فيما ينكر فيه بنفسه، وكان بحثه مع الفتيان خاصة يعلمهم وينصح لهم، ولم يكن يظهر سقراط أنه شدا شيئا من العلم، بل كان يقول إن غاية علمي أنني أدري بأنني لا أدري وود لو دعي فيلسوفا محبا للحكمة لا حكما كسائر تلك الزمر، ولم يتدبر شيئا من طبيعة الكون، أو مسألة من مسائل العالم، بل كان همه دراسة أحوال الإنسان، وكانت حكمته في قوله اعرف نفسك، فكان من ثم مبشرا بالفضيلة وإذ إنه كثيرا ما كان يخوض في الموضوعات الأخلاقية والدينية عده الأثينيون سفسطائيا، وفي سنة ٣٩٩ مثل أمام المحكمة متهما بأنه يتجافى عن عبادة أرباب المدينة وأنه يحاول إدخال أرباب جديدة إليها ويفسد على الشبان عقائدهم، فلم يحاول أن يدافع عن نفسه، بل حكم عليه بالموت، وكانت سنه إذ ذاك سبعين سنة فانتصر له كسينوفون أحد تلاميذه وألف أفلاطون من الفلاسفة محاورات أقام فيها سقراط زعيم المتحاورين فاعتبر من ذلك العهد أبا للفلسفة، أما أفلاطون، فقد كان صاحب مذهب معروف ٤٢٩ - ٣٤٨ ولخص أرسطو تلميذ أفلاطون ٣٨٤ - ٣٢٢ علوم عصره كافة في كتبه وق انقسم الفلاسفة الذين أتوا بعد المعلمين أرسطو وأفلاطون قسمين دعيت شيعة أفلاطون بالرواقيين وشيعة أرسطو بالمشائين؛ لأن أرسطو كان يعلم، وهو يروح ويغدو.

الموسيقيون- كان من العادات القديمة أن يرقص القوم في الحفلات الدينية فيمر جمهور من الفتيان حول مذبح المعبود، ثم يرجعون واقفين كالأشراف وقفة ذات معان وإشارات إذ كان القدماء يرقصون بأجسادهم كلها ويختلف رقصهم كثيرا عن رقصنا، وهو ضرب من التطواف الحماسي وأشبه برواية ذات إيماء، وكان هذا الرقص الديني أبدا مشفوعا بأغان تعظيما للأرباب ويسمى جمهور الراقصين والمغنين جماعة الموسيقيين وللمدن كلها جماعة من الموسيقيين، ومنهم أبناء أشرف العيال يعدون كذلك بعد أن يستعدوا زمنا، ومن فرط العناية أن يكون خدمة الرب جديرين بخدمته.

الروايات الفاجعات والهزليات- كان يحتفل الفتيان في الأرياف المجاورة

لأثينة كل عام بإقامة المراقص الدينية إكراما للرب ديونيروس إله الكرمة، وكان بعض هذا الرقص متثاقلا يمثل أعمال المعبود فيضرب رئيس جماعة الموسيقيين على وتر أغنية ديونيروس ويصور جوقة رفاقه، وهم أناس لهم أرجل تيوس يسكنون الغابات، ثم يأخذون في تمثيل عيش أرباب أخر وأبطال قدماء، ثم خطر لأحدهم أن ينصب مصطبة يجيء ممثل يلعب عليها عندما ينقطع جوق الموسيقى عن الضرب بأنغامه وهكذا تم المشهد ونقل إلى المدينة بالقرب من شجر الحور الفارسي، أو مجتمع السوقة فنشأت من ذلك الروايات الفاجعات.

أما الرقص الآخر، فكان مضحكا فينكر الراقصون وجوههم ويتفننون بمدائح الرب يونيزوس، وقد شابوها بأضاحيك يسلون بها الحضور، أو بتصورات هزلية في حوادث حدثت ذاك اليوم، وقد صبغ في الجوق الهزلي ما صنع في الجوق المفجع من إدخال ممثلين ومحاورات ونقل المشهد إلى أثينة وهكذا نشأت الروايات الهزلية الكوميديا من أجل هذا كانت الروايات الفاجعة تمثل إلى يوم الناس هذا أبطالا، أما الروايات الهزلية فتمثل حياة كل يوم واحتفظت الفاجعات المأساة والهزليات ببعض أصلها وظلت تمثل أمام هيكل الرب، وإن تكن فاجعة ولئن غدا الممثلون، وهم جلوس على المصطبة أصحاب موقع في المشهد، فقد ظل جوق التمثيل يرقص ويتغنى، وهو يطوف حول المذبح، وكان جماعة الموسيقيين في الروايات الهزلية؛ كما كان يجيء المتنكرون يبدون ملاحظاتهم على السياسة بغلظة.

الملاهي- جعل في منحدر قلعة الأكروبول ملعبًا للرب ديونيزوس إله الكرمة يسع ثلاثين ألف متفرج وذلك ليحضر الأثينيون كافة هذه المشاهد، وكان هذا الملعب كسائر الملاعب اليونانية مكشوفا تحت السماء ومؤلفا من درجات من الحجر مصفوفة على شكل نصف دائرة بإزاء جماعة الموسيقى، حيث كان يطوف المنشدون وأمام المشهد الذي تمثل فيه الرواية، ولا تقام المشاهد فيه إلا في أوقات أعياد الأرباب، بيد أن المشاهد كانت تدوم إذ ذاك عدة أيام متتالية يبدأون في الصباح عند بزوغ الغزالة ويمثلون للحال ثلاث فاجعات وقصة هجوية تنتهي

على ضوء المشاعل من الليل والفاجعات الثلاث يؤلفها واحد وتمثل فاجعات أخرى في الأيام التالية وهكذا كان المشهد ميدان مسابقة بين الشعراء والأمة تعطيهم جوائز الاستحسان وأشهر هؤلاء المتبارين أشيل وسوفقليس وأريبدس، وقد عهدت المسابقة أيضا بين مؤلفي الروايات الهزلية، ولم يؤثر من كل ما ألفوه من الروايات غير قطعة واحدة ألفها أريستوفان الشاعر الهزلي.

الصنائع اليونانية

المعابد اليونانية- قامت أجمل المباني في اليونان تعظيما للأرباب فمتى ذكرت هندسة اليونان فلا يذهب الفكر إلا إلى معابدهم، وليس المعبد اليوناني كالبيعة النصرانية خاصا بقبول المؤمنين الدين الذين يهرعون إلى الصلاة فيها، بل هو قصر ينزله الرب وبمثاله يمثله قصر تحفة الأبهة والجلالة، ولا يلجه جمهور المؤمنين، بل يظلون خارجه حوالي المذبح تحت السماء، وقد قامت مقصورة الرب في وسط المعبد، وهو مرار سري لا نافذة له، ولا ضوء ينفذ إليه إلا ما كان من كوى في الأعالي وقام الصنم في داخله معمولا من خشب، أو رخام، أو عاج لابسا ذهبا محلى بالثياب والحلي وكثيرا ما يكون هيكلا عظيما، وقد مثل زيوس في معبد الأولمبيا قاعدا ويكاد يصل رأسه إلى القمة ولذا قيل إن الرب لو تمثل قائما لخرق السقف، وقد حجب هذا المزار عن الأنظار من كل ناحية، وهو عبارة عن مستودع ذخائر الصنم ويجتاز كل من أراد دخوله ضربا من الرواق مؤلفا من صفوف من السواري ووراء الغرفة غرفة ثانية مغلقة فيها الأعلاق الثمينة الخاصة بالرب وجميع مقتنياته(١٥)، وربما جعل فيها ذهب المدينة وفضتها وهكذا كان المعبد صوانا وكنزا ومتحفا وتحيط بالمعبد صفوف من السواري من أطرافه الأربعة مؤلفة حوالي جدار المرار غشاء ثانيا للرب وكنوزه والسواري على

---

(١٥) (كان في البارثينون أحد معابد أثينة على قول خزنة كنوز الأرباب أوان ذهبية وفضية وتاج من ذهب وأتراس وخوذات وسيوف وحيات من ذهب ومنضدة من عاج أيضا)

ثلاثة أنواع تختلف باختلاف أساسها ورأسها وتاجها، وعلى كل منها اسم الأمة التي اخترعتها وأكثرت من استعمالها، وهي بحسب اختلافها في القدم السواري الدورية والسواري الأيونية والسواري الكورنثية ويدعى المعبد باسم السواري التي بني عليها وفوق الأعمدة حوالي البناء صفائح من رخام منقوشة على شكل اللوحة تتناوب على قطع من رخام منضمة ومنها يتألف الإفريز ويعلو المعبد بنية مثلثة في أعلى مقدم البناء مزدانة بتماثيل قد صورت المعابد اليونانية بألوان عديدة من أصفر وأزرق وأحمر وبقي أهل التمدن الحديث زمنا، وهم يأبون تصديق ذلك، وكان من الوهم العام أن لأبناء اليونان ذوقا معتدلا جدا في نقش البناء، بيد أنه اكتشفت في كثير من المعابد آثار نقوش لا تبقي مجالا للشك، حتى أدت الحال بالباحثين أن علموا بالتأمل فيها أن تلك الألوان اللامعة لم تحسن إخراج الخطوط، وكان عليها أن تحسنه أكثر من ذلك.

صنعة النقش اليوناني- يتراءى المعبد اليوناني بادئ ذي بدء أنه ساذج لا زينة فيه، وما هو إلا علبة مستطيلة من حجر موضوع على صخر، أما الواجهة فتحتوي على شكل مربع تعلوه زاوية فلا ترى لأول نظرة غير خطوط مستقيمة وأسطوانات، حتى إذا نظرت فيها عن أمم يتكشف لك أنه ليس من هذه الخطوط المستقيمة العديدة إلا خط واحد مستقيم في الحقيقة والسواري منتفخة نحو الوسط والخطوط القائمة منحنية قليلا نحو المركز والخطوط الأفقية محدبة في الوسط، وكان هذا من الدقة بحيث اقتضى قياسه بالتدقيق لاكتشاف الصنعة فيه، وقد لحظ النقاشون اليونان أن إخراج مثل هذا المجموع المتطابق من البناء يقتضي تجنب الخطوط الهندسية التي تظهر منحدرة وتوفير العناية بظواهر المناظر البعيدة، قال كاتب يوناني: إن غاية النقاش أن يخترع طرفا يسحر بها أعين الناس، ولقد كان أهل الصنائع في يونان يعملون بإخلاص؛ لأنهم يعتقدون عملهم قربى من أحد الأرباب لذلك كانت صنائعهم معتنى بها في كل أطرافها، حتى فيما لا يرى منها، وهي من المتانة بحيث يطول أمد بقائها

بعد لو لم يعاجلها التخريب بشدة ودام البراثينون إلى القرن السابع عشر سليما وانشق شطرين بانفجار مخزن من البارود كان بقربه، وقد جمع النقش اليوناني إلى المتانة حسن ذوق وإلى السذاجة علما ومهارة زالت معابد اليونان كلها تقريبا ويكاد يبقى بعضها مبعثرا مخدوشا مهدما متداعي الأركان، وربما كانت طبقات من سوار على إنها تكفي على علاتها أن تلفت نظر من يراها.

النقش- لم يكن النقش عند المصريين والأشوريين إلا زينة من توابع الأبنية، أما اليونان، فقد أحلوه محل صناعة رئيسة وأشهر أرباب الصنائع عندهم النقاشون فيدياس وبراكسيتيل وليريب فينقشون البارز دون النصف من البناء ليزينوا جدران معبد وواجهته والبنية المثلثة في أعلى البناء، ومن هذا النوع الإفريز الشهير في الباناتينييه المحيط بالبارثينون، وهو يمثل تطواف شابات أثينة يوم الاحتفال بعيد الربة الكبير، وكان هؤلاء النقاشون ينقشون هياكل وتماثيل خاصة بعضها يمثل ربا ويستخدم صنما وبعضها يمثل مصارعا ظافرا في الألعاب الاحتفالية أقيمت له هذه التماثيل جراء نصرته وأقدم التماثيل اليونانية منحدرة عوجاء تشبه النقوش الأشورية، ثم غدت لدنة ظريفة، وكانت أعظم الأعمال من صنع فيدياس في القرن الخامس وبراكسيتيل في القرن الرابع، أما تماثيل القرون التالية فإنها على التأنق فيها أقل شرفا وعظمة، وكان في يونان ألوف من التماثيل إذ أن لكل مدينة تماثيلها، وقد تابع النقاشون عمل التماثيل بلا انقطاع مدة خمسة قرون، ولم يبق منها على كثرتها غير خمسة عشر تمثالا لم تعبث به الأيدي، ولم تنقل إلينا طرفة من الطرف الشهيرة بين اليونان وأشهر تماثيلنا اليونانية إما أن تكون نسخة عن الأصل مثل تمثال الزهرة في ميلوا، أو أعمالا أثرت عن عصر الانحطاط مثل تمثال أبولون في البلقيدير ومع هذا، فقد بقي منها ما يكفي إذا أضيفت إليها قطع التماثيل والصورة البارزة التي ما زالت تستخرج بالحفر؛ لأن يتصور المرء حالة النقش اليوناني ويكون له فكر إجمالي عنها فالمهندسون اليونان فكروا أولا في تمثيل أجمل الأجسام في مظهر وقور

شريف، وما أضاعوا الفرص كلما سنحت ليشهدوا أجمل الرجال في أجمل الهيئات من محل الرياضة والجيش والمراقص والأجواق المقدسة فيدرسونها ويحسنون نقلها، وما ضاهاهم أحد في محاكاة الجسم البشري، ومن العادة أن يكون الرأس صغيرا في تمثال يوناني والوجه ساكنا كامدا، ولم يعن اليونان مثلنا بمعاني الوجه، بل يعتنون بجمال التخاطيط، ولم يراعوا التناسب بين الأعضاء والرأس والجسم برمته مثال الجمال في التماثيل اليونانية.

صناعة الخزف- عرف اليونان أن يتخذوا من الفخار صناعة حقيقية دعوها سيراميك بقي منها اسمها فقط فالخزف، أو الفخار لم يعتبر في اليونان مساويا لسائر الصناعات، ولكن له منفعة عظيمة لنا، وذلك أننا نعرفه أحسن من معرفتنا غيره، فقد تداعت المعابد والتماثيل، أما أعمال الخزافين اليونانيين، فقد حفظت بحالها في المدافن التي يعثر فيها عليها اليوم، وقد جمع منها إلى الآن زهاء عشرين ألف خزفة في متاحف أوروبا، وهي نوعان الأواني المنقوشة بنقوش سوداء، أو حمراء على اختلاف الحجم والشكل والتماثيل الصغيرة المعمولة من التراب المطبوخ التي عرفت منذ خمس عشرة سنة قد اشتهرت الآن، أو كادت منذ اكتشفت الدمى البديعة في تاناكار من بيوسيا ومعظمها أنصاب صغيرة وبعضها يمثل أولادا، أو نساء.

التصوير- اشتهرت في اليونان عصابة من المصورين مثل روكسيس وفارانيوس وإبيل وكل ما اتصل بنا عنهم يرجع إلى بضع أقاصيص وربما كانت مبهمة في الأحايين، أو إلى بعض أوصاف لها صور وإنا للوقوف على حالة التصوير اليوناني قد اقتصرنا على ما عثر عليه من تصاوير الحوائط في بيوت بومبي إحدى المدن الإيطالية، وهي من القرن الأول للميلاد وكأنها تقول بلسان الحال أننا لم نعرف عنها شيئا.

التجارة الأثينية- أصبحت أثينة في القرن الخامس مدينة كبرى على كانت أتيكيا إقليما مجدبا لا نغل ما يكفي لإعالة سكانها فتضطر إلى جلب

الحنطة والخمر والسمن والسمك من الخارج، وقد كان عبيد أثينة على العكس يعملون الثياب والخزف والسلاح والأثاث مما يباع خارج بلادهم فمن، ثم كثرت أساليب التجارة فكانت البضائع ترد إلى مرفأ بيراأو تصدر منها، وكانت أنشئت فيها أرصفة ومخازن، وقد سماها أحد الخطباء في القرن السادس بأنها سوق بلاد اليونان بأسرها، وكانت تأتيها حاصلات بلاد الشمال خاصة ويحمل إليها من الداخلية في مواني البحر الأسود وتراسيا الحنطة والخشب والجلود والعبيد، وكانت أثينة تتجر مع اليونان النازلين في جنوبي إيطاليا إلى نابولي وإذ كان لكل مدينة يونانية نقودها الخاصة بها، فقد كان يأتي أثينة دراهم من ضروب مختلفة فاقتضى لذلك صيارفة يبدلونها، وكانوا يدعونهم ترابيريت؛ لأنهم كانوا يجلسون في الساحة وراء منضدة ترابيزة، وكانوا كلهم تقريبا من الغرباء الذين أصبحوا ميتيكيين، ثم إنهم كانوا اتخذوا مهنة أضافوها إلى مهنتهم تلك، وهي إقراض النقود فيخزنون الدراهم ويقرضونها بفائدة فاحشة بنحو ٢٠ في المائة.

حرب المورة

خصائص عامة الاستيلاء على أثينة

خصائص عامة- انقسم اليونان إلى قسمين بعد تأسيس أثينة في الجزائر اليونانية فكانت المدن الساحلية خاضعا لأثينة والمدن الداخلية باقية تحت إمرة إسبرطة وبعد خلاف طال أمره نشبت الحرب بين إسبارطة وحليفاتها في ذاك الصقع من جهة وأثينة ورعاياها الساحليين من الجهة الأخرى، وكانت هذه الحرب هي المعروفة بحرب المورة دامت سبعا وعشرين سنة (٤٠٤- ٤٣١)، ولما ألقت أوزارها عادت فنشبت باسم آخر إلى سنة ٣٦٠.

كانت تلك الحروب مشوشة يقتتل المتحاربين فيها برا وبحرا يقتتلون في أرض اليونان، وفي أسيا وتراسيا وصقلية، أي: من أصقاع مختلفة، وكان جيش

الإسبارطيين أحسن انتظاما فجعل مقاطعة أتيكيا قاعا صفصفا، وكان أسطول الأثينيين أكثر إستعدادا فحرب الشواطئ، ولم يؤثر عن تلك الحروب الناشبة بين المدن اليونانية إلا الشدة ويكفي في وصفها الإشارة إلى بعضها، فقد كان اختلاف الإسبارطيين في بدأ الحرب يلقون في البحر جميع سلع المدن المعادية لهم فقابلهم الأثينيون بقتل سفراء إسبارطة بدون أن يستمعوا لأقوالهم.

خضعت مدينة بلاتينة صلحا، وكان وعد الإسبارطيون جماعة المحاصرين بأنهم لا يعاقبون أحدا بدون محاكمة وإليك مع هذا كيف كان قضاة الإسبارطيين يعاملون أسرى.

يسألون كل واحد منهم عما إذا قام في خلال الحرب بخدمة للإسبارطيين، فكان الأسير يجيب سلبا فيحكمون عليه بالإعدام، وقد بيع النساء كالإماء عصب مدينة مدللي على الأثينيين فأعادوها إلى طاعتهم، ثم اجتمع الشعب الأثيني وبعد المشورة، بيد قضي بإعدام سكان مدللي نعم أنه رجع من العدل عن رأيه وأرسل باخرة ثانية تحمل العفو عن أولئك المنتقصين بيد أنه كان نفذ حكم الإعدام على زهاء ألف من سكان مدللي، وكان من العادة إذ داهم جيش بلاد العدو أن يخرب البيوت ويقطع الأشجار ويحرق الغلات ويقتل الخرابين وبعد إنتهاء الحرب يجهز على الجرحى ويعمد إلى قتل الأسرى صبرا، وإذا جرى الإستيلاء على مدينة يؤول كل ما فيها ملكا للغالب فيباع رجالها ونساؤها وأولادها؛ كما يبيع العبيد هكذا كانت إذ ذاك حقوق الحرب، وقد أوجرها توسيديد في خطاب له في الجملة الآتية، قال: تنفض المسائل بين الناس بواسطة قوانين العدل متى أضطروا إليها من الطرفين، ولكن القوى يأتي ما في طاقته والضعيف يذعن له والأرباب يتسلطون بضرورة الفطرة؛ لأنهم الأقوياء والناس يجرون على مثالهم.

الاستيلاء على أثينة- ولما تعب الشعبان من هذه الحرب الباطلة عقدا السلم بينهما، ولكن أمده لم يطل، وذلك أن أثينة بعثت بجيشها إلى صقلية لتفتح

سيراكوس المحالفة لإسبارطة، وهناك أحيط به وبعد نكبة سيراكوس أسر الجيش الأثيني برمته وطفق الغالبون يخنقون عامة القواد وجماعة من الجند، ومن أبقوا عليه أنزلوهم إلى تومي، وهي مقالع قديمة كانت تتخذ حبوسا ألقوهم فيها سبعين يوما متزاحمين متراصين لا وقاية تقيهم حرارة الشمس في الصيف، أو رطوبة ليالي الخريف فمات كثير منهم مرضا وجوعا وعطشا؛ لأنهم لم يكادوا يطعمونهم إلا ما يسد رمقهم بعض الشيء وبقيت أشلاؤهم ملقاة على الأرض تفسد الهواء، ثم أخرج أهل سيراكوس من بقي حيا من الأثينيين وباعوهم؛ كما يباع الرقيق وأقام الإسبارطيون حامية في جبال أتيكيا بحيث تمكنوا من توقيف تجارة أثينة مع بلاد الشمال ومنها كانوا يأتون بالحنطة وذهب ليزاندر القائد الإسبارطي إلى آسيا وأخذ مالا من الفرس جهز به أسطولا وطاف شواطئ آسيا وإذ كان أحلاف أثينة لا يقاتلون إلا بالقوة تركوه وشأنه، ثم إن ليزاندر حطم الأسطول الأثيني في آسيا (٤٠٥) وحاصر أثينة وأخذها جوعا واضطرها إلى تخريب أسوارها وحرق سفنها الحربية.

تقدم إسبارطة

الأعضاء الثلاثون - سقراط - أجازيلا

الأعضاء الثلاثون- لما غدا القائد ليزاندر صاحب أثينة أكره أهلها على تنظيم حكومتهم بحيث لا يخرجون عن حكمه بتاتا فأنشئوا مجلسا مؤلفا من ثلاثين عضوا انتخبوا من أعداء الحكم الديمقراطي، وكانوا قبل حاولوا النزوع إلى الثورة ليفصموا عري الدستور وعهد إلى هذا المجلس أن يؤلف دستورا جديدا ويحكم أثينة بدون أن يرجع إلى رأيه أحد، ولا أن يراعي قانونا واقيمت لحماية هذا المجلس من سطوة الأثينيين حامية من الجند تحت إمرة قائد إسبارطي في قلعة الأكروبول المشرفة على المدينة، وهذه كانت طريقة الحكم التي وضعها ليزاندر في المدن اليونانية في آسيا والجزر عندما أخرجها من محالفة أثينا.

حول هؤلاء الأعضاء سلطة لا نهاية لها وشعروا بأنهم مؤيدون بالجيش الإسبارطي فأنشئوا يحكمون حكم السادة القادة ويقبضون على أشياع الحكم القديم وينفذون عليهم الأحكام، وربما كانت سيطرتهم تتناول الأغنياء متخذين ذلك حجة في مصادرة أموالهم فمن، ومن ثم لقب أولئك الأعضاء بالثلاثين ظالما وانتهت الحال بترامين أحد الأعضاء، وكان تآمر على الديمقراطية واتفق مع الإسبارطيين أن قال لرصفائه بأنه قتل أناس كثيرون فيجب الكف عن إزهاق الأرواح فما كان منهم إلا أن اتهموه بالخيانة وطردوه من المجلس وحكموا عليه بالإعدام.

وقد فر كثير من الوطنيين من أثينة ولجئوا إلى البلاد المجاورة ولاسيما ميكار وثيبة واستولى أحد هؤلاء النازحين المدعو ترازيبول في ٧٠ من أصحابه على قلعة من أعمال أتيكيا في الجبال على طريق بيوسيا عنوة فجاء الأعضاء الثلاثون في أشياعهم يداهمونه إلا أنهم ردوا على أعقابهم وحاولوا أن يحاصروا القلعة، ولكن رجع رجالهم إلى أثينة لما هطل الثلج وبعثوا بالحامية الإسبارطية وبالفرسان فهجم ترازيبول عليهم وقتل منهم ١٢٠ رجلا ولحق بترازيبول نازحون جدد فلما اجتمع له منهم ألف رجل اجتاز أتيكيا فاستولى على مرفأ بيريه ونزل في مونيشي وراء معاقل اتخذها للتحصن فقدم الأعضاء الثلاثون في رجالهم إلا أنهم ردوا على الأعقاب وعندئذ نزع أشياعهم السلطة منهم وأعطوها إلى مجلس مؤلف من عشرة طلب معونة إسبارطة فبعثت هذه إليها بليزاندر حاكما من قبلها وحاصر بيريه بالسفن، ثم وصل ملك إسبارطة في جيشه ووصل إلى أثينة وأمر بالكف عن القتال وفصلت الحكومة إسبارطة بين الفريقين ورخصت لجميع النازحين أن يعودوا إلى أثينة فدخل ترازيبول ورجاله إليها، وهم مدججون بأسلحتهم وصعدوا إلى قلعة الأكروبول يقدمون ضحية للمعبودة، ثم أعاد الأثينيون الدستور القديم وتراجع الأعضاء الثلاثون في أشياعهم إلى ألوزيس فقصدهم الأثينيون وهاجموهم وقتلوا الزعماء وأرجعوا الباقين، ثم أقسموا كلهم أن لا تنزع الأحقاد

من صدورهم لما انتشب من الحرب الأهلية، وهو ما دعي بالهدنة "النسيان"، ولم تعد تحدث ثورة في أثينة بعد.

ضعف المملكة الفارسية- شغل اليونان بقتل بعضهم بعضا فكفوا عن مهاجمة الخاقان الأعظم، بل وأخذوا يسعون في محالفته، وكانت المملكة الفارسية لا تقل عن ذلك في تيهاء الضعف فأصبح الحكام لا يخضعون للحكومة بتاتا، ولكل منهم بلاطه وخزانته وجيشه يحارب من يشاء، وقد أمسى قيلا "ملكا صغيرا" في ولايته، وكان الملك إذا أراد أن يعين واليا مكان آخر لا يجد إلى ذلك سبيلا إلا بقتل السلف فعقدت ملكة الحرب من نفوس الفرس بعد أن كانوا أمة يرتجف لذكرها جميع شعوب آسيا وهاك كيف وصف الفرس كسينوفون أحد ضباط اليونان الذي كان موظفا عندهم إنهم ينامون على البسط ويلبسون قفافير في أيديهم ويتدثرون بالفرو ويلبس الكبراء حجابهم وخبازيهم وطباخيهم وحماميهم والخدمة الذين يخدمونهم على موائدهم ويطيبونهم ويعطرونهم ليجعلوا منهم فرسانا موظفين ويريحوا أجورهم ولئن كانت جيوشهم كثيرة العدد، فلم ينتفع بها في شيء وسهل على المرء أن يحكم عندما يرى أعداءهم يطوفون بلاد فارس أحرارا أكثر من أصحابهم، ولا يجرؤون أصلا على قتال بعضهم بعضا عن أمم والفرسان مسلحون؛ كما كانوا سابقا بالسيف والترس والفأس، ولكن لم تكن لهم الجراة على استعمالها، وكان سائقو المركبات الحاصدة قبل أن تصل إلى العدو تلقي بنفسها عمدا، أو تقفز إلى الأرض بحيث إن تلك المركبات إذا خلت من سائقيها تحدث لهم ضررا أكثر مما ينشأ منها للأعداء على أن الفرس لا يكتمون أنفسهم ضعفهم العسكري ويعترفون بانحطاطهم في هذا الشأن، ولا يجرأون على الدخول في المعارك بدون أن يكون بعض الروم في جيوشهم، ومن قواعدهم أن لا يقاتلوا اليونانيين بدون أن يكون لهم منهم مساعدون.

حملة العشرة آلاف شوهد هذا الضعف عندما سار كيكاوس سنة ٤٠٠ أخو

الخاقان الأعظم أرتاكسركيس ليخلفه، وكان في تلك البلاد إذ ذاك ألوف مؤلفة من نزاع الآفاق، أو المنفيين من اليونانيين يؤجرون أنفسهم أجنادا فدعا كيكاوس عشرة آلاف رجل منهم، حتى أن أخذهم كسينوفون كتب يصف حملتهم فاجتازوا بلاد آسيا إلى حدود الفرات بدون أن يقف أحد في وجوههم، ثم اقتتلوا بالقرب من بابل وأخذ اليونان جريا على عادتهم يعدون مسرعين، وهم يصرخون صريخ الحرب وقبل أن يكون البرابرة على قيد علوة بادروا إلى الهزيمة فلحقهم اليونان، وهم يتصارحون أن لا يفارق أحدهم صاحبه، ولما انتهت إليهم مركبات الحرب فتحوا صفوفهم ليتركوا إليهم سبيلا إلى المرور، ولم يصب يوناني بأدنى ضرب ما خلا واحدا جرح بسهم.

جرح كيكاوس-   وتشتت جيشه بدون أن يقاتل وظل العشرة آلاف يوناني وحدهم في داخلية بلاد محاربة أمام جيش عظيم ومع هذا لم يجسر الفرس أيضا على مهاجمتهم ولكنهم غدروا فقتلوا خمسة قواد لهم وعشرين ضابطا ومائتي جندي جاءوا لعقد محالفة، ولما أصبح أولئك المستأجرون من الجند بلا قواد وضباط انتخبوا زعماء جددا وحرقوا خيامهم ومركباتهم وركنوا إلى الفرار ودخلوا في جبال أرمينية الوعرة، وعلى ما نالهم من الجوع وكثرة الثلوج وسهام القبائل الوطنية التي لم ترض أن تفسح لهم مجالا للمرور وصلوا إلى البحر الأسود ورجعوا إلى أرض يونان بعد أن قطعوا مملكة فارس وبقي منهم لدن عودتهم "سنة ٣٩٩" ٨٠٠٠ جندي.

أجازيلا-   وبعد ثلاث سنين داهم أجازيلا ملك إسبارطة في جيش صغير بلاد آسيا الوسطى وليديا وفريجيا المشهورة بغناها وخصبها وقاتل الولاة والعمال وراح يدخل إلى آسيا، ولكن الإسبارطيين أرجعوه ليقاتل جيوش الثيبيين والأثينيين، وكان أجازيلا أول يوناني قام في ذهنه أن يفتح بلاد فارس فحزن أن رأى اليونانيين يقتل بعضهم بعضا، ولما أخبروه بما تم لغلبة كورنت قائلين له: إنه هلك فيها ثمانية من الإسبارطيين فقط وعشرة آلاف من العدو لم يفرح بهذا

النصر، بل تنفس الصعداء وقال: "مسكينة أنت يا بلاد اليونان التعسة، فقد أضعت رجالك، وكان لك فيهم وحدهم غناء في إخضاع عامة البربر" وأبى ذات يوم أن يخرب مملكة يونانية قائلا "إذا أبدنا جميع اليونان الذين لا يقومون بواجبهم فأين نجد رجالا للتغلب على البرابرة"، وهذا الشعور كان قليلا على عهده قال مترجمه كسينوفون عندما أورد هذه الكلمات أجازيلا هاتفا: "من كان غيره يرى من المصيبة أن يغلب عندما كان يحارب شعوبا من جنسه".

عظمة ثيبة - إيبامينوداس

مقاومة إسبارطة- جاء زمن كانت فيه إسبارطة صاحبة السيادة برا وبحرا، قال كسينوفون، وكانت على ذلك العهد جميع المدن تخضع لأمر يصدر عن أحد الإسبارطيين، ولما ضاقت صدور المتحالفين مع إسبارطة من الخضوع لها ألقوا عصابة لمقاومتها، فكان من ذلك أن طرد الإسبارطيون أولا من آسيا، ولم يسلم لهم سلطانهم على بلاد اليونان بضع سنين إلا بمحالفتهم لملك الفرس "٣٨٧"، بيد أن استيلاءهم لم يدم طويلا، فكان في سهول بيوسيا شعب شديد البأس شجاع النفس وهؤلاء البيوسيون الذين شهرهم جيرانهم الأثينيون، وربما على غير استحقاق قد ظلوا منقسمين بين إحدى عشرة مدينة، وكانت ثيبة أقواها سقطت على حين غرة في أيدي الإسبارطيين فأدخل زعيم حزب الأشراف المحاربين من الإسبارطيين القلعة وأوقف زعيم حزب الديمقراطيين ونفذ عليهم القضاء المبرم.

وإذ لم يرض أربعمائة رجل من أهالي ثيبة أن يظلوا تحت حكم الإسبارطيين لجئوا إلى أثينة فعزم أحدهم المدعو بيلوبيداس، وهو شاب من أسرة شريفة غنية أن ينقذ بلاده؛ كما فعل ترازيبول في تخليص وطنه فراح يقيم في قرية مع جماعة من المنفيين وأنفق مع الثيبيين الذين بقوا في ثيبة فدخل في إحدى ليالي الشتاء إلى المدينة في رجاله وداهم الحكام، وهم في مأدبة فذبحهم، ومن الغد دعا

مجلس الأمة فهتف له هذا بأنه محررها من أسر العبودية وعندها سلمت الحامية الإسبارطية التي كانت في القلعة وعادت ثيبة مستقلة وعملت على أن تجمع تحت إدارتها جميع مدن بيوسيا لتسير جميع البيوسيين تحت لواء واحد لحرب إسبارطة.

إيبامينوداس- كان إيبامينوداس هو الرجل الذي نظم حالة الثيبيين فخفقت به لهم أعلام النصر، وكان من أسرة شريفة إلا أنها غنية فاعتاد نوعا من الحياة القاسية وظل يعيش فيها مقلا من الطعام لا يتناول الخمر، وليس له غير رداء واحد، ولا مال لديه فصيح اللسان إلا أنه يندر أن تراه يتكلم، ولا يقول إلا الحق "وهذا مما لم يكن من عادة اليونان" شجاع جدا في الحروب ولكنه مفرط في الإنسانية متضع شديد البأس يحبه ويحترمه كل من يراه، ولم يكن يعنى بصراع المصارعين الذي كان يشوق سائر أبناء يونان، بل إنه اعتاد السباق واللعب بالسلاح واخترع ضربا جديدا من القتال، وكان الثيبيون كسائر اليونانيين قد اختاروا العادة الإسبارطية فيصطف الجند الرجلي منهم كتائب كتائب على ثمانية إلى عشرة صفوف، وكانت جيوشهم في كل مكان في تعبئتها نمطا واحدا تؤلف مثلثا ذا زاوية قائمة مستطيلة ورقيقة فكانوا إذا حمل جندهم على العدو يشعرون بأن تروسهم المعلقة على أذرعتهم الشمال تحميهم من اليسار، ومن اليمين صفوف رفاقهم يحمون الميمنة بالطبع بحيث أن الجناح الأيمن من الكتيبة يشعر بأنه أقوى ما يكون في العادة فتخيل إيبامينوداس أن يعبئ رجاله على شكل زاوية قائمة مؤلفة على طولها من صفوف متساوية في عددها، بل أن يضع في الجناح الأيسر صفوفا أكثر من الأيمن فتأخذ الكتيبة شكلا غير متناسب يشبه شكل زاوية قائمة فيكون الجناح الأيسر أضخم من الأيمن ومؤلفا من أحسن المحاربين يحمل حملة منكرة على جناح العدو الذي يكون أضعف منه فينكس وسط جيش العدو ويأخذه من جنبه فدافع الثيبيون عن بلادهم بادئ بدء من الجيش الإسبارطي الذي بقي يداهم بيوسيا في ربيع كل سنة أعواما كثيرة

ويقطع الشجر ويحرق الغلات، ولم يجسر أن يقاتل قتالا منظما، بل كانت غاراته مناوشات فقويت شكيمتهم وتمرسوا في الحرب رأى إيبامينوداس أن جيشه قد اعتاد قراع الأبطال وقوي ساعده في حومة النزال، وكانت الرجالة من جند الإسبارطيين اصطفت على عمق اثني عشر مقاتلا بالقرب من لوكترس، وكانت رجالة الثيبيين أقل وفرسانهم أكثر "لأن بيوسيا كانت بلادا تربى فيها الخيول الجياد" فاستطاع إيبامينوداس أن يحمي الميسرة، وكان من ذلك أن اختصر خط الحرب وحمل الجناح الأيسر من جيشه، وكان مؤلفا من خمسين صفا فبدد شمل الجناح الأيمن من الإسبارطيين، حيث كان الملك واقفا فقتل "٣٧١"، وهذه كانت المرة الأولى التي تغلب فيها جيش يوناني على جيش إسبارطي وأصبحت ثيبة المدينة المقدسة أكثر من جميع مدن يونان وصارت لها الإمرة على بيوسيا كلها، وكانت الشعوب اليونانية في المورة إلى ذاك العهد خاضعة لإسبارطة فالتمست معونة الثيبيين لنيل استقلالها فأنشأت مدينة ماتينة في بلاد أركاديا أسوارها على الرغم من دفاع إسبارطة وذبحت تيجة الأغنياء أحلاف إسبارطة، وكان الأركاديون من سكان الجنوب مشتتين إلى ذاك العهد في القرى فانضموا بعضهم إلى بعض وأنشئوا مدينة حصينة سموها ميكالوبوليس، ثم أراد إيبامينوداس جمهور الثيبيين على أن يذهبوا إلى غزو الإسبارطيين في عقر دارهم فدخل الجيش البيوسي إلى بلاد المورة وكثر سواده بالأركاديين وأهالي أرغوس وتوغل في إقليم لاكونيا وطفق يعسكر أمام إسبارطة "٣٧٠"، وكانت هذه هي المرة الأولى التي رأى فيها الإسبارطيون العدو في أرضهم، ولم يكن لإسبارطة أسوار فسلح أجازيلا "وكان قد بلغ إذ ذاك من العمر ٧٦ سنة" جماعة الهيولتيين وحصن الآكام المحيطة بالمدينة.

ولم يجسر إيبامينوداس على الهجوم وإذ كان عاجزا عن إطعام جيشه في البلاد التي استباح حماها وجعل عاليها سافلها رجع أدراجه وقبل أن يغادر المورة جمع المسينيين، وقد أصبحوا منذ ثلاثة قرون رعايا الإسبارطيين وأعانهم على

إنشاء مدينة قوية سميت ميسين وعادوا يلمون شعثهم وتحالفت إسبارطة مع الأثينيين الذين كانوا يحسدون الثيبيين: كما حالفوا أهل سيراكوزة ومع الجبارديس الذي بعث إليها بالمحاربين الغاليين فغلب الأركاديون أحلاف ثيبة وعندها حاولت ثيبة أن تنال معونة ملك الفرس وأرسل القائد بيلوبيداس إلى آسيا وآب يحمل كتابا من الخاقان الأعظم الذي وعد أن يحارب اليونان الذين لا يقبلون بمحالفة ثيبة "٣٦٧"، أما سائر المدن، فلم تكن تخشى ملك الفرس وأبت أن تخضع له.

ولم تكن ثيبة من القوة لتخضع إلى سلطانها جميع بلاد اليونان فظهر إيبامينوداس على أحسن حال في بلاد المورة مع الجيش البيوسي وحالف المسينيين ثانية وحاول أن يداهم إسبارطة وإذ بلغ ذلك أجازيلا كر راجعا وراح إيبامينوداس يهجم على جيش العدو في أركاديا بالقرب من مدينة ماتينة وظفر في هذه المعركة باتخاذه الأسباب التي اتخذها في لوكترس، ولكن أصابه سهم فمات ليومه وفقد الثيبيون به قائدا يقودهم وانتهت أيام عز ثيبة، ولم يبق مما قام به القائد إيبامينوداس إلا مدينة مسيسينا التي أصبحت مملكة مستقلة وسقط سلطان إسبارطة من بلاد المورة؛ كما سقط من بلاد اليونان.

نتائج الحروب لم تؤد هذه الحروب إلى تأليف اليونانيين كافة أمة واحدة إذ لم يكن لمدينة من مدنهم لا إسبارطة، ولا أثينة من القوة ما تكره به سائر المدن على الطاعة لها والخضوع لسلطانها، وما كان منهم إلا أن ينهك بعضهن قوى بعض ويكافح بعضهن بعضا، وكان ذلك من حظ ملك الفرس الذي استفاد من هذا الانقسام، ولم تبلغ الحال بالمدن اليونانية إنها لم تتفق عليه، بل إنها كانت كل واحدة على حدتها تحالفه للانتقام من سائر أبناء يونان، وقد صرح الخاقان الأعظم (٣٨٧) في معاهدة انتالسيداس بأن جميع المدن اليونانية في آسيا هي ملك له، ولم تخالف إسبارطة قوله ذلك ولانقضت زعمه وكذلك كان شأن أثينة وثيبة بعد بضع سنين فقد، قال خطيب أثيني: "إن ملك الفرس هو

الذي يحكم بلاد اليونان، ولم يبق عليه إلا أن يقيم له عمالا في مدننا اليس بيده الحل والعقد في بلادنا، أما نحن فندعوه الخاقان الأعظم؛ كما لو كنا عبيده" وهكذا أضاع اليونان بتفاشلهم وتدابرهم ما كانوا غنموه في حزب مادي.

عظمة مكدونية

فيليب - الإسكندر - فتح آسيا

أنهكت الحروب المتصلة مدة قرن بين إسبارطة وأثينة قوى تينك المملكتين فتركتا قتال ملك الفرس إلا أن شعبا جديدا، وهم المكدونيون عاودوا قتاله، حتى نالوا منه، وكانوا على خشونتهم وقسوتهم أشبه بقدماء الأوروبيين شعبا مؤلفا من رعاة وجند، ولقد سكنوا شمال بلاد يونان في واديين عظيمين مطلين على البحر وقلما كانوا اليونانيون يحلونهم محل الاعتبار، بل ينظرون إليهم نظرا ثانويا؛ كما ينظرون للبرابرة وإذ كان المكدونيون يدعون أنهم من نسل هيراكليس سمح لهم اليونان بأن يركضوا خيولهم في سباق الألعاب الأولمبية وبذلك اعترف بهم ضمنا بأنهم من أبناء يونان.

فيليب- قلما كان هؤلاء الملوك النازلون في بلاد الداخلية بعيدين عن البحر يشتركون في حروب اليونان، وفي سنة ٣٦٠ تسنم أريكة العرش المكدوني شاب نشيط شجاع طموح ونعني به الملك فيليب فطمحت به نفسه إلى القيام بثلاثة أمور:

(١) أن ينشئ جيشا قويا.

(٢) أن ينشئ جميع المواني على شاطئ مكدونية.

(٣) أن يكره سائر اليونان على الانضواء تحت لوائه لقتال الفرس.

فصرف في هذا الشأن أربعا وعشرين سنة ونجح فيما قصد إليه واستسلم اليونان إليه، بل وأعانه كثير منهم واتخذ له أنصارا ببذل المال في جميع المدن يحسنون الظن فيه ويمتدحونه، قال: "ما من قلعة يتعذر الاستيلاء عليها إذا

استطاع المرء أن يدخل إليها بغلا مثقلا بالذهب" وهكذا استولى على جميع مدن شمالي اليونانية واحدة بعد أخرى.

ولقد كان الخصم اللدود لفيليب الخطيب ديموستين، وهو ابن صانع أسلحة تيتم في السابعة من عمره واختلس أوصياؤه جزءا من ماله، ولما بلغ أشده أقام عليهم قضية وأكرههم على أن يعيدوا إليه ما اختلسوه منه، وكان درس خطب إيزيه واستظهر تاريخ توسيديد، بيد أنه عندما خطب على المنبر العام قوبل كلامه بالقهقهة إذ كان صوته ضعيفا جدا ونفسه قصيرا فتوفر عدة سنين على ترويض صوته ويروى أنه كان ينقطع شهورا طويلة ونصف رأسه محلوق لئلا يحاول الخروج ويلقي خطبا، وفي فمه حصا، وهو على شاطئ البحر ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس، ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته لإرادته وإذ كان يحافظ كل المحافظة على إعداد جميع خطبه قبل إلقائها غدا أرقى خطيب وأعظم مفوه في بلاد اليونان، وكان الحزب الذي يرجع إليه أمر أثينة على ذاك العهد بزعامة فوسيون يطمح في السلم إذ لم يكن لأثينة جند كاف، ولا مال وافر لإيقاف ملك مكدونية عند حده فوسيون يقول سأشير عليكم بالحرب متى صرتم بحيث تستطيعون القيام بأعبائها، وكان ديموستين على العكس يحتقر فيليب ويراه كأنه من المتوحشين فتطوع في خدمة الحزب الذي يطلب محاربته واستخدم ما فيه من فصاحة لإخراج الأثينيين من سياسة المسالمة، ولم يدخر وسعا مدة خمس عشرة سنة في تحريضهم على ذلك.

وإنك لتجد موضوع كثير من خطب ديموستين الحملة على الملك فيليب، وكان يسميها الفيلبية، قال في خطابه الأول سنة ٣٥٢: متى تقومون أيها الأثينيون بواجباتكم؟ أتريدون أن تسرحوا وتمرحوا في الساحات وبعضكم يسأل بعضا بقوله ما وراءك من الأخبار؟ أما أنا فأقول لكم: ليس من جديد إلا أننا نشاهد مكدونيا يتغلب على أثينة ويستولي على أرض يونان؟ أقول لكم إنه من الواجب تسليح خمسين سفينة، وأن تعقدوا العزم أن تركبوها بالذات عند

مسيس الحاجة جنبوا مسمعي حديث جيش مؤلف من عشرة، أو عشرين ألفا من الأجانب، ولا حقيقة له إلا على الورق فإني لا أريد إلا جنودا من الوطن متطوعين في خدمته، وقال ديموستين في الفيليبيات الثالثة سنة ٣٤١ يذكر الأثينيين مما حازه فيليب من الظفر عليهم لغفلتهم وقلة حركتهم: "كان اليونان قديما عندما يسيئون استعمال سلطتهم ليظلموا غيرهم تقوم بلادهم كلها على ساق وقدم لمنع هذا الظلم ونحن اليوم نقاسي ما نقاسي من مكدوني حقير متوحش من أصل ملعون فيخرب المدن اليونانية ويحتفل بالألعاب البيتية[١٦]، أو يأمر خدمه بالاحتفال بها، وهذا ما ينظر إليه اليوناني بدون أن يأتي أمرا؛ كما ينظر إلى البرد يتساقط، وهو يضرع بأن لا يصيبه والسلطة تعظم بدون أن يخطو أحد خطوة لإيقافها وكل ينظر من عهد إليه في تمزيق شمل غيره؛ كما لو كان بعد ذلك ربحا في وقته بدلا من أن يفكر ويعمل لسلامة اليونان عندما يعرف الناس أن المصيبة ستنال البعدين"، ولما استولى فيليب على الآتية في مدخل بيوسيا (٣٣٩) أزمع الأثينيون بما نصح لهم به ديموستين أن يشهروا الحرب ويبعثوا بوفود إلى ثيبة وذهب ديموستين زعيما للوفد ولقي في ثيبة وفدا جاءه من قبل فيليب فتردد الثيبيون وأرادهم ديموستين على أن يتناسوا جميع أحقادهم القديمة، وأن لا يفكروا في غير سلامة الوطن اليوناني، وفي الدفاع عن الشرف والحرية فعزموا بمساعيه أن يعقدوا محالفة مع أثينة، وأن يظلوا على المقاومة والحرب.

وبعد سنة (٣٣٨) نشبت الحرب في شيروتيه من أعمال بيوسيا، وكان عمر ديموستين إذ ذاك ثمانيا وأربعين سنة فخدم في الجيش جنديا بسيطا وإذ كان جيش الأثينيين والثيبيين قد دعي إلى حمل السلاح بسرعة لم يعادل جند فيليب المدربين، ولذلك كانت الهزيمة من حظ الجيش الأول.

---

(١٦) هذه الألعاب كانت تقام كل أربع سنين كالألعاب الأولمبية في مدينة دلفيس إكراما لأبولون البيتي

الاستيلاء المكدوني- وإذ ظفر فيليب أقام حامية في ثيبة وصالح أثينة، ثم دخل إلى أرض المورة فاستقبله أهلها كأنه المحسن إلى الشعوب التي طالما اضطهدتها إسبارطة، ومن ذاك العهد لم يصادف أقل مقاومة فجاء إلى كورنت (٣٣٧) وجمع فيها مندوبي جميع المدن اليونانية (ما خلا الإسبارطيين، فإنهم لم يبعثوا بمندوبين قط) وعرض عليهم مشروعه، وهو أن يتولى زعامة جيش يوناني لغزو فارس فاستحسن المندوبون رأيه وعقدت محالفة عامة بين المدن اليونانية كافة، وذلك على أن تحكم كل مدينة نفسها بنفسها وتعيش بسلام مع غيرها وأنشئ مجلس لتلك الوحدة لمنع الحروب والفتن الأهلية والقتل والمصادرة، وهذه الوحدة كان من شأنها الاتحاد مع ملك مكدونيا والإقرار له بالزعامة على جميع الجنود والسفن اليونانية وحظر على كل يوناني أن يحارب فيليب، وإذا فعل تضرب عنقه بدون محاكمة.

الإسكندر- خنق فيليب ملك مكدونية سنة ٣٣٤، وكان ابنه الإسكندر إذ ذاك ابن عشرين سنة، وكان مثل جميع اليونان من أبناء البيوت الشريفة ماهرا في الألعاب الرياضية شديد القوى في الكفاح يحسن ركوب الصافنات الجياد (وهو الذي استطاع وحده أن يكبح جماح حصانه بوسيفال في الحرب)، وكان زيادة على ذلك عارفا بالسياسة حسن البيان يعلم التاريخ الطبيعي، وكان أستاذه من سن الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة الفيلسوف أرسطو أعظم عالم في اليونان، فكان يتلو الإلياذة بشوق ويدعوها دليل فن الحرب ويريد أن يتشبه بالأبطال الذين ورد ذكرهم فيها فكأنه خلق ليكون فاتحا؛ لأنه مغرم بالقتال مولع بحب الشهرة، وكان أبوه يقول له "إن مكدونية ضيقة النطاق فلا تسعك".

الجحافل المكدونية- ترك فيليب لابنه الإسكندر أداة من أدوات الفتح ونعني بها الجيش المكدوني، وهو أحسن جيش عهد في بلاد اليونان يؤلف جيش المشاة وجيش الفرسان، فكان الجحفل المكدوني مؤلفا من ١٦ ألفا من الرجال مصفوفين ألوفا ألوفا ستة عشر صفا ويحمل كل واحد منهم رمحا طوله ستة أمتار، وكان

المكدونيون في ساحة الوغى بدلا من أن يسيروا إلى العدو كلهم من جهة واحدة يقفون لا حراك بهم ويضربون برماحهم العدو من كل صوب، وكان جنود المؤخرة يرفعون رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الأولى بحيث كان ذاك الجيش يشبه حيوانا عظيما، وقد انتصب وعليه الحديد والعدو يداهمه فيتحطم وكنت ترى الإسكندر بينا كان الجيش في ساحة الحرب يوقع بالعدو، وهو في مقدمة فرسانه، وكانت هذه الكتيبة من الفرسان مؤلفة من خيار الفتيان الأشراف.

فتح آسيا- سافر الإسكندر في ربيع سنة ٣٣٤ في ثلاثين ألف راجل (معظمهم من المكدونيين)، وفي ٤٥٠٠ فارس لا يحمل معه غير ٧٠ تالونا من المال (أقل من أربعمائة ألف فرنك) وذخيرة تكفي هذا الجيش الضخم أربعين يوما، ولم يكن عليه أن يقاتل ذاك الغوغاء من الشعوب التي لا سلاح لها، وقد سخرها كخيسرو الفارسي لأمره فقط، بل كان أمامه خمسون ألفا من اليونان المجندين في خدمة الخاقان الأعظم تحت قيادة قائد حاذق يدعى ممنون الرودسي، فقد كان في مكنة هؤلاء اليونان أن يصدوا المكدونيين عن العبور، ولكن صادف أن مات ممنون وتشتت جيشه شذر مذر فتخلص الإسكندر من خصمه الوحيد العنيد وفتح المملكة الفارسية في سنتين، وذلك بعد أن ظفر في ثلاث مواقع فبدد في آسيا الصغرى الجيوش الفارسية الرابطة وراء نهر غرانيك (في مايو ٣٣٣) وهزم الإسكندر داريوس ملك فارس وجيشه الذي يقال: إنه كان مؤلفا من ستين ألفا في مضايق سيليسيا في أيسوس (نوفمبر ٣٣٢) وشتت في إربل بالقرب من دجلة جيشا أكثر عددا (٣٣١).

فكانت هذه الغلبات مثالا من الحروب المادية فالجيش الفارسي لا سلاح له، ولا يحسن الرماية، وهو مشوش بنفسه في أخلاط من الجند والأجراء والأثقال، وكانت الجنود المختارة وحدها هي التي تقاتل والباقي يشتت ويقتل، ولم يكن الفتح في غضون الحرب إلا نزهة يكتب فيها الظفر، وهذا الفاتح لا يجد أمامه

مقاوما[١٧] وماذا يهم شعوب المملكة أن يخضعوا لداريوس، أو للإسكندر وكل غلبة يحرزها الإسكندر كان يفتح بها مملكة برأسها فموقعة الغرانيك استولى فيها على آسيا الصغرى ومعركة إيسوس افتتح فيها سورية ومصر ومعركة إربل بقية البلاد.

ولما صار الإسكندر الحاكم المتحكم في المملكة الفارسية اعتبر نفسه وارثا لخاقان الأعظم صاحب فارس فلبس اللباس الفارسي واستعمل عادات البلاط الفارسي في الاحتفالات الرسمية وأكره قواده أن يركعوا أمامه على السنة الفارسية وتزوج بامرأة من بنات الفرس وزوج ثمانين من ضباطه من ثمانين فتاة من بنات أشرافهم وأراد أن يوسع مملكته إلى أقصى الحدود؛ كما فعل الملوك القدماء وتقدم فاتحا نحو الهند، وهو يقاتل القبائل المحاربة، ولما عاد في جيشه إلى بابل (٣٢٤) هلك بالحمى في بضعة أيام في الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢١).

مقصد الإسكندر- من المتعذر جدا أن نعرف ما كان يقصد الإسكندر هل كان يفتح حبا بالفتح، أو أنه كان له مقصد آخر وهل كان يريد أن يجعل جميع تلك الشعوب شعبا واحدا ومملكة واحدة هل اتخذ المناسي الفارسية ليكون مثالا لغيره، أو أنه قلد الخاقان الأعظم صلفا وإعجابا إننا لم نقف على نياته إلا أن أعماله كانت لها نتائج عظيمة.

ولقد أسس سبعين مدينة وعدة مدائن في مصر كالإسكندرية، وفي بلاد التتر، حتى بلاد الهند ووزع على رعاياه الكنوز التي وجدها في خزائن الخاقان الأعظم، وكانت مطروحة فيها لا ينتفع بها وأخذ معه علماء يونانيين لدرس نباتات آسيا وحيواناتها وجغرافيتها وهيأ الملكات في الشعوب الآسياوية إلى تعلم لغة اليونان والتخلق بأخلاقهم، ولذلك أطلق على الإسكندر لقب الكبير.

---

(١٧) ما عدا مدينة صور الفينيقية خصيمة اليونان لأسباب تجارية

تأسيس الممالك اليونانية

الإسكندرية - المتحف - ممالك آسيا - التمدن اليوناني في الشرق

خراب مملكة الإسكندرية- جمع الإسكندر الأكبر تحت علم واحد جميع بلاد العالم القديم من بحر الأدرياتيك إلى نهر الأندوس، ومن مصر إلى القافقاس، ولم يدم هذا الملك العظيم إلا بدوامه فلما هلك اختلف قواده فيمن يولى الملك بعده وحارب بعضهم بعضا مدة عشرين سنة واتخذوا بادئ بدء حجة لحروبهم بأنهم يتقاتلون لمعاضدة أحد أسرة الإسكندر كأخيه وابنه وأمه وأخوته، أو إحدى زوجاته، ثم تقاتلوا علنا بأسمائهم وتوطيدا لدعائم الملك لسلطانهم، فكان لكل واحد منهم جزء من الجيش المكدوني، أو جنود يونان مأجورون، فكان اليونانيون يتقاتلون فيمن يستأثر بآسيا ويحكم عليها والناس ينظرون إليهم غير محتفلين بما يأتون؛ كما لو كانوا اليونان يقاتلون الفرس أعداءهم.

ولما وضعت الحرب أوزارها لم يبق إلا ثلاثة قواد، وقد هيأ له كل منهم مملكة واسعة مما خلفها الإسكندر فحكم بطليموس مصر وسلوقس سورية وليزيماك مكدونية، وكانت انفصلت بعض الممالك الصغرى، أو أخذت بالانفصال عنها مثل أبير في أوروبا ومثل بون وبيتيني وغالاسيا وكابادوس وبرغام في آسيا ومثل مقاطعتي باكتريان وبارسيا من بلاد الفرس وبذلك تم تقسيم مملكة الإسكندر.

التمدن اليوناني في الشرق- كان الملك من أبناء اليونان في هذه الممالك الجديدة، وقد اعتاد أن يتكلم باليونانية ويتعبد بالأرباب اليونان ويعيش عيش اليونان ويحافظ على لغته ودينه وعاداته رعاياه من الآسايويين، أي: من البرابرة، وهو يحاول أن يجعل له حاشية من جنسه ويجند جنوده من أبناء يونان بالأجرة ويتخذ موظفين يونان لإدارة البلاد ويجلب إلى عاصمته شعراء وعلماء وأرباب فنون من اليونانيين.

وكان في البلاد على عهد ملوك الفرس كثير من اليونان والطوارئ والتجار، ولا سيما من الأجناد فأكثر ملوك اليونان من جلبهم وانتشروا في جميع أطراف آسيا وكثر سوادهم، حتى انتهت الحال بالوطنيين أن يلبسوا اللباس اليوناني

وينتحلوا الديانة اليونانية والأخلاق اليونانية، بل واللغة اليونانية، ولم يعد الشرق آسياويا، بل أصبح يونانيا، حتى أن الرومانيين لم يجدوا في آسيا في القرن الأول إلا شعوبا يشبهون اليونان ويتكلمون باللغة اليونانية بأسرهم[18].

الإسكندرية- لقب ملوك اليونان في مصر، وهم خلفاء بطليموس بلقب الفراعنة على نحو ما كان يلقب ملوكها الأقدمون ولبسوا التاج ودعوا الناس إلى عبادتهم باسم أبناء الشمس ولكنهم كانوا محاطين باليونانيين وأقاموا عاصمتهم على شاطئ البحر في مدينة يونانية، وهي الإسكندرية تلك المدينة الجديدة التي أنشئت بأمر الإسكندر.

بنيت الإسكندرية على سطح مستو فكانت ذات نظام أكثر من غيرها من المدن اليونانية، وكانت الشوارع تنقسم إلى زاوية قائمة ويشقها من وسطها الشارع الأعظم وعرضه ثلاثون مترا وطوله ستة كيلو مترات، وعلى جانبيها أبنية عظيمة مثل بناء الاستاد، حيث كانت تقام الألعاب العامة والجمناز والمتحف والأرسينوم.

وكان المرفأ مؤلفا من سد طوله ألف وثلثمائة متر يصل بين اليابسة وجزيرة فاروس، وفي طرف هذه الجزيرة أقيم برج من الرخام جعل في قمته مكان ينبعث منه ضوء على الدوام لتسير به السفن التي تريد دخول المرفأ، ومن هناك جاء اسم المنارة فقامت الإسكندرية مقام المدن الفينيقية وغدت الميناء العظمى للتجارة في العالم بأسره.

المتحف- كان المتحف بناءا عظيما من الرخام متصلا بقصر الملك، وقد أراد ملوك مصر أن يجعلوه معهدا علميا عظيما وفيه مكتبة عظيمة[19]، وكان لرئيس القوام عليها أن يبتاع جميع ما يتسنى له الظفر به من الكتب فكل كتاب

---

(١٨) كتبت الأناجيل وأعمال الرسل في آسيا الصغرى باللغة اليونانية

(١٩) حرقت مكتبة المتحف في خلال حصار قيصر لمدينة الإسكندرية ولكن كان لها فرع جعل في السرابيوم وفيه على ما يقال ثلثمائة الف مجلد، وقيل: إن هذه المكتبة الثانية حرقها المسلمون في القرن السابع ولكن الظاهر أنها فقدت من قبل (قاله المؤلف)

يدخل مصر يحمل إلى المكتبة والنساخ ينقلون المخطوطات ويرجعون نسخة لصاحبها مع التعويض عليه واتصلت الحال بأن جمع على هذا النحو عدد من المجلدات لم يسمع بمثله (وهو أربعمائة ألف مجلد؛ كما قيل)، وكانت الكتب المخطوطة لكبار المؤلفين إلى ذاك العهد مبعثرة مشتتة وعرضة لخطر الضياع فأصبحت يعرف لها مقر يرجع إليه.

وكان في المتحف أيضا حديقة للنبات والحيوان ومرصد فلكي وقاعة للتشريح أقيمت على الرغم من أوهام المصريين؛ كما أقيم معمل كيماوي (كان الملك بطليموس فيلادلف يخشى كثيرا من الموت فقضى بضع سنين في البحث عن إكسير لإطالة الحياة)، وكان في المتحف العسكري مساكن للعلماء والرياضيين والفلكيين والأطباء والنحويين ويقدم لهم غذاؤهم على نفقة الحكومة وكثيرا ما كان الملك يتناول الطعام معهم دليلا على احترامه لهم، وكانوا يقضون أوقاتهم في المحاورة والمطالعة ويجيء الناس من جميع بلاد يونان ليستمعوا لما يلقون، وكان الشبان يبعث بهم آباؤهم إلى الإسكندرية ليتعلموا ويقال: إنه كان فيها نحو ١٤ ألفا من الطلاب.

ومن ثم كان المتحف مكتبة ومجمع علميا ومدرسة في آن واحد فهو أشبه بمدرسة جامعة، وهذا الوضع الذي هو عام بيننا مألوف كان على ذاك العهد من الأوضاع الجديدة التي لم يسبق لها نظير، ولقد أصبحت الإسكندرية بفضل متحفها مقصد جميع المشارقة من يونان ومصريين وإسرائيليين وسوريين يحمل إليها كل منهم دينه وفلسفته وعلمه ويحتفظ بعضهم ببعض فغدت الإسكندرية إذ ذاك وظلت قرونا كثيرة عاصمة العلم والفلسفة في العالم.

برغامة- كانت برغامة في آسيا الوسطى من الممالك الصغرى، ولم تعد لها سطوة، بيد أن عاصمتها برغامة كانت كالإسكندرية مدينة أرباب الصنائع والأدب وأنشأ نقاشو برغامة في القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة مشهورة[٢٠].

---

(٢٠) اتصل بنا بعض التماثيل التي استصنعها الملك أتال ذكرى لانتصاره على الغاليين في آسيا المعروفين بالغلاسيين

وقد ملكت برغامة؛ كما ملكت الإسكندرية مكتبة كبرى جمع إليها الملك أتال الكتب المخطوطة لقدماء المؤلفين، وفي برغامة اخترعت الكتابة على الجلود للاستعاضة عن ورق البردي، وكان هذا الورق الجديد ورق برغامة هو الرق الذي حفظت به المخطوطات القديمة.

الحروب الأخيرة في اليونان

العصابات - الفتح

الحروب الأهلية- كانت بأيدي بضع أسرات غنية من اليونانيين في جميع المدن اليونانية على التقريب جميع الأعمال والمعامل الصناعية والسفن التجارية وعامة مصادر الربح وموارد العيش، أما سائر الأسرات، أي: السواد الأعظم[٢١]، فلم يكن لهم أرض، ولا مال وماذا كان الوطني الفقير يعمله ليكسب رزقه لم يكن له إلا أن يؤجر نفسه زراعا، أو عاملا، أو ملاحا، بيد أن عبيد أرباب الثروة في مصانعهم ومعاملهم وسفنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال، ولا يكلفون للإنفاق عليهم غير شيء زهيد بالنسبة للنفقات التي كان على السادة أن ينفقوها إذا استخدموا الأحرار في أعمالهم؛ لأنهم كانوا يطعمون عبيدهم طعاما غليظا، ولا يؤدون إليهم أجورا، ثم إنه من الصعب على الفقير أن يعمل لحسابه لندرة الدراهم، ولم تكن الفائدة أقل من عشرة في المئة وهيهات أن يقرضه إنسان ما يعوزه.

على أن العادة لم تكن تسمح للوطني أن يتعاطى الصنائع؛ لأن الفلاسفة كانوا يقولون بأنها تفسد الجسم وتضعف النفس، ولا تترك في وقت صاحبها

---

(٢١) لم يكن في جميع المدن اليونانية تقريبا طبقة وسطى تشبه الطبقة الوسطى في أوروبا وبذلك كانت تعد أثينة بما فيها من ١٣ ألفا من أرباب الأملاك من الشواذ النادرة، وكانت من المدن التي قلت فيها الثورات

متسعا للنظر في شؤون العامة ولذلك، قال أرسطو: إن المدينة الحسنة النظام لا يجب عليها أن تعد الصانع فيها وطنيا فكانت من الوطنيين في يونان طبقة شريفة ترى؛ كما كان يرى الأشراف في فرنسا قديما أن لها الحق أن تحكم وتحارب، وفي ذلك شرفها، أما تعاطيها الأعمال بأيديها فيعد تنازلا واتضاعا، ومن أجل هذا حالف البؤس معظم الوطنيين بما كانوا عرضة له من منافسة العبيد في أعمال الحياة، وما وقر في نفوسهم من شروط الشرف والنباهة فحكم الفقراء المدن، ولم تكن أسباب عيشهم متوفرة وخطر لهم أن يسلبوا الأغنياء فألف هؤلاء شركات منهم لمقاومة أولئك وعند ذلك انقسمت كل مملكة يونانية إلى قسمين الأغنياء ويدعون "الأقلية" والفقراء ويدعون "الأكثرية"، أو الشعب وبدأ الأغنياء والفقراء يتباغضون ويتقاتلون فإذا صار الحكم للفقراء يطردون الأغنياء ويصادرون أموالهم، وربما اتخذوا واسطتين بالغتين في التطرف، وهما إلغاء الديون وتقسيم الأراضي من جديد فإذا عادت السلطة للأغنياء يطردون الفقراء، وكانوا يتعاهدون بينهم في كثير من المدن قائلين "أقسم بأني أظل أبدا معاديا للشعب وأؤذيه ما استطعت"، ولم يكن ثمت من سبيل إلى التوفيق بين الفريقين فلا الأغنياء يستطيعون أن يستسلموا للتخلي عن ثروتهم، ولا الفقراء يرضون بأن يموتوا جوعا، قال أرسطو: "إن الثورات تنشأ من سبب تقسيم الثروات" ويقول بوليب "إن كل حرب أهلية تنشب فهي لنقل الثروات من يد إلى أخرى".

ومن ثم كان الفريقان يقتتلان أشد قتال على نحو ما يحدث أبدا بين الجيران فتغلب الفقراء بادئ بدء في ميلت وأكرهوا الأغنياء على الهرب من المدينة، ثم أسفوا؛ لأنهم لم يذبحوهم فأخذوا أولادهم وجموعهم في الأنابير تحت أرجل البقر ودخل الأغنياء المدينة فأصبحوا أصحابها الحاكمين فيها وأخذوا هم أيضا أبناء الفقراء وزفتوهم (دهنوهم بالزفت) وأحرقوهم أحياء.

الحكم الجمهوري والحكم الإفرادي- كان لكل من الأغنياء والفقراء شكل

خاص في الأحكام يجرونها في المدينة عندما يهوى احد الفريقين فكانت حكومة الأغنياء من نوع الحكم الإفرادي (أوليكارشي) تعهد بالأحكام إلى بعض أفرادها، أما حكم الفقراء، فكان حكمهم ديموقراطيا يكلون حكمهم إلى مجلس الأمة وكل واحد من الفريقين يتفق مع الفريق المماثل له في المدن الأخرى وبذلك تألفت عصابتان تقاسمتا بينهما جميع المدن اليونانية عصابة الأغنياء، أو الحكم الإفرادي وعصابة الفقراء، أو الحكم الجمهوري وبدأت هذه الطريقة في الحكم خلال حرب المورة فكانت أثينة تعضد الحزب الديمقراطي وإسبارطة تمالئ الحكم الإفرادي فاتحدت المدن التي كان فيها سلطة للفقراء مع أثينة؛ كما اتحدت المدن التي تسلط عليها الأغنياء مع إسبارطة.

ولقد دامت الحروب الأهلية بين الأغنياء والفقراء نحو ثلاثة قرون (من ٤٣٠ إلى ١٥٠) ذبح في خلالها كثير من أبناء البلاد وطرد منهم عدد أكثر من ذلك فأخذوا يهيمون في أطراف الأرض على وجوههم لا مورد له يعيشون منه، ولا يعرفون إلا صناعة واحدة، وهي الجندية فينخرطون متطوعين في الجيش الإسبارطي والأثيني، وفي جيش الخاقان الأعظم والجيش الفارسي بل، وفي كل جيش يدفع إليهم أجورهم، فكان من أبناء يونان خمسون ألفا في خدمة دارا عندما قاتل الإسكندر، وهم لا يكادون يعودون إلى بلادهم متى خرجوا منها.

العصابات- ضعفت الشعوب التي حكمت على بلاد اليونان وإسبارطة وأثينة ونيبة، ولم يبقى في القرن الثالث من أهل الشدة والبأس غير سكان غربي البلاد فالأينوليون يسكنون الجبال في شمالي خليج كورنت والآشيون النازلون في شاطئ المورة في جنوبي هذا الخليج، وقد نظموا أحوالهم عصابات لا مدنا فاحتفظت كل مدينة بحكومتها، وكان لها كلها مجلس للعصابة يقرر فيه الحرب والعهود ويفرض الجند الذي تقدمه وينتخب القائد الي يقضى عليه أن يقود جيش العصابة.

فانقسمت المدن اليونانية بين هاتين العصابتين المتعادتين، ومن العادة أن

تعضد العصابة الأيتولية الحزب الديمقراطي والعصابة الآشية الحزب الأوليكارشي، وقد رأس العصابة الآشية ضابطان شهيران أحدهما أرتوس في القرن الثالث، وهو الذي طاف بلاد اليونان سبعا وعشرين سنة (٢٥١ - ٢٢٤) طاردا الظالمين من جميع المدن آخذا، بيد الأغنياء معيدا إليهم أموالهم ومقلدهم حكم البلاد والقائد الثاني فيلونيان قام في القرن الثاني وقاتل الظالمين في إسبارطة فقتله المسينيون.

أحلاف الرومانيين- لم يكن أحد من تينك العصابتين من القوة بحيث يجمع جميع المدن اليونانية وعندئذ ظهر الرومان فحاربهم من ملوك اليونان فيليب ملك مكدونية (١٩٧)، ثم ملك سورية أنطيوخس (١٩٣ - ١٦٩) فنكست أعلامهما كليهما ودمرت رومية جيوشهما واستولت على أساطيلهما وقاتلت "برسي" ملك مكدونية الجديد وأسرته وخربت مملكته (١٦٧).

ولم يحاول اليونان قط أن يجتمعوا للدفاع عن أنفسهم وظل فقراؤهم وأغنياؤهم يقتتلون وكل حزب يمقت الحزب المعادي له أكثر من بغضه الغريب وتحالف الحزب الديمقراطي مع ملك مكدونية ودعا الحزب الأوليكارشي للرومانيين وبينا النيبيون من الديمقراطيين يقاتلون في جيش فيليب كان مواطنوهم من الأوليكارشيين يفتحون أبواب المدينة للقائد الروماني، وقد حكم بالإعدام في رودس على كل من قاموا، أو تكلموا بما يخالف رضى رومية كتب كاليكرات أحد أشياع الرومانيين من الآشيين قائمة بألف وطني اتهمهم بأنهم كانوا يميلون للبرسي فأرسلوا إلى رومية وأمسكوا فيها عشرين سنة بدون أن يحاكموا.

الفتح- لم يظهر الرومانيون أولا في مظهر الأعداء، وقد ذهب القنصل فلامانيوس سنة ١٩٧ بعد أن غلب ملك مكدونية إلى برزخ كورنت وأعلن أمام اليونانيين المحتشدين للألعاب البرزخية بأن جميع الشعوب اليونانية حرة فطرب الجمهور لقوله واقتربوا منه ليشكروه يريدون أن يسلموا عليه، وهو محررهم، وأن

يروا صورته ويلمسوا يده ويلقوا عليه أكاليل النصر وباقات الزهور فازدحم الناس عليه، حتى كاد يختنق.

ولم يلبث الرومانيون أن أصبحوا سادة فحدتهم أنفسهم بأن يقودوا البلاد فأطاعهم الأغنياء عن رضى؛ لأن رومية كانت لهم واسطة للخلاص من حرب الفقراء ودامت هذه الحال أربعين سنة، ولما شغلت رومية بقرطاجنة سنة ١٤٧ عادت للحزب الديمقراطي حياته في بلاد اليونان فأعلن الحرب على الرومانيين فذعر لذلك فريق من اليونانيين وتقدم كثيرون إلى الجند الروماني ووشوا إليهم بمواطنهم، بل وشوا بأنفسهم وبعضهم فروا إلى أقاصي المدن وآخرون ألقوا بأنفسهم في الآبار، أو الهوات وصادر زعماء المقاومين أموال الأغنياء وألغوا الديون وأعطوا سلاحا للعبيد، وكان الجهاد شديدا وإذ غلب الآشيون للمرة الأولى عادوا فحشدوا جيشا وساروا إلى القتال مستصحبين نساءهم وأولادهم وحبس القائد ديوس نفسه وجميع عياله في بيته وألقى فيه النار.

وكانت كورنت مركز المقاومة فدخلها الرومانيون وذبحوا الرجال وباعوا النساء والأولاد (١٤٦) ونهبت المدينة وحرقت، وكانت مملوءة بالنفائس وكنت ترى صور كبار المصورين مطروحة في الغبار والجند الروماني مستلقيا فوقها يلعب بالنرد أهـ.

الرومان - وصف إيطاليا

شعوبها القديمة- سكنت إيطاليا عدة أجناس من الأمم لم يتحدوا في عاداتهم ولغاتهم، فكان يعتبر السهل العظيم الشمالي بين جبال الألب والأبنين جزءا من إيطاليا، وهناك نزل شعوب من الغاليين أتوها من الشمال، فكان الأتروسكيون ينزلون في البلاد الواقعة بين جبال الأبنين والبحر (هو إقليم توسكانيا) إلى نهر التيبر، وفي جنوبه ينزل اللاتين، ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الأبنين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب، ولم تدع كل هذه

الشعوب باسم واحد، ولم تؤلف أمة واحدة، بل كانت تنقسم إلى أومبريين وصابتيين وفولسكيين وإيكيين وهريكيين ومارسيين وسامنتيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ويعبدون أربابا واحدة ولهم عادات واحدة يتكلمون كالفرس والهنود واليونان بلغة آرية ولبعدهم وراء جبالهم عن الاختلاط بغيرهم احتفظوا بعاداتهم القديمة وعاشوا عصابات مع قطعانهم متشتتين في الخلاء، ولم يكن لهم مدن، ولا حواضر، بل كانوا يلجئون زمان الحرب إلى حصون أقيمت في الجبال، وقد عرفوا بالشجاعة والقتال وبسلامة الأخلاق ومتانتها، وكان منهم بعد حين أعظم قوة للجيش الروماني، وفي أمثالهم "من يستطيع أن يتغلب على المارسيين، أو أن يغلب بدونهم".

جاء في إحدى أساطيرهم أن الصابتيين نزل بهم خطب فادح فاعتقدوا أن الأرباب ساخطون عليهم فعقدوا العزم على أن يسكنوا غضبها، وأن يقدموا ضحية إلى رب الحرب والموت كل من يولدون من الأولاد في إحدى فصول الربيع ودعيت الضحية "الربيع المنذور" فأصبح جميع الأطفال الذين وضعتهم أمهاتهم تلك السنة ملكا للرب، حتى إذا بلغوا سن الرجال عادوا للبلاد وبعدوا عنها إلى القاصية وتألفوا عصابات فاختارت كل عصابة أحد حيوانات إيطاليا المقدسة دليلا من مثل الصرد والذئب والثور، وهي تتبعه كأنها تتبع مرسلا من الرب وحيثما وقف الحيوان تنزل العصابة وتتخذه موطنا لها، وقيل: إن عدة شعوب من إيطاليا كان أصلها من تلك الأسرات من النازحين ومازالت محافظة على اسم الحيوان الذي كان أجدادها اتبعوا آثاره في القديم، وذلك مثل الهرينيين (شعب الذئب) والبيسانتينيين (شعب الصرد) والسامنتيين، وكانت عاصمتهم تسمى بوفيانوم، أي: مدينة البقرة.

السامنتيون- كان السامنتيون من أقدر تلك الشعوب، وقد سكنوا في إقليم الأبروز، وهو معصي حقيقي فينزلون إلى السهول المخصبة في نابلي وبويل وينهبون المدن الأتروسكية والمدن اليونانية جاهدوا قرنين في الرومانيين فكانوا

كل مرة يردون على أعقابهم خاسرين إذ لم يكن لهم موطن، ولا نظام، ثم يعاودون القتال، وكان جهادهم الأخير شديدا، ولقد أتى شيخ إلى زعماء الجيش بكتاب مقدس كتب على نسيج من الكتان فأقاموا داخل المعسكر سورا من نسيج الكتان وجعلوا في وسطه مذبحا والجند واقفين من حوله شاهرين سيوفهم فيدخل أشجع المحاربين إلى السور وتؤخذ عليهم العهود أن لا يهربوا من الزحف أمام العدو، وأن يقتلوا المنهزمين فأخذ من أقسموا بالأيمانات المغلظة، وكانوا ستة عشر ألفا ألبسة من الكتان فتألفت منهم (كتيبة الكتان) وشرعت في القتال فقتلت عن آخرها.

يونان إيطاليا- سكن إيطاليا الجنوبية طوارئ من اليونانيين؛ كما سكن بعضهم مدينة سيباريس وكروتون وتارانت وقوي فيها أمرهم وكثر سوادهم، بيد أن اليونانيين لم يلقوا بأنفسهم قط إلى الوقوع في التهلكة إذا لم يقصدوا رومية خوفا من الأتروسكيين، وما عدا مدينة كومس فإن المستعمرين من أبناء يونان كانت لهم إلى القرن الثالث صلات قليلة مع الرومانيين.

الأتروسكيون- أطلق اسم الأتروسكيين على إقليم توسكانيا فسمي تروسكي، وهو إقليم حار رطب مخصب للغاية وظلت حال الأتروسكيين إلى الآن طلسما من الطلاسم لم تفكه فهم لم يكونوا يشبهون جيرانهم، ولا يعلم من أين أتوا، بل إننا لا نعرف اللغة التي يتكلمون بها إلا أن أبجديتهم تشبه أبجدية اليونان، ولكن الآثار التي عرفت عن هذا الشعب قصيرة لا نتمكن معها من استثبات لغتهم.

كان الأتروسكيون يحسنون استخدام أرضهم في الزراعة على أنهم عرفوا البحارة والتجارة أيضا، وكانوا يذهبون كالفينقيين إلى البلاد القاصية للبحث عن عاج الهند وسبر البلطيق وعن القصدير والأرجوان الفينيقي والحلي المصرية المكتوب عليها حروف هيروغليفية وعن بيض النعام وإنك لتجد من جميع هذه الأشياء في قبورهم، وكانت سفنهم تتقدم نحو الجنوب، حتى جزيرة صقلية، وقد كان اليونان يكرهونهم ويدعونهم (البيرينيين المتوحشين)، أو القرصان

الأتروسكي وكل بحار في تلك العصور ساعدته الأحوال يأتي منه قرصان بحر، فكان من مصلحة الأتروسكيين خاصة أن يردوا البحارة اليونان ويصدوهم ليخلوا لهم الجو في الشاطئ الغربي من إيطاليا ويستأثروا بتجارته، ولم يبق من آثارهم إلا حوائط حصينة وقبورا وعند ما يفتح قبر أحد الأتروسكيين تشاهد وراء باب ذي عمد غرفا فيها سرر، وقد امتدت عليها جثث وحواليها حلي من الذهب والعاج والعنبر وأقمشة الأرجوان وفرش وأوان كبيرة منقوشة، أما الجدران فيرسمون عليها صور حروب وألعابا وولائم ومشاهد غريبة.

وأن ما استخرج من القبور بالألوف من الأواني الأتروسكية فازدانت بها متاحفنا وصنع على مثال الأواني اليونانية هو من صنع الأتروسكيين أنفسهم وفيها مشاهد ميثولوجية يونانية ولاسيما صور الحروب التي جرت حول طروادة والأشخاص ناتئة حمراء على صفيح أسود، وقد أسس الأتروسكيون في طوسكانيا اثنتي عشرة مدينة، ولكل منها ملكها وحكومتها، وكان لهم من الجانبين مستعمرات فلهم اثنتا عشرة مستعمرة في إقليم كامبانيا في جوار نابولي واثنتا عشرة في سهل يو.

ديانتهم- اعتقد الأتروسكيون بأرباب جبارين، وربما كانوا أشرارا وأرقى أولئك الأرباب الأرباب المستورون المجهول أمرهم، ثم يجيء بعدهم الأرباب الذين يرسلون الصاعقة وعددهم اثنا عشر ربا يؤلفون مجلسا لهم ويعتقدون أنه يقيم تحت الأرض في مدافن الأموات أرباب مشائيم وكثيرا ما كانوا يمثلون صورهم على أوان من صنع أيديهم فيمثلون ملك الجحيم المدعو مانتوس في صورة جبار مجنح جالس وتاج على رأسه ومشعل بيده؛ كما يمثلون شياطين آخرين مسلحين بسيف، أو مطرقة والحيات يقبضون عليها بأيديهم، وهم يتلقون أرواح الموتى وأهمهم الشيطان شارون المعروف عند اليونان بهذا الاسم أيضا، وقد تخيلوه على صورة شيخ ذي هيئة قبيحة يحمل مطرقة ثقيلة ليضرب بها ضحاياه ويعتقدون أن أرواح الموتى وتسمى "المان" تخرج ثلاثة أيام في السنة من مقرها في

عالم الظلمات وتطوف الأرض تروع الأحياء وتؤذيهم فيقدم لهم الأتروسكيون ضحايا بشرية تسكينا لغضبهم؛ لأنهم يحبون الدم، وكانت معارك المصارعين المشهورة التي اصطلح عليها الرومان ضحايا دموية إكراما للميت في أصل نشأتها، وكان للعرافين الأتروسكيين الذين دعوا بالهاروسيسيين، أو أهل الفال قواعد يجرون عليها للتنبوء عن المستقبل فيرصدون أحشاء الضحايا؛ كما يرصدون الصاعقة وطيران الطير فيقف العراف ويدير وجهه نحو الشمال ماسكا بيده عصا معقوفة ويخط خطا يقطع به السماء شطرين فشطر الشرق، وهو على اليمين يكون فأل خير وشطر الشمال يكون فأل شر[٢٢]، ثم يقطع الشطر الأول على قطع الصليب ويؤلف خطوطا متوازية يكون منها في السماء شكل مربع يدعونه المعبد فيرمي العراف بصره إلى الطيور التي تمر في ذاك المربع فبعضها كالنسر علامة خير وأخرى كالبومة علامة شؤم.

ولقد تنبأ الأتروسكيون عن مستقبلهم أنفسهم فهم الشعب الوحيد من بين الشعوب القديمة الذي لم يعتقد بأنه خالد، وكانوا يقولون أن بلادهم يدوم أمرها عشرة قرون، وهذه القرون لم يكن كل واحد منها مؤلف من مئة سنة، ولا تعين مدة القرن إلا بعد أن يجري له، قال: ففي سنة ٤٤، وهي سنة وفاة قيصر ظهر في السماء نجم مذنب فقال أحد العرافين من الأتروسكيين في رومية في جمع من الأمة أن هذا النجم يشير إلة نهاية القرن التاسع وابتداء القرن العاشر، وهو آخر قرن يستقيم فيه أمر الأتروسكيين.

---

(٢٢) هذا أشبه بالسانح والبارح عند العرب ولعلها أخذته عن الرومان تقول العرب من لي بالسانح بعد البارح، أي: بالمبارك بعد الشؤم قال أبو عبيدة سأل يونس رؤية وأنا شاهد عن السانح والبارح فقال السانح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره وقال أبو عمرو الشيباني ما جاء عن يمينك إلى يسارك، وهو إذا ولاك جانبه الأيسر، وهو أنيسه فهو سانح، وما جاء عن يسارك إلى يمينك وولاك جانبه الأيمن، وهو وحشيه فهو بارح قال ابن بري العرب تختلف في العيافة يعني في التيمن بالسانح والتشاؤم بالبارح فأهل نجد يتيمنون بالسانح (المترجم)

نفوذ الأتروسكيين- كان الرومان أمة نصف متوحشة فاقتدوا كثيرا بالأتروسكيين، وهم أكثر منهم تمدنا وأخذوا عنهم بعض المصطلحات الدينية خاصة مثل ألبسة الكهنة والحكام والشعائر الدينية وعلم معرفة الغيب وزجر الطيور وعند ما كان الرومانيون يؤسسون مدينة يجرون على شعائر الأتروسكيين فيخط المؤسس لها بالمحراث سورا مربعا وللمحراث سكة من النحاس يجرها ثور أبيض وبقرة بيضاء فيتبع الناس المؤسس ويلقون بمزيد العناية جميع مدر الأرض من ناحية السور وتصبح كل الهوة التي يشقها المحراث مقدسة لا يستطيع أحد أن يتعداها للدخول في السور، ولذلك اقتضى أن يقطع المؤسس تلك الأعلام، أو الهوى المقدسة من عدة مواقع فكل مكان يتخطاه المحراث يفتح فيه باب وكل فرجة لم يمسسها السكة تبقى غير مقدسة وتكون بابا يسوغ منه الدخول، ولقد أسست رومية بحسب هذه المراسيم الدينية، وكانت تسمى رومية المربعة ويقولون أن مؤسسها قتل أخاه عقابا له عن تجاوزه السور المقدس الذي خطه، ثم جرى الاصطلاح أن تخطط أسوار المستعمرات والمعسكرات الرومانية، بل وحدود المساكن بحسب هذه القواعد الدينية وخطوط نصف هندسية، وكان دين الرومانيين من أصل أتروسكي فنقلوه إلى أرجاء العالم القديم بأسره، ولذلك حق لآباء الكنيسة أن تسمى بلاد الأتروسكيين "أم الخرافات".

اللاتينيون- نزل اللاتينيون في بلاد الآكام والشعاب الواقعة جنوبي نهر التيبر، وهي ويطلق عليها اليوم اسم ترية رومية، وكانوا قليلا عددهم، ولم تكن مساحة البقعة التي يسكنونها أكثر من ٢٥٠ كيلومترا مربعا، وكانوا من عنصر واحد كسائر الطليان يشبهونهم باللغة والدين والأخلاق ولكنهم يفوقونهم في التمدن بعض الشيء يزرعون الأرض ويبنون المدن الحصينة وينقسمون إلى شعوب صغيرة مستقلة، ولكل شعب أرضه الخاصة به ومدينته وحكومته وتدعى تلك المملكة الصغيرة مدينة.

ولقد قامت ثلاثون مدينة لاتينية فألفت منها مجتمعا دينيا يشبه مجتمع

الإمفكتيون اليوناني وأخذوا كل عام يحتفلون احتفالا عاما بعيد لهم وتندب كل مدينة عنها من يمثلها في مدينة ألب فيذبحون ثورا ضحية للرب المشترك بينهم، وهو كوكب المشتري اللاتيني.

رومية الأصلية

رومية- على تخوم قطر اللاسيوم من ناحية بلاد الأيتروسكيين يمتد سهل ذو بطائح يتخلله أكمات وتلعات هناك على ضفة نهر التيبر أنشئت مدينة رومية مقر الشعب الروماني المتفرق في الخلاء، ولقد كانت تنتاب تلك البلاد وحالتها من الكآبة والبؤس على جانب، ولكن كان موقعها جميلا ونهر التيبر بمثابة هوة قائمة في وجه الأيتروسكيين؛ كما كانت تلك الآكام كالحصون وبين تلك المدينة والبحر ستة أميال، وهو بعد لا يكاد ينجيها من سطوة قرصان البحر ويقربها قليلا من تناول البضائع الواردة عليها، وكان مرفأ أوستي عند مصب نهر التيبر حيا من أحياء رومية كبير مثل بيرة مرفأ أثينة فموقع رومية كان والحالة هذه مناسبا لحال أمة حربية تجارية.

تأسيس رومية- لا نعرف من حال القرون الأولى لرومية غير أساطير والرومانيون أنفسهم لم يعرفوا عنها شيئا مثلنا، وقد ادعوا أن رومية كانت لأول أمرها مدينة صغيرة مربعة المساحة قائمة كلها على رابية "بالاتين" ويدعى مؤسسها رومولوس، وهو الذي اختط سورها بمحراث مراعيا في تخطيطها الشعائر الأيتروسكية، وكان الرومانيون يحتفلون كل سنة يوم ٢١ إبريل (نيسان) بعيد هذه المدينة فيطوفون حول سورها الأصلي فيدق أحد الكهنة مسمارا في بعض المعابد تذكارا للحفلة، وكان يقدر أن الاحتفال بتأسيس تلك المدينة قد وقع سنة ٧٥٤ قبل المسيح.

أنشئت على الروابي الأخرى قبالة جبل بالاتين عدة مدن صغرى ونزلت عصابة من سكان الجبال من السابنيين في معبد الكابتول؛ كما حلت عصابة أخرى من متشردي الأيتروسكيين في جبل ميلوس، وربما كانت أيضا ثمت شعوب أخرى

وانتهت الحال بجميع أولئك الجماعات الصغيرة أن يجتمعوا في مدينة رومية الواقعة على رابية بلاتين، ثم أنشئ سور حديد أحاط بالسبع أكمات، أما ساحة المريخ، حيث يقف الجيش فكانت ممتدة إلى نهر التيبر من الشاطئ الآخر من النهر خارج السور، فكان الكابتول في رومية مثل الأكروبول في أثينة، ولقد قامت على هذا الصخر معابد الأرباب الثلاثة حامية المدينة، وهي المشتري وجوبون ومنيرفا وهنالك القلعة التي حوت خزانة الحكومة وسجلات الأمة، وفي أساطيرهم أنهم عثروا عندما حفروا أسس المدينة على رأس رجل قطع حديثا، فكان هذا الرأس فألا حسنا فأولوه بأن رومية ستغدو رأس العالم.

تقاليد بشأن الملوك وإنشاء الجمهورية جاء في هذه التقاليد أنه حكم رومية ملوك مدة قرنين ونصف، ولم تذكر فيها أسماؤهم وتاريخ وفياتهم، بل ذكرت تراجمهم، وقيل: إنهم كانوا سبعة ملوك خرج الأول، وهو رومولوس من مدينة آلب اللاتينية فأنشأ مدينة بالاتين وقتل أخاه الذي ارتكب محرما بأن قفز من فوق خندق سور المدينة، ثم حالف أحد ملوك السابيين المدعو تاتيوس، وفي تقليد آخر أنه أنشأ في سفح المدينة حيا محاطا بسياج حشر إليه جميع المتشردين الذين أحبوا الانضمام إليه.

وأما الملك الثاني، وهو نومانومبيليوس، فقد كان ساسيا، وهو الذي رتب الديانة الرومانية آخذا برأي إحدى الربات "إيجري" التي كانت تسكن في غابة، وكان الملك الثالث المدعو تولوس مارتيوس حفيد توما المومأ إليه بنى جسرا من خشب على نهر التيبر وأنشأ جسر أوستي وعليهما كانت تمر تجارة رومية منذ ذاك الحين، وكان الملوك الثلاثة الآخرون من الأيتروسكيين وحدث من أمر تاركين النديم إن وسع المملكة الرومانية وأدخل الاحتفالات الدينية الشائعة في بلاد أيتروريا، أو الأيتروسكيين ونظم سرفيوس توليوس الجيش الروماني بأن أدخل فيه جميع أهل البلاد بدون تمييز في موالدهم وأعمارهم ووزعهم مئات مئات بحسب ثروتهم، أما الملك الأخير المدعو تاركين الباهر، فقد ظلم الأسرات

الكبرى في رومية فتآمر عليه بعض الأشراف ووفقوا إلى طرده.

ومذ ذاك العهد (٥١٠) لم يملك على الرومانيين ملك فكانت البلاد الرومانية، أو؛ كما يقال الملك العام يحكم عليها حاكمان يختاران كل سنة ويسميان "القناصل"، وليس من الممكن أن نعلم ما في هذا التقليد من الحقيقة؛ لأنه نشأ قبل أن يبدأ الرومان في وصف تاريخهم بزمن طويل، وفي هذا التقليد من الأساطير ما لا يسعنا قبوله برمته، وقد حاول بعضهم أن يفسر أسماء هؤلاء الملوك ويستدل منها بأنها رمز إلى جنس، أو إلى طبقة خاصة؛ كما حاول بعضهم أن ينشئ تاريخ رومية في عهده الأول على ضروب من الصور، ولكن كلما بذلت العناية للنظر فيه صعب الاتفاق بين المشتغلين في ذلك على تقرير أمر وكثر الخلاف بينهم.

وصف ترتيبات الرومانيين على سبيل الإيجاز- كان في رومية نحو القرن الخامس قبل المسيح طبقتان من الناس، وهما الباترسين والبلبين (أي الأشراف والعامة)، فكان الباترسيون من نسل قدماء الأسرات المقيمة منذ القدم في البقعة الضيقة في ظاهر مدينة رومية، وكان لهم وحدهم الحق أن يظهروا في مجمع الأمة، وأن يحضروا الحفلات الدينية، وأن توسد إليهم الوظائف ويعتقدون أن أجدادهم أسسوا المملكة الرومانية، أو؛ كما كان يقال: المدينة الرومانية وأوصوا بها لهم فكانوا هم من ثم الشعب الأصلي في رومية، أما البلبين فهم من نسل الغرباء النازلين في المدينة ولاسيما من المغلوبين من سكان المدن المجاورة إذ أن رومية أخضعت بالتدريج جميع المدن اللاتينية وضمت سكانها إليها بالقوة فأصبحوا رعايا لرومية لكنهم ظلوا غرباء عنها يخضعون لحكومة رومية دون أن يشركوها في شيء من الأمر فلا يدينون بالدين الروماني، ولا يسوغ لهم أن يحضروا الحفلات الدينية، ولا أن يتروجوا من الأسرات الشريفة، وكانوا يدعون بالبلب، أي: الجمهور، ولا ينظر إليهم بأنهم جزء من الشعب الروماني، وقد وجدت في الصلوات القديمة هذه العبارة "لخير الشعب وخير البلبين في رومية".

وكان يجتمع أبناء البلاد وعليهم أسلحتهم كل سنة خارج المدينة في ساحة المناورات (ساحة المريخ) ينتخبون زعيمين يطلقون عليهما لقب القضاة، أو القناصل، وكان هؤلاء القناصل في خلال السنة التي يتوظفون فيها يحكمون رومية ويقودون جيشها وبيدهم حياة جميع أفراد الأمة وموتها يرافقهم اثنا عشر رجلا من حملة الفؤوس إشارة لما لهم من السلطة فيحمل كل منهم فأسا وحزمة قضبان لجلد المجرمين، أو ضرب رقابهم فيجلس القناصل على عادة قدماء الملوك على دكة تشبه العرش، وهو كرسي عال من العاج ويستعاض في أوقات الحروب الخطرة عن القنصلين بحاكم واحد يلقون إليه بزمام السلطة فيصبح الحاكم المتحكم والآمر الناهي وحده ويكون في قبضته الأربعة والعشرون جلادا، ولكن سلطته لا تدوم إلا ستة أشهر.

فيجمع القناصل مجلس الشيوخ، وهو مؤلف من رؤساء الأسرات وكبار أرباب الأملاك للمفاوضة في المسائل المهمة ويدعى هؤلاء بالآباء ويدعى نسلهم بالأشراف، فكان مجلس الشيوخ يصدر رأيه ويطلقون عليه "رأي الشيوخ"، ومن العادة أن يلتزم القناصل امتثاله فكانت من ثم رومية محكوما عليها من القناصل ومجلس الشيوخ في آن واحد.

النزاع بين طبقات الشعب- كان العامة وأهل الطبقة الوسطى عبارة عن شعبين متباينين سادة ورعية ومع هذا كان حال أهل الطبقة الوسطى يشبه كثيرا حال الأشراف فهم يخدمون في الجندية مثلهم ويخدمون في الجيش على نفقتهم ويفادون بأرواحهم في خدمة الشعب الروماني، وهم مثلهم من أهل الفلح والكرت يعيشون في قراهم وأماكنهم، وكان كثير من أهل هذه الطبقة المتوسطة أغنياء، ومن أسرة قديمة والفرق بين الطبقة المتوسطة وبين الأشراف أن الأول كانوا من أسرة عظيمة من بعض المدن اللاتينية المغلوبة على حين كان الأشراف من نسل أسرة قديمة من سكان المدينة الغالبة، ولم ترض نفوس أهل الطبقة الوسطى أن تظل ساكتة على ما قضي به عليها من المهانة، بل ثار بينهم

وبين الأشراف نزاع دام قرنين (من نحو ٢٩٣ إلى نحو سنة ٥٠٠) وإليك كيف بدأ ذلك على نحو ما ورد في أساطيرهم.

رأى أهل الطبقة المتوسطة ذات يوم أنفسهم مهانة فاعتصموا في جبل هناك وعليهم أسلحتهم وعزموا أن يناوئوا الشعب الروماني فهال عزمهم جماعة الأشراف فبعثوا إليهم بالقائد منينوس أغريبا ليقص عليهم قصة الأعضاء والمعدة فرضيتُ الطبقة الوسطى بالدخول في الطاعة وعقدت محالفة مع الشعب فمنح رؤساء هذه الطبقة الحق في أن يمدوا يد المساعدة لأهل الطبقة الوسطى للأخذ بأيديهم من حيف حكام الأمة ولأجل أن يحولوا دون قيام أمر يخالف رغائبهم، وقد كان يكفي أن يلفظ أحدهم قوله "فتو"، أي: إني أعارض فيتوقف البت في الأمر، وقد كان الدين يحظر الانتقاض على المدافع عن حقوق الشعب، ومن فعل ذلك استحق العقاب من أرباب الجحيم.

فظل أرباب الطبقة الوسطى آخذين أنفسهم بمجاهدة خصومهم من أهل الطبقة العالية وإذ كانوا أعز منهم نفرا وأكثر غنا وأيدا انتهت بهم الحال أن ظفروا بهم فتوصلوا أولا إلى وضع قوانين عامة للجميع، وأن يسمح بالزواج بين أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى، وكان أصعب ما في هذا التغيير نزع الاستئثار بسلطة الحكم، أو الذهاب بفضل الشرف، وقد كان الدين يأمر أنه يجب قبل أن يعين رجل حاكما أن يطلب من الأرباب فيما إذا كانت توافق على انتخابه أم لا فيسألون الأرباب عن رأيها في ذلك بزجر الطيور ويسمونه أخذ الفأل، بيد أن الديانة الرومانية القديمة لم تكن تسمح بأخذ الفأل إلا على اسم رجل من أهل الطبقة العليا، وما كان يخطر في بال القوم بأن الأرباب يقبلون بحاكم من أهل الطبقة الوسطى، وكان ثمت أسر كبرى من الطبقة الوسطى تحرص على أن تصبح مساوية لأسر الأشراف في تولي المناصب؛ كما كانت تساويها في الغنى والمكانة فاضطر أهل الطبقة الأولى إلى أن يفتح لها جميع المناصب شيئا فشيئا فبدئوا يدخلون في مجلس القناصل سنة ٣٦٦، وفي مجلس

الحكم ٣٥٥ والقضاء سنة ٣٣٧ والمراقبة سنة ٣٣١ وزعامة الدين الكبرى سنة ٣٠٢، ومن ذاك العهد امتزج الأشراف أهل الطبقة العليا بأهل الطبقة الوسطى وأصبحوا شعبا واحدا.

الديانة

أرباب الرومان- اعتقد الرومان كاعتقاد اليونان بأن كل ما يحدث في هذا العالم هو مما قضت به إرادة خالق ولكنهم لم يعتقدوا بإله واحد يدير العالم، بل قالوا بتعدد الأرباب بتعدد المظاهر المختلفة التي تتجلى فيها أوامرهم ونواهيهم فهناك رب ينبت البذر وآخر يحمي حدود الحقول وثالث يحرس الثمار، ولكل رب اسمه وجنسه وعمله وأهم الأرباب "المشتري" رب السماء و"جانوس" ذو الرأسين و"المريخ" رب الحرب و"عطارد" رب التجارة و"فولكان"رب النار و"نبتون" رب البحر و"سريس" ربة الحصاد والأرض والقمر و"جونون" و"منيرفا".

ثم يجيء الأرباب من الدرجة الثانية فكانت تتجسد في بعض تلك الأرباب صفة من الصفات كالفناء والاتحاد والراحة والسلام ويشرف بعضها على عمل من أعمال الحياة فعند ما يولد المولود يأتيه رب يعلمه النطق وربة تعلمه الشرب وأخرى تقوي عظامه وربان يرافقانه إلى المدرسة وآخران يرجعان به وبالجملة، فإنهم كانوا يعتقدون بوجود جيش من الأرباب من الدرجة الثانية ويعتقدون بأن هناك أربابا تحمي مدينة وحارة وجبلا وعامة، ولكل نهر، ولكل نبع، ولكل شجرة رب خاص بها، حتى لقد قالت امرأة صالحة في إحدى القصص من تأليف بترون الكاتب اللاتيني: "إن بلادنا غاصة بالأرباب بحيث يسهل عليك أن تلقى فيها ربا من أن تصادف رجلا".

ولم يتمثل الرومانيون كاليونان أربابهم على صورة مخصوصة، فقد مضى زمن طويل، ولم يكن في رومية صنم فكانوا يعبدون "المشتري" في صورة حجر

و"مارس" على صورة سيف، ولم يقتدوا إلا مؤخرا باتخاذ الأصنام من الخشب على مثال أصنا الأيتروسكيين وأصنام الرخام على أمثال أصنام اليونان، ولم يتصوروا على العكس في اليونان بأن بين الأرباب صهرا نسبا، ولا عزوا إليهم قصصا؛ كما يفعل اليونان مع أربابهم، ولا يعرفون لهم جنة يعقدون فيها مجالسهم، وكان في اللغة اللاتينية لفظة مشهورة للتعبير عن الأرباب، وهي "التجليات" فكانوا يعتقدون أنها تجليات قوة إلهية مجهولة، ولذلك لم يصورهم الرومان في صورة من الصور، ولا نسبوا إليهم رحما، ولا صهرا، ولا تاريخا وكل ما كان يعرف عن الأرباب الرومانيين هو أن كل واحد منها يسيطر على قوة من قوى الطبيعة ويستطيع أن يعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويهوى.

العبادة- قلما يحب الروماني أولئك الأرباب المجهولين الصفر الباردين والظاهر أنه كان يخاف منهم فيخبئ وجهه عندما يتوسل إليهم، وربما أتى ذلك لئلا يقع بصره عليهم ولكنه يذهب إلى أن الأرباب قادرون، وأن من يرضيهم يخدمونه، قال بلوث (الشاعر الهزلي اللاتيني): إن الرجل الذي يرضى عنه الأرباب يكسبونه مالا ويعتقد الروماني بأن الدين عبارة عن مقايضة المنافع فيقدم المرء للرب نذوره وقرابينه ويمنحه هذا بعض المنافع فإذا قدم المرء ما يجب تقديمه للرب، ولم يظفر بما تمناه يعتبر نفسه قانطا مخدوعا، ولقد قدم الشعب للأرباب في خلال مرض القائد جرمانيكوس نذورا لتمن عليه بالشفاء، ولما ذاع خبر موته سخط العامة وقلت المذابح وألقت في الشوارع بتماثيل الأرباب؛ لأن هذه لم تعمل ما كان يرجى منها أن تعمله وهكذا فإنا نرى الفلاح الإيطالي لعهدنا هذا يشتم القديس الذي لم يعطه ما طلبه منه.

فالعبادة إذا عبارة عن القيام بما يرضى عنه الأرباب من الأعمال والشعب يأتيهم بالثمار واللبن والخمر ويضحي لهم الحيوانات، وفي بعض الأوقات يخرجون تماثيل الأرباب من معابدهم ويجعلونها على سرر ويولون لها وليمة ويقومون بما يقوم به الشعب في بلاد اليونان فيبنون لهم دورا جميلة، وهي المعابد

ويحتفلون بأربابهم.

ولم يكن يكفي في تعظيم أرباب الرومانيين أن ينفق الناس مالا في سبيل إكرامهم، بل كانت تنظر إلى الصور التي يقوم بها ذلك الإكرام فتقضي إرادتها أن تجري جميع أعمال التعبد والنذور والألعاب بما رسمته القواعد القديمة (الطقوس) فمتى أريد تقديم ضحية للمشتري كان عليهم أن يختاروا حيوانا أبيض، وأن يذروا على رأسه دقيقا مملحا، وأن يضرب بفأس، وأن يقف المقدم لهذه الضحية على قدميه ويداه مرفوعتان إلى السماء، حيث يقيم المشتري، وأن يلفظوا بجملة تقديسا لاسمه فإذا غلط المقدم بما يقول فمعنى ذلك أن الضحية لا تساوي شيئا ويذهب القوم إلى أن الرب لا يرضى عما قدم له، ولقد قام أحد الحكام بألعاب إكراما للأرباب الحامية لرومية فقال شيشرون: "إذا غيرت عبارة، وإذا وقف اللاعب بالشباب، أو انقطع الممثل فتكون الألعاب غير موافقة للشعائر الدينية فيجب إذ ذاك إعادتها"، ولذلك كان أهل الرأي من الناس يحضرون كاهنين أحدهما يتلو الصلاة والآخر يتابعه فيما يقول.

يجتمع الكهنة، وهم يدعون "أخوة أرفال" كل سنة في معبد بجوار رومية فيرقصون رقصا مقدسا ويتلون الصلوات، وهي مكتوبة بلغة قديمة لا يفهم منها أحد شيئا ويقتضي في أوائل الصلاة أن يدفع إلى كل كاهن مجموع قوانين مكتوبة في أول الجلسة وظل الرومانيون بعد أن نسيت هذه اللغة بقرون يتلونها كل سنة دون أن يغيروا منها حرفا ومما يدل على أن الرومانيين كانوا يرمون إلى الوقوف عند حد ما رسمه أربابهم هو أنهم كانوا يقومون أحسن قيام بقواعد الدين، ولذلك يرى الرومانيون أنفسهم من أكثر البشر تدينا، قال شيشرون: "إننا أحط من جميع الأمم، أو مساوون لهم من كل وجه ولكننا نفوقهم من كل وجه في أمور الدين، أي: بعبادة الأرباب".

الصلاة- إذا صلى الروماني فليست صلاته لتزكية نفسه ومناجاة ربه، بل ليطلب منه معونة ويسأله حاجة له فمن، ثم تراه يبحث قبل كل شيء عن الرب

الذي يستطيع أن ينيله رغبته، قال فارون (الشاعر اللاتيني): "يلزمنا أن نعرف، أي: الأرباب يتيسر له أن يعيننا في أحوال مختلفة؛ كما نعرف أين يقوم النجار والخباز" وهكذا قضت الحال بأن يعمد إلى سيريس للحصول على زروع جيدة وإلى عطارد لاكتساب المال وإلى نبتون للمعونة على ركوب البحار فيلبس المستغيث ألبسة نظيفة لما وقر في الأذهان من أن الأرباب يرغبون في النظافة ويقدم بين يدي نجواه ضحية؛ لأن الأرباب لا يحبون من يجيء وأيديه فارغة ويقف المستغيث، وقد كشف رأسه فينادي الرب إلا أنه لا يعرف اسم الرب الذي يناديه ويقول الرومانيون: إنه ما من أحد يعرف أسماء الأرباب الحقيقية، بل يكتفي بأن يقول له مثلا "أيها المشتري الأعظم الرحيم، أو بأي الأسماء تحب أن تدعى بها"، ثم يعرض عليه ما يريد عرضه متوقيا استعمال جمل صريحة كل الصراحة، حتى لا ينخدع الرب فإذا قدم له خمر يقال له: "تقبل طاعة هذا الخمر الذي أهرقه"؛ لأنه يسهل على الرب الاعتقاد بأنه يقدم له خمر آخر غير الذي قدم له، وأن يعاقب به، ولذلك كانت صلواتهم مطولة كثيرة الحشو مملوءة بالمترادفات.

الفأل- يعتقد الرومان كاليونان بالفأل فيذهبون إلى أن الأرباب يعرفون المستقبل ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الروماني الأرباب قبل أن يشرع في عمل فإذا ما أزمع القائد فيهم أن يهجم على عدوه يبحث في أحشاء الموتى والحاكم قبل أن يجمع لديه مجلسا ينظر إلى الطيور السائرة (وهذا ما يسمونه أخذ الطالع والفأل) فإذا كان فيها إشارة موافقة يدركون بأن الأرباب استحسنت المشروع وإلا فمعناه أنهم غير راضين عنه.

وكثيرا ما يرسل الأرباب الآيات من قبلهم، ومن دون أن يسئلوا إرسالها وكل ظاهرة لم تكن متوقعة تعد فألا على حادث غير منتظر، فقد ظهرت نجمة مذنبة قبل موت قيصر فذهب القوم إلى أنها إشارة إلى نعيه، وإذا أرعدت السماء عندما كانت الأمة تجتمع للمفاوضة في أمر فمعنى ذلك أن كوكب المشتري لا يحب أن يبتوا أمرا ذلك اليوم، ولذلك يبغضون كل حادث طفيف ويؤولونه بأنه رمز

إلى أمر يقع فإذا أبرق البرق، أو سمعت كلمة من متكلم، أو وقف جرذ في الطريق، أو شوهد عراف فكل ذلك يأخذون منه العبر، حتى أن مارسلوس كان إذا عزم على البداءة بعمل أمر بأن يحمل في محفة مغلقة ليكون على ثقة من أنه لا يرى شيئا يتفاءل به.

وما كان ذلك مجرد خرافات للعامة، بل كان للجمهورية الرومانية ستة طوالع تتنبأ لها بالمستقبل، فكان لها كتاب للنبوءات تبالغ في العناية به دعته كتاب "سيبيلين"، وكان لها فراخ مقدسة يقوم على تربيتها الكهنة، وما كان يجري عمل عام، ولا تلتئم جمعية، ولا يشرع بانتخاب ومفاوضة بدون أن يعمدوا إلى أخذ الطالع، أي: أنهم ينظرون إلى السارح والبارح، وقد شاع سنة ١٩٥ أن الصاعقة انقضت على معبد للمشتري وأنه نبتت شعرة على رأس تمثال هركول فكتب أحد الولاة بأنه ولدت فرخة ذات ثلاث أرجل فاجتمع مجلس الأمة للمفاوضة في هذه الفؤل.

الكهنة- لا يقوم الكاهن في رومية بما يقوم به في بلاد اليونان من الأعمال الروحية، بل كان ينقطع فقط لخدمة الرب فيلاحظ معبده ويدير شؤون أملاكه ويقوم بالاحتفالات لإكرامه وهكذا كانت جمعية الساليين (الرقاصين) تحتفظ بترس وقع عليها من السماء؛ كما زعموا، وكان يعبد؛ كما يعبد الصنم، وكانت تقيم تلك الجمعية كل سنة حفلة رقص بالسيوف، وهذا ما كان يتوفر عليه أعضاء تلك الجمعية والأحبار يراقبون الحفلات الدينية فيضعون تقويما للسنين ويحددون أوقات الأعياد التي يجب الاحتفال بها في أيام مخصوصة من السنة ورئيسهم هو الحبر الأعظم.

وما كان الكهنة، ولا العرافون، ولا الأحبار يؤلفون طبقة خاصة بهم، بل يجري اختيارهم من كبار الرجال ويبقون على القيام بجميع وظائف الحكومة فمنهم من يتولى القضاء، ومنهم رئاسة الجمعيات، ومنهم قيادة الجيوش، ولذلك لم يتألف من الكهنة الرومانيين على قوتهم؛ كما تألف من الكهنة

المصريين طبقة كهنوتية، فقد كان لحكومة رومية دين خاص بها، ولم يكن للكهنة حق الحكم فيها.

عبادة الموتى- اعتقد الرومانيون؛ كما اعتقد الهنود واليونان بأن الروح تبقى بعد موت الجسد فإن عنوا بدفن الجثة بحسب العادات، فقد اعتقدوا بأن الروح تذهب لتحيا تحت الأرض وتصبح ربة وإلا فالروح ليس في استطاعتها الدخول إلى عالم الأموات، بل كانت تعود إلى الأرض تدخل الرعب على قلوب الأحياء وتعذبهم ليدفنوها حكى بلين لجون قصة شبح كان يختلف إلى أحد البيوت ويهلك سكانه هلعا فاكتشف أحد الفلاسفة ممن كان له قوة قلب تمكنه من اقتفاء أثره إلى المكان الذي وقف فيه ذاك الطيف عظاما لم تدفن بحسب العادات المتبعة وهكذا كانت روح الإمبراطور كاليجولا تطوف في حدائق القصر فاقتضى إخراج جثته ودفنه ثانية على ما رسمته الشعائر الدينية.

فمن ثم كان مما يهم الأحياء والأموات على السواء المحافظة على العادات الدينية فكانت أسرة الميت تنصب كومة حطب يحرقون فيها الجسد ويجعلون الرماد في صندوق يضعونه في القبر، وكان لهم معبد صغير خاص بدفن أرواح الأرباب، أي: الأرواح التي أصبحت أربابا فيأتي أهل الميت في أوقات معينة إلى زيارة القبر حاملين طعاما لا جرم أنهم اعتقدوا قديما أن الروح محتاجة إلى الغذاء؛ لأن القوم كانوا يهرقون الخمر واللبن على الأرض ويحرقون لحم المنكوبين ويتركون في الأواني لبنا وحلاوى، وكانت هذه الاحتفالات بالموتى تدوم ما شاء الله أن تدوم، وما كان لأهل بيت أن يتخلوا عن أرواح أجدادهم، بل يظلون على العناية بقبورهم ويأتونهم بالغذاء لإطعامهم، ثم إن تلك الأرواح التي تتأله، أو تصبح في عداد الأرباب تحب ذريتها وتحمي أحفادها من البوائق وهكذا كان لكل أسرة أرباب يحمونها يدعونها آلهة البيت.

عبادة البيت اعتقد الرومان كاعتقاد الهنود بأن اللهيب رب؛ كما أن البيت مذبح، فكان لكل أسرة بيت تعبده وتقوم على العناية به ليل نهار تحمل إليه الزيت

والشحم والخمر والبخور فيتصاعد اللهب ويسطع كأنه منبعث من الضحية. فكان الروماني قبل أن يبدأ بتقديم الطعام للميت يشكر لرب البيت ويدفع إليه جزءا من الأطعمة ويصب له قليلا من الخمر، وهذا ما يدعونه بالصب والإهراق. حتى أن هوراس نفسه على قلة اعتقاده كان يتعشى أمام بيته مع خدمته ويصب الطعام ويصلي الصلاة المعتادة.

وكان لكل أسرة رومانية في بيتها قبر جعل فيه أرباب البيت وأرواح الأجناد ومذبح البيت، وكان لمدينة رومية نفسها بيت مقدس في قبر الآلهة فستا، وهي عبارة عن أربع عذارى من أعظم الأسرات الرومانية عهد إليهن حراسته، وذلك: لأنهم يرون أن لا ينطفئ اللهيب المقدس مطلقا، ولا يعهد بالقيام عليه إلا لأناس من الأطهار فإذا أبت إحدى تلك العذارى أن تقوم بما فرض عليها التوفر عليه من هذه الخدمة يدفنونها حية في قبو لأنها ارتكبت عملا طالحا وأوقعت الشعب الروماني في خطر.

الجيش الروماني

الخدمة العسكرية- لم يكن يكفي لقبول الرجل في خدمة الجيش الروماني أن يكون وطنيا رومانيا، بل يجب أن يكون له بعض الموارد ليجهز نفسه بالسلاح على نفقته؛ لأن الحكومة لم تكن تعطي الجندي سلاحا، حتى إنها لم تكن تعطيه جراية يأكلها إلى سنة ٤٠٢، وعلى هذا، فلم يكن يجند من الوطنيين إلا من كانوا يملكون بعض ثروة، أما الفقراء فكانوا يعفون من الخدمة العسكرية وبعبارة ثانية ليس لهم الحق في خدمتها ويحق كل وطني له بعض الغنى أن يقبل في الجيش بعد أن يكون أبلى بلاء حسنا في عشرين حملة، وإذا لم يقم بذلك فهو تبع للقائد، أي: منذ سن السابعة عشرة إلى السادسة والأربعين فكل فرد في رومية؛ كما في المدن اليونانية وطني وجندي في آن واحد والرومان أمة مؤلفة من صغار أرباب الأملاك المدربين على القتال.

التجنيد- متى احتاجت الحكومة إلى جند يصدر القنصل أمره إلى جميع الوطنيين اللائقين للخدمة بأن يجتمعوا في معبد الكابتول، وهناك يلتئم ضباط تختارهم الأمة، وهم يختارون من ينبغي لهم من الجند لتأليف جيش، وهذا هو التجنيد عند الرومانيين ويسمونه الاختيار، ثم يجري التحليف العسكري فيبدأ الضباط أولا يقسمون اليمين المألوفة، ثم الجند وكلهم يقسمون على الطاعة للقائد، وأن يقاتلوا دون أعلامهم، حتى يكونوا في حل من أيمانهم في نظره فيتلو رجل عبارة ويتقدم كل فرد في نوبته فيقول "وأنا أيضا" فيرتبط الجيش إذ ذاك بالقائد ارتباطا دينيا.

دعي الجيش الروماني أولا الفرقة، أو التجنيدة، ولما نما الشعب أصبح يؤلف بدل الفرقة فرقا والفرقة الرومانية عبارة عن ٤٢٠٠، أو ٥٠٠٠ رجل كلهم من أبناء البلاد، وكان أصغر جيش على الأقل عبارة عن فرقة، وكان كل جيش بقيادة قنصل عبارة عن فرقتين على الأقل ويتألف نحو نصف الجيش من هذه الفرق، وكان على جميع شعوب إيطاليا الخاضعة لرومية أن تبعث إليها ببعوثها ويدعى هؤلاء الجنود "المحالفون"، وهم تحت قيادة الضباط الرومانيين وكنت ترى المحالفين في الجيش الروماني أكثر عددا من كتائب الوطنيين وجرت العادة أن يبعثوا مع كل أربع فرق (١٦٨٠٠ جندي) عشرين ألف راجل من المحالفين وهكذا كان الشعب الروماني في حروبه يستخدم رعاياه أكثر من مواطنيه.

التسليح- اعتاد الرومان كاليونان أن يحاربوا مترجلين متدرعين بالدروع والخوذ والمسامي (الطماقات) قابضين بأيديهم اليسرى على ترسة ليدفعوا بها الضربات مضى عليهم زمن، وهم يقاتلون بالرمح والسيف فكانوا إذا تلاقوا بالعدو يجتمعون كتيبة واحدة على نحو ما كانت تجتمع الكتائب الرومية، ثم عمدوا إلى استعمال ضرب آخر من ضروب الكر والفر وتقسم الفرقة إلى سرايا صغيرة كل سرية مؤلفة من ١٢٠ جنديا "مانيبول"، أي: الفريقة؛ لأن علمهم عبارة عن حزمة من الحشيش فتصطف كل فرقة على شكل رقعة الشطرنج على ثلاث

خطوط وكل فرقة منفصلة عن جاراتها بحيث يكون المجال أمامها متسعا للعمل على حدتها فيضرب جنود فرق الصفوف الأولى بحرابهم ويضعون سيوفهم في أيديهم ويبدؤون بالقتال فإذا اندحروا يتراجعون إلى الفضاء الذي وراءهم فيزحف الصف الثاني من الفرق في نوبته إلى القتال فإذا ما دحر ينكفئ راجعا نحو الخط الثالث، وهذه الفرق هي خيرة رجال الجيش يحملون الرماح، وهم واسطة لقيادة إخوانهم الآخرين لقتال الأعداء بهم.

وبعد فإن الجيش الروماني لا يتألف جملة واحدة للقتال في آن واحد، بل إن القائد يعبئ جنده مراعيا حالة الأرض التي يتخذها ساحة لقراع الأعداء، ولما التقى كتائب جنود الرومانيين وفرق المكدونيين في جبال سينوسيفال في ثساليا للمرة الأولى، وهما أشهر ما عهد من الجيوش في العهد القديم كان ميدان القتال عبارة عن أكمات وتلعات، فلم يكن في إمكان الستة عشر ألف محارب من المكدونيين أن يظلوا متماسكين متجمعين، بل كانت صفوفهم ذات فروج فزحفت الفرق الرومانية ودخلت الفضاء الذي كان يتخلل صفوفهم ومزقت شملهم كل ممزق.

التمرينات- لم يكن لرومية مجال للألعاب الرياضية، فكان الجنود يتمرنون في ساحة المناورات، أي: في ساحة المريخ من الضفة الثانية من نهر التيبر، وهناك كان الشاب يسير ويعدو ويقفز وعليه العدة الكاملة من السلاح يلعب بسيفه ويضرب بحربته ويستعمل معوله فإذا ما علاه الغبار والعرق يجتاز نهر التيبر عائما وكثيرا ما كان الرجال المدربون، بل والقواد يشاركون فتيان الجند في تمريناتهم إذ كان من دأب الروماني أن لا ينقطع عن التمرين، حتى كانت القاعدة المتبعة إذ ذاك أن لا يترك الجنود، حتى في الحرب بلا عمل فيمرنون مرة في اليوم على الأقل ويشغلونهم بإنشاء الطرق والجسور والمجاري إذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه، ولا متاريس يقيمونها.

المعسكر- يحمل الجندي الروماني حملا ثقيلا مؤلفا من سلاح ولوان

وأطعمة تكفيه أياما ووتد ويبلغ وزن مجموعها ستين رطلا رومانيا، وإذا تلاقى الجيش بجيش العدو يسهل عليه الحرب بسرعة إذ لا يكون له من الأثقال ما يشغله.

وكل مرة كان يريد الجيش الروماني الوقوف ليعسكر يحط المتاح نطاقا مربعا ويحفر الجند في محيط ذاك النطاق هوة عميقة ويبقون التراب من ناحيتهم في الداخل يكون منحدرا يضربون فيه أوتادا وهكذا يكون المعسكر محميا بنطاق من أوتاد وأرض ذات وهاد، وفي داخل هذه القلعة المؤقتة يضرب الجنود خيامهم يجعلون سرادق القائد في الوسط ويبقى العيون والحراس طوال الليل يحرسون المعسكر وهكذا يكون الجيش في مأمن من كل عدو مفاجئ.

تعليم الجند- يعلم الجيش الروماني تعليما قاسيا فيحق للقائد أن يميت جنده، أو يبقي عليهم والجندي الذي يترك محله، أو يركن إلى الفرار في الزحف يحكم عليه بالموت فيربطه حملة الفؤوس بعمود ويضربونه بالعصي ويقطعون رأسه، أو يقع عليه الجند فيضربونه بالعصي.

وإذا تمردت كتيبة من الجيش يقسم القائد المجرمين إلى عصابات كل عصبة مؤلفة من عشرة أشخاص يقترعون في كل عصابة على واحد يكون نصيبه الإعدام ويسمون هذا التعشير، أي: أخذ واحد من عشرة، أما الباقون فيقضى عليهم بأن يعطوا خبز شعير ويتركونهم يعسكرون خارج المعسكر ليكونوا أبدا على خطر من مفاجأة العدو لهم.

لا يقبل الرومانيون أن يغلب جندهم، ولا أن يؤسروا، فقد سلم من القتل ثلاثة آلاف جندي بعد وقعة "كان" وراحوا يهيمون على وجوههم إلا أن مجلس الشيوخ أرسلهم يخدمون في صقلية بدون جرايات، ولا ألقاب شرف ريثما يخرج العدو من إيطاليا وبقي ثمانية آلاف جندي في المعسكر فقبض عليهم، وقد عرض هانيبال أن يعيدهم إلى الحكومة لقاء فدية طفيفة تدفعها عنهم فأبى مجلس الشيوخ أن يفتديهم.

الغلبة- متى كتب الظفر لأحد القواد يصدر مجلس الشيوخ أمره إليه بأن يحتفل بما تم له من الغلبة دليلا على تشريفه فيحتفل بذلك احتفالا دينيا في معبد المشتري فيسير في المقدمة الحكام والشيوخ، ثم تأتي العجلات مملوءة بالغنائم والأسرى مقيدين من أرجلهم، وفي المؤخرة عجلة مذهبة تجرها أربعة جياد يأتي القائد الغازي متوجا بالغار وجنده يتبعونه مترنمين بأدوار دينية يرددون فيها اسم الظفر فيجتاز هذا الموكب المدينة بهذا الاحتفال ويطلع إلى معبد الكابتول، وهناك يضع الغازي أغصان الغار على أرجل المشتري ويحمده على أنه كان سببا في نصرته وعند انتهاء الحفلة تضرب أعناق الأسرى؛ كما فعلوا مع الزعيم الغالي فرسنجتوركس، أي: أن يلقوا الأسير في مطبق (حبس مظلم) يموت جوعا؛ كما فعلوا مع جوكورتا ملك فوميديا، أو أنهم يكتفون بأن يسجنوا الأسير، وقد دام ظفر بولس إميل الذي تغلب على ملك مكدونية (١٦٧) ثلاثة أيام مرت في اليوم الأول ٢٥٠ مركبة تحمل لوحات وتماثيل، وفي الثاني ما غنمه من الأسلحة و٧٥ برميلا من المال، وفي اليوم الثالث ١٢٠ ثورا من ثيران الضحايا والملك برسي في المؤخرة لابسا السواد يحف به خاصته مقيدين وثلاثة أولاد له مدوا أيديهم للأمة يضرعون إليها وأخذوا يحركون شفقتها.

فتح إيطاليا- كان في رومية معبد خاص بالرب جانوس تبقى أبوابه مفتحة مادام الشعب الروماني في الحرب، ولم يغلق هذا المعبد إلا مرة واحدة دامت بضع سنين في خلال خمسمائة سنة التي طال فيها عمر الجمهورية الرومانية وعليه فإن رومية عاشت في حرب دائمة وإذ كان جيشها أقوى جيش في عصره انتهت بها الحال أن تتغلب على جميع الشعوب الأخرى، وأن تفتح العالم القديم.

فبدأت بإخضاع جيرانها أولا فأخضعت اللاتينيين أولا، ثم الشعوب الأخرى النازلة في الجنوب مثل الفولسكيين والأيكيين والهريكيين، ثم الأيتروسكيين والسامنتيين، ثم المدن اليونانية، وكان هذا الفتح من أشق الفتوح وأبطئه بدأ

على عهد الملوك، ولم ينته إلا في سنة ٢٢٦، أي: بعد أربعة قرون[٢٣] وذلك؛ لأنه كان على الرومانيين أن يقاتلوا شعوبا هم وإياهم من عنصر واحد، وهم على شاكلتهم في القوة والنجدة والشجاعة، ومن هذه الشعوب من أبى آباؤها أن تخضع للرومان فما كان من رومية إلا أن أبادتهم فأصبحت سهول فولسكا الغنية قفرا ذا بطائح ومستنقعات، ولم تعد بطائح بونتين صالحة للسكنى، حتى يوم الناس هذا؛ وقد كانت بلاد السامنتيين تعرف بعد ثلاثمائة سنة من الحرب التي وقعت فيها بما بقي فيها من بقايا المتاريس أكثر مما تعرف بخلو جوارها من السكان، وكان فيها ٤٥ معسكرا للإمبراطور دسيوس و٨٦ للقائد فابيوس.

الطرق العسكرية- أقام الرومانيون في جميع إيطاليا طرقا عسكرية ليتسنى لهم أن يبعثوا بالبعوث إلى القاصية، وكانت هذه الطرق عبارة عن طرق مستقيمة مرصوفة بالجير والحجر والرمل وبلغ من متانتها أنها صبرت على الأيام خلال ذاك العهد برمته، وقد أكثر الرومان منها في عامة بلاد إيطاليا فليس فيها بقعة لا ترى فيها إلى اليوم أثرا من آثار تلك الطرق الحربية، وكانوا يسمونها باسم الوالي الذي أمر ببنائها وأهم هذه الطرق طريق أبين الممتد إلى الجنوب إلى بطائح بوتين، حتى ترانتا وبرندس، ثم طريق فلامنين الذي يجتاز طريق أبنين ويصل إلى بحر الأدرياتيك وطريق أورلين الذي يقطع إقليم طوسكانيا آخذا إلى الشمال على طول الشاطئ، حتى بلاد الغال، ثم طريق أملين الممتد من بحر الأدرياتيك مجتازا جميع سهل "بو".

فتح حوض البحر المتوسط

صبغة السياسة الرومانية لم يخطر للرومان أن يفتحوا العالم أولا، حتى أنهم

(٢٣) لم يكن للرومانيين من أخبار جميع هذه الحروب في إيطاليا سوى أساطير لفق أكثرها ليكون منها دليل على رجولية بعض أجداد إحدى الأسر الشريفة

تمهلوا بعد أن بسطوا حكمهم على إيطاليا وقرطاجنة مدة مئة سنة قبل أن يخضعوا الشرق إلى سلطانهم والظاهر أنهم فتحوا فتوحاتهم دون أن يختطوا لها خطة من قبل؛ لأن مصلحتهم كلهم كانت بأن يفتحوا الفتوح ويدوخوا الممالك.

فكان يرى الحكام، وهم قواد الجيوش من الفتوحات فرصة لنيل علائم التشريف بالظفر الذي يكتب لهم ويكونون على ثقة من الاشتهار بين أمتهم والتأثير فيها، وكان أعظم رجال الحكومة في رومية مثل بابيريوس وفابيوس وسيبيون الأول والثاني وكاتو من القواد الذين فتحوا الفتوح وكتب الظفر لأعلامهم ويربح الأشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ إذا كثر سواد رعايا رومية فيذهبون؛ كما يذهب الحكام لقبول احتراماتهم وهداياهم، أما الفرسان: أي: الصيارف والتجار وأرباب المشاريع فإن كل فتح حديث كان لهم بمثابة مشروع جديد يستثمرونه.

والأمة نفسها تنتفع من الغنائم التي تؤخذ من العدو، وقد وقعت الضرائب بصورة دائمية بعد أن دخلت خزانة الدولة الرومانية كنوز ملك مكدونية، أما الجنود فكانوا يقبضون رواتب عالية من قوادهم، وقد أخذوا يحاربون البلاد الغنية دع عنك ما كانوا يمدون إليه أيديهم من مال المغلوبين، وعلى هذا، فقد فتح الرومان العالم للفوائد المادية أكثر من المجد.

قرطاجنة- لما امتد سلطان رومية إلى جزيرة صقلية حملت على قرطاجنة وعندئذ بدأت الحروب الفينيقية فحدثت ثلاث حروب فكانت الحرب الأولى من سنة ٢٦٤ - ٢٤١ حربا بحرية، ولا نعرف عنها شيئا إلا ما روته الأساطير بعد زمن من حدوثها فذكروا أن الرومانيين لم يملكوا سفنا حربية قط وأنهم جعلوا سفنهم على مثال سفينة قرطاجنة وقامت بالعرض في الشاطئ فأخذوا يمرنون مجذفيهم على استعمال المجاذيف على اليابسة، وهذه القصة لا أساس لها؛ لأن بحرية رومية قديمة، أما الرومان، فقد نقلوا أخبار هذه الحروب؛ كما يلي غلب

القنصل دويليوس الأسطول القرطاجني في ميلي (٢٦٠)، وكان نزل إلى إفريقية من البحر جيش روماني على عهد الحاكم رجولوس فغلب وتمزق شذر مذر (٢٥٥) وأسر رجولوس وأرسل إلى رومية ليعقد الصلح وقرر مجلس الشيوخ إباء الصلح فرجع هذا إلى قرطاجنة، حيث قضى نحبه في العذاب، ثم حمي وطيس الحرب في صقلية فكتبت الغلبة للأسطول القرطاجني أولا (٢٤٩)، ثم دمر بالقرب من جزائر إيعات (٢٤١) وبعد ذلك حوصر هاملكار في جبل أركيس فوقع على الصلح ودخلت صقلية في حوزة رومية.

ونشبت الحرب الثانية (من سنة ٢١٨ إلى ٢٠١)، وكان قائدها هانيبال من نسل الأسرة القرطاجنية صاحبة الحول والسطوة في بادكاس، وكان قاد أبوه هاملكار إلى صقلية جيشا قرطاجنيا في الحرب الفينيقية الأولى، ثم عهد إليه أن يفتح إسبانيا، وكان هانيبال إذ ذاك طفلا فصحبه أبوه، وكانت العادة أن تقدم الضحايا للأرباب عندما يغادر الجيش البلاد ويقال: إن هاملكار بعد تقديم الضحايا حلف ابنه أن يكون أبدا عدوا أزرق للرومان.

ربي هانيبال وسط الجند فأصبح أحسن قائد وأمهر راجل في حرب، ولم يكن يعرف من الحياة إلا أنه محارب، وكانت عنايته منصرفة إلى تعهد حصانه وأسلحته واشتهر أمره كثيرا، حتى إذا هلك القائد أسدروبال الذي كان يقود الجيش الإسباني انتخبوه قائدا عليهم دون أن ينتظروا أوامر مجلس الأعيان القرطاجني في ذلك وهكذا أصبح هانيبال في الحادية والعشرين من عمره قائد جيش لا يطاع أحد سواه فدخل غمار الحرب على الرغم من مجلس الشيوخ في قرطاجنة وراح يحاصر ساعونت حليفة رومية فاستولى عليها وخربها.

ومما كتب به المجد لهانيبال أنه عوضا عن أن ينتظر الرومانيين جرأ على أن يقتحمهم في عقر دارهم من بلاد إيطاليا، ولم يكن له أسطول يحمله وجيشه إليهم فعزم على اجتياز البلاد إليهم برا فقطع جبال البيرنية ونهر الرون وجبال الألب وضمن لنفسه محالفة الشعوب الغالية وقطع جبال البيرنية دون أن يلقى

فيها مقاومة في جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل من الجنود المستأجرة من الإفريقيين والإسبانيين ومعه سبعة وثلاثون فيلا مدربة على الحرب، وقد طمع بعض الشعب الغالي أن يحولوا بينه وبين المسير في نهر الرون فأرسل هو فرقة من جيشه تقطع النهر على مسافة بضعة أميال من أعلاه وتهاجم الغاليين من ورائهم على حين يجتاز معظم جيشه النهر على زوارق وتجر الفيلة على أرمات كبيرة. ثم صعد وادي أيزو وانتهى إلى جبال الألب في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) فقطعها على ما كانت مغشاة به من الثلوج، وعلى الرغم من غارة السكان الجبليين عليه فوقع كثير من الرجال والخيول في الهاويات وقضى تسعة أيام لبلوغ قمة جبل الألب وصعب عليه النزول؛ لأن المضيق الذي كان يجب عليهم السير فيه غطته الثلوج والصقيع فاقتضى لجيشه أن يتخذ له طريقا يحفره في الصخر، ولم يصل إلى السهل إلا وقد أصبح جيشه نصف ما كان، ثم لقي هانيبال ثلاثة جيوش رومانية في مسافة متدانية على شاطئ نهر تيسين وضفة نهر تريبيا وبالقرب من بحيرة ترازيمين في أرتروريا فهزمها كلها، وكان كلما تقدم إلى الأمام يزداد جيشه وينضم المحاربون من الغاليين "إيطاليا الشمالية" تحت لوائه ليخدموه وينصروه على الرومانيين.

فاجتاز هانيبال إيطاليا واتخذ لنزوله إقليم أبوليا في الجهة الثانية لرومية فهاجمه فيها الجيش الروماني، وكان جيشه نصف جيش، ولكن كان معه فرسانه الإفريقيون يركبون خيولا سريعة، وقد رابط في سهل "كان" بحيث جعل الرومانيين يقابلون بوجوههم الشمس والتراب الذي تثيره الريح فأحاط الفرسان بالجيش الروماني إحاطة السوار بالمعصم وذبحوه عن آخره (٢١٦)، وكان يظن أن هانيبال سيزحف على رومية إلا أنه لم يكن على تعبئة تامة وهكذا ظل هانيبال في إيطاليا الجنوبية تسع سنين يحاول أن يفصل عن رومية الشعوب المحالفة لها، ولم ينجح إلا بالاستيلاء على بضع مدن حاصرها الرومان وخربوها.

وبعد ذلك سافر أخوه أسدروبال في جيش إسبانيا للالتحاق به فوصل إلى

أوساط بلاد إيطاليا فسار الجيشان القرطاجنيان أحدهما على الآخر يقابل كلا منهما جيش روماني بقيادة أحد حكام الرومان، وكان نيرون محاذيا لهانيبال فجرأ على قطع إيطاليا الوسطى لينضم إلى رصيفه مقابل أسدروبال، ولقد سمع أسدروبال في صبيحة ذات يوم الأبواق تبوق مرتين في المعسكر الروماني، وكان في ذلك إشارة إلى أنه كان في المعسكر قنصلان، أو حاكمان فوقع في نفسه أن أخاه غلب وانهزم، وأن الرومان يطاردونه وأنه قتل وذبح جيشه عن بكرة أبيه، ثم رجع نيرون إلى الجيش الذي غادره أمام هانيبال وألقى في معسكر قرطاجنة رأس أسدروبال (٢٠٧).

فلم يبق لهانيبال غير قوته يعتصم بها وأقام خمس سنين في إقليم كالابرا، وما أكره على الخروج من إيطاليا إلا لما علم بأن جيشا رومانيا كان نزل إلى إفريقية وأخذ يهدد قرطاجنة فذبح هانيبال الجند الإيطالي الذي أبى الالتحاق به وركب البحر إلى إفريقية ٢٠٣) وانتهت الحرب بوقعة زاما (٢٠٢)، وكان هانيبال اعتمد بحسب عادته ان يسوق الجيش الروماني إلى الدخول في صفوفه، ولكن القائد الروماني سبيون ثبت مع جيشه. وما كانت إلا هجمة وأختها، حتى ركب هذا أكتاف عدوه وهزم جيشه شر هزيمة.

فاضطرت قرطاجنة إلى عقد الصلح وتنازلت عن كل ما تملكه خارج إفريقية وتركت إسبانيا للرومانيين واضطرت زيادة على ذلك إلى تسليم سفنها وفيلتها، وأن تدفع مبلغا من المال يربو على خمسين مليونا من الفرنكات وتعهدت بأن لا تعلن حربا قبل الاستئذان من رومية. وكانت عاقبة الحرب الثالثة (من سنة ١٤٩ إلى ١٤٦) القضاء على قرطاجنة فطال حصار الرومان كثيرا لها، حتى أخذوها عنوة وجعلوا عاليها سافلها وفتحوا إقليمها وأعمالها وجعلوا ولاية إفريقية خاضعة لسلطانهم

مكدونية والشرق- كان ملوك اليونان أحلاف قواد الإسكندر اقتسموا الشرق وحارب أعظمهم سطوة مملكة رومية وغلبوا مثل ملك مكدونية فيليب

سنة ١٩٧ وابنه برسي سنة ١٦٨ وملك سورية أنطونيوس سنة ١٩٠ وهكذا خلا الجو للرومانيين فأخذوا يفتحون البلاد التي يرونها تناسبهم واحدة بعد الأخرى فافتتحوا مكدونية سنة ١٤٨ ومملكة فرغانة (١٢٩) وبقية آسيا (من سنة ٧٤ إلى ٦٤) بعد هزيمة ميتريداتس ومصر (٣٠)، وما عدا مكدونية لم ينتدب الشرق لقتالهم غير جنود مستأجرة، أو برابرة غير منظمين يتفرقون أيدي سبأ لأول صدمة يلقونها، ولم يقتل في الغلبة العظمى على أنطيوشوس في ماليزيا سوى ٣٥٠ جنديا رومانيا وافتخر سيللا بأنه لم يفقد من جيشه في شيرونيا سوى اثني عشر جنديا.

ودخل الرعب قلوب سائر الملوك فخضعوا لسلطان مجلس الشيوخ من دون مقاومة فإن أنطيوشوس ملك سورية بعد أن فتح جزءا من ديار مصر جاءه بوبيليوس مندوبا من قبل مجلس الشيوخ يأمره بالجلاء عما بسط يده عليه من البلاد فتردد أنطيوشوس، وكان، بيد بوبيليوس محجنة فاختط بها في الأرض خطوطا حول ملك سورية، وقال له: أجب مجلس الشيوخ قبل أن تخرج من هذه الدائرة التي رسمها لك، فلم يسع أنطيوشوس إلا الخضوع وألقى حبل مصر على غاربها وجاء بروزياس ملك بيتنيا، وقد حلق رأسه ولبس ثياب العبد المعتق وركع أمام مجلس الشيوخ الروماني وحاول ميتريداتس ملك بون أن يقاوم وحده فطرد من بلاده بعد حرب خمس وعشرين سنة (٦٣ - ٨٩) واضطر إلى أن يتناول السم ويقول: بيدي لا بيد عمرو.

إسبانيا وغاليا الجنوبية- لم يستطع الرومان أن يتغلبوا على الشعوب البربرية والمحاربين في الغرب بأدنى سبب؛ كما تغلبوا على غيرهم فقضوا قرنا لإخضاع إسبانيا لسلطاتهم، وقد ناوشهم الحرب في جبال البرتقال رجل من الرعاة اسمه فيرياث (١٤٩ - ١٣٩) وهزم خمسة جيوش وأكره أحد قناصل الرومان على عقد الصلح معه، ولم يتخلص مجلس الشيوخ من شره إلا بقتله وأهلك الأريفاكيون، وهم شعب صغير في الشمال الشرقي عدة جيوش رومانية

واقتضى لرومية أن ترسل أحد قوادها سبيون للاستيلاء على عاصمة تلك البلاد، وهي المدينة الصغرى المسماة نومابس، وكانت الشعوب الصغيرة الحاملة في صيتها المعتصمة في جبال جين كثيرا ما تناوش الرومانيين القتال، وكان الغاليون أشد العداء على رومية، وهم منتشرون في جميع سهل يو ويزحفون على إيطاليا الجنوبية، وقد استولت إحدى عصاباتهم على رومية سنة ٣٩٠، فكان جندهم يدخل الذعر على قلوب الجند الروماني بأحجامهم الضخمة البيضاء وسبلاتهم الطويلة الشقراء وعيونهم الزرقاء وأصواتهم التي تعج فيبلغ صداها عنان السماء والخوف يستولي على رومية عندما يبلغها مجيء العسكر الغالي فيصدر مجلس الشيوخ أمره بجمع عامة الجند.

وكانت هذه الحروب شديدة جدا ولكنها تضع أوزارها في الحال ففي الحرب الأولى استولى الرومان على إقليم غاليا المعروف بسيرالبين، أي: إيطاليا الشمالية ونشبت الحرب الثانية (١٢٠) للدفاع عن مارسيليا حليفة رومية فدمر الجيش الغالي وأخضعت رومية بلاد الرون وشاطئ البحر الرومي (إقليم لانكدوك وبروفانس ودوفينه).

عواقب الفتوح

سريان الاصطلاحات اليونانية أن الفتوح هي التي دعت الرومان إلى رؤية الروم والمشارقة عن أمم فاستوطن رومية ألوف من اليونان جاؤوها أسرى، أو للاتجار وتعاطي بعضهم الطب وآخرون التعليم وغيرهم العرافة وغيرهم التمثيل، وكان القواد والضباط والجنود والرومانيون يعيشون في آسيا وسط الشعوب التي تتكلم اليونانية فتخلقوا بأخلاق اليونان وهكذا عرف الرومان عادات حديثة ومعتقدات جديدة لم يكن لهم بها عهد وأخذوا يعملون بها على التدريج، وقد بدأ هذا التبدل بعد الحرب المكدونية الأولى (٢٠٠) ودام إلى أواخر المملكة الرومانية.

القائدان كاتون وسبيون- بينا كانت الأخلاق تتغير اشتهر أحد رجالهم كاتون باحتفاظه بعادات أسلافه ولد هذا الرجل سنة ٢٥٢ في بلدة توسكولوم وقضى شبيبته في الحرث والكرث، وفي السابعة عشرة من سنه دخل في الجيش بحسب العادة المتبعة واشترك في عامة الحملات على هانيبال، ولم يكن من الأشراف ولكنه اشتهر بقوته واستقامته وزهده، وقد انتخب مرات وزيرا للمالية وناظرا للأبنية والملاعب وقاضيا وقنصلا ووكيلا للإحصاء وشغل مناصب الشرف عامة، وكان في جميع حالاته على قدم قدماء الرومان قاسيا جافا محتشما، وقد وبخ قنصله عندما كان وزيرا للمالية، وكان القنصل سبيون غالب هانيبال فأجابه لست في حاجة إلى ناظر مدقق مثلك إلى هذا الحد، ولما عين ناظرا للأبنية والملاعب في ساردينيا أبى أن يمس المال الذي دفعته إليه تلك الولاية للنفقة، ولما صار قنصلا تكلم بشدة عن قانون أوبيا القاضي بالحظر على النساء الرومانيات بأن لا يتزين بالحلي الثمينة فظفر النساء بمطلبهن وألغى ذاك القانون، ولما ذهب لقيادة الجيش الروماني في إسبانيا أتى بأموال طائلة دفعها إلى خزانة الإمبراطورية، وباع حصانه عندما ركب البحر ليقتصد من نفقات نقله، ولما عين وكيلا للإحصاء أسقط من قائمة مجلس الشيوخ عدة من الأعاظم لما عرفوا به من الترف والبذخ وأحال جباية الأموال الأميرية بثمن غال وقدر حلي النساء وزينتهن وعرياتهن بعشرة أضعاف ما تساوي وبعد أن خفقت له أعلام النصر لم يستنكف من الخدمة في الجيش الروماني ضابطا بسيطا.

صرف كاتون حياته في مناهضة الأشراف والغض من بذخهم وترفهم وتجملهم وحمل خاصة على أمثال القائد سبيون متهما إياهم بالاختلاس إلا أنه لم ينج هو أيضا من إلصاق التهم به فاتهم أربعا وأربعين مرة ولكنه كان يبرأ كلما اتهم، وكان يحرث أرضه مع عبيده ويواكلهم ويضربهم بالعصي متى رآهم يحيدون عن جادة الصواب، وقد ذكر في رسالته في الزراعة التي كتبها إلى ابنه جميع ما كان يأتي الفلاحين الرومانيين من الإيرادات ويرى أن من الواجب

على المرء أن يغتني، وكان يقول "للأرملة أن تصرف من مالها، وعلى الرجل أن يريد وكل من شهدت دفاتر حساباته بعد موته أنه ربح أكثر مما ورث جدير بالشهرة وملهم من الأرباب"، ولما رأى أن الزراعة لا تأتيه بأرباح طائلة أخذ يقرض ماله ليجهز به سفنا تجارية واتخذ له خمسين شريكا جهزوا كلهم معا خمسين سفينة ليتقاسموا بينهم الأخطار التي تنال سفنهم والأرباح التي تأتيهم بها، وعلى هذا كان كاتون زارعا ماهرا وجنديا عظيما عدوا للبذخ حريصا على الكسب فهو مثال الروماني الأصيل وأنموذج الفضيلة والثبات.

وعلى العكس منه كان قائد سبيون مثالا للاهتمام بالفنون والأفكار الفلسفية اليونانية، فكان سبيون الذي استولى على قرطاجنة ويومابس يتكلم باليونانية، وهو صديق المؤرخ اليوناني بوليب الذي أمسك في رومية رهينة، ولم يكن يهتم بجمع المال، وقد دفع إلى شقيقاته دفعة واحدة مبلغا من المال كان عليه أن لا يدفعه إليهن إلا في أوقات مختلفة وتنازل لأخيه، وكان أقل منه مالا عن حصته في إرث أبيه، ولم يخلف بعده سوى كمية قليلة جدا من الأواني الذهبية والفضية.

الأخلاق القديمة- مضى زمن طويل على قدماء الرومانيين، وهم يتوفرون على زرع حقولهم وقتال عدوهم والقيام بفرائض دينهم، حتى كانوا حقا الريفيين العاملين الجفاة فكانوا يزرعون جانبا صغيرا من إقليم لاتيوم أولاسابين، وهم من نسل اللاتين والإيطاليين الذين تغلبت عليهم رومية، وقد صور لنا الشيخ كاتون في كتاب له في الزراعة شيئا من أخلاقهم بقوله: كان أجدادنا إذا أرادوا الثناء على رجل يصفونه بأنه زارع ماهر وحراث مجيد، وهذا غاية ما يمدح به إنسان[٢٤].

---

(٢٤)، وقد أورد أيضا شيئا من أمثالهم القديمة منها "أدنى الزراع من يبتاع شيئا مما تغله له أرضه" "وأحط المقتصدين من يعمل في النهار ما يتأتى له أن يعمله في الليل"

فكان هؤلاء الزراع أشداء في أعمالهم وأهل طمع في مكاسبهم وتنظيم في شؤونهم واقتصاد في نفقاتهم وبذلك كانوا قوة الجيش الرومانية ولطالما تألف منهم مجلس الأمة أيضا، وكانت لهم القوة العظمى في الانتخابات فيجيء الأشراف الذين يطمعون أن ينتخبوا حكاما إلى ساحة السوق ليهزوا أيدي هؤلاء الفلاحين رأى أحد المرشحين أنفسهم للانتخابات يد أحد الحراثين، وهي شثنة غليظة فسأله هل تمشي على يديك؟، وكان السائل من الأشراف ينتسب إلى أسرة كبيرة ولكنه لم ينتخب.

سكن الرومان بيوتا ضيقة ذات طبقة واحدة لا نظام في بنائها، وكان الأتريوم أهم ناحية من الدار وفيه المكان المقدس، وهو مكشوف من أعلاه ينزل منه ماء المطر والأثاث عبارة عن بضعة صناديق ومقاعد من الخشب وطعامه بسيط مؤلف خاصة من حساء معمول بالبر، ومن خبز وبعض بقول، وما كانوا يتناولون اللحوم إلا في الأعياد، وما شرب النساء الخمر قط والرجال يتناولون منه على الندرة ولباسهم عبارة عن قميص يلبسون فوقه رداء من صوف زمن البرد ويلبس الوطنيون في أيام الأعياد حلة من الصوف مزينة من جهة العنق ويلبسون في أرجلهم نعالا مناطة بسيور ويقصون حياتهم في التوفر على أعمالهم فالرجال يصطادون دون أن يحرثوا والنساء يغزلن الصوف وينسجن الأقمشة ويطحن الحبوب ليجعلنها برا، ولم يكن للرومانيين من ضروب التسلية إلا أن يذهبوا كل تسعة أيام إلى السوق، أو يحضروا الأعياد التي تقام إكراما للأرباب.

كان يرى قدماء الرومان أن الرجل الشديد هو غاية ما تطمح إليه الآمال ويقال: إن سيسيانوس كان يسوق محراثه بنفسه عندما أتاه نواب الأمة من قبل مجلس الشيوخ يدفعون إليه الأمر بتنصيبه، ولم يكن عند فابريسيوس من الأواني غير كأس ومملحة من فضة، وكان كوريوس وأنتاتوس، وهو غالب السامنتيين جالسا على مقعد يأكل بقولا في قصعة من خشب عندما أتاه مندوبو السامنتيين ليقدموا إليه المال فقال لهم: اذهبوا وقولوا للسامنتيين إن

كوريوس يؤثر أن يقود من عندهم ذهب أكثر مما يؤثر أن يكون هو مالكا له هذه هي بعض الأقاصيص التي يرونها عن قواد الأزمنة القديمة وسواء كانت حقيقية، أو ملفقة فإنها تدل على ما كان الرومانيون بعد يذهبون إليه بشأن قدماء أجدادهم.

الأخلاق الجديدة- أخذ كثير من الرومانيين بعد القرن الثاني ولاسيما طبقة الإشراف يقلدون الأجانب، وكان زعماؤهم قواد رأوا بلاد اليونان والشرق عن أمم فكتبت الغلبة لسبيون على ملك سورية ولفلامنيوس وبولس إميل على ملوك مكدونية، ثم للوكلوس على ملك أرمينية فعزفت نفوسهم على الحياة القاسية الصعبة التي كان عليها أجدادهم وأخذوا يسيرون في حياتهم على البذخ والرفاهية ومازال الحال كذلك، حتى نسج على منوالهم عامة النبلاء والأغنياء بحيث لم يطلع فجر القرن الأول، حتى لم يعد في إيطاليا إلا سادة عظام يعيشون المعيشة الشرقية، أو اليونانية.

يرى الشرقيون من دواعي العجب أن يعرضوا للأنظار الأقمشة البديعة والأحجار الكريمة وأثاث الفضة وأواني الذهب، وأن يستكثروا في بيوتهم من الخدم على غير طائل، وأن ينشروا على الشعب المجتمع دراهم ليدهشوهم[٢٥] فكانوا يرغبون في الأعلاق النفيسة النادرة أكثر من رغبتهم في النفائس الجميلة المناسبة.

وأصبح الرومان على شدة عجبهم وضعف استعدادهم في الصناعات ذوق في هذا الضرب من البذخ فكانوا قلما يحفلون بالجمال، أو بالموافق، ولم يعرفوا قط إلا الأبهة والفخفخة فأنشئوا لهم بيوتا ذات حدائق متسعة وحشروا إليها التماثيل وأقاموا فيها المصايف الزاهية التي تمتد إلى البحر وسط الحدائق

---

(٢٥) تجد مثالا من هذا الذوق الشرقي الأبهة الباطلة التي تتمثل لك في حكايات الف ليلة وليلة

المتسعة وأكثروا من الخدم والحشم وأخذوا هم ونساءهم يعتاضون عن ألبستهم المعمولة من الصوف بالشفوف (برنجك - كريشة) وأكسية الحرير والقصب ويفرشون في ولائمهم بسطا مطرزة وأدثرة من الأرجوان وأواني من ذهب وفضة (وكان عند الحاكم سيللا مئة وخمسون صحفة من الفضة ووزن ما عند ماركوس وروزوس من الأواني الفضية عشرة آلاف ليرة) وأد ظل العامة يأكلون قعودا بحسب عادة الشعوب الإيطالية القديمة فالخاصة من الأغنياء اتبعوا العادة الشرقية في الأكل مضطجعين على سررهم، ثم سرت عادة التأنق في المآكل على الأسلوب الشرقي والاستكثار في المطاعم من الأبازير والصباغ (سلسا) والصيد والسمك الغريب ومخاخ الطواويس والسنة الطيور.

واستحكم منهم السرف؟ حتى تقدمات أحد الحكام سنة ١٥٢، وقد ذكر في وصيته قوله "لما لم يكن الإكرام الحقيقي عبارة عن أبهة باطلة، بل هو لتذكر أقدار المتوفى وأجداده فأنا آمر أولادي أن لا ينفقوا على جنازتي أكثر من مليون آس (مئة ألف فرنك)".

العلوم الأدبية اليونانية- رأى الرومانيون في بلاد اليونان المصانع والتماثيل والألواح التي كانت منذ قرون تغص بها المدن وعرفوا الأدباء والفلاسفة فصار لبعضهم ذوق في الصنائع النفيسة وأولع آخرون بالحياة العقلية فجعل أمثال القائد سبيون حولهم أناسا من اليونان المنورين، ولم تطمح نفس بولس إميل من جميع الغنائم التي غنمها جيشه من مكدونية إلا إلى الاستيلاء على مملكة الملك ترسي وعهد بتربية أولاده إلى أساتذة يونان وبذلك صارت الكتابة والتكلم باللغة اليونانية من الأمور المستحسنة في رومية[٣٦] وأراد الأشراف أن يظهروا مظهر العارفين بالتصوير والنقش فجلبوا بالألوف التماثيل وقلر كورنت المشهور

---

(٣٦) ولذلك كان يخاف الشيخ كاتون عادية اليونان، وقد كتب لابنه ما يأتي اقول إن ما لاحظته في اثينة أن هذا الجنس من أخبث الأجناس وأصعبها مراسا ألا فاستمع لما أقول؛ كما تسمع لهاتف رباني ألا إن هذه الأمة اليونانية كلما اتتنا بصناعاتها تفسدنا كلها

وملئوا بها بيوتهم ودخل في ملك الحاكم فريس شيء كثير من النفائس والأعلاق جعلها في رواق، وكانت مما نهبه من صقلية.

وهكذا أخذ الرومان على التدريج من الفنون ظواهرها، ومن الآداب اليونانية قشورها وسمي هذا التهذيب الجديد فن الأدب معارضة للخشونة التي كان عليها أهل الريف من الرومان ومع هذا لم تكن إلا قشورا فقط، فلم يعرف الرومان أن الجمال والحقيقة يرغب فيهما لذاتهما، بل كانت الصناعات والعلوم عندهم أمورا يقصد بها الزينة والبذخ ليس إلا، ولم يكن الرومان على عهد شيشرون يعتبرون من أهل الأعمال غير الجندي والحراث والسياسي والتاجر، أو المحامي، أما الكتابة والتأليف والاشتغال بالعلم والفلسفة والنقد فكل ذلك كان يسمى عندهم بطالة، وما قط أصاب أرباب الفنون والعلماء من الاعتبار في رومية ما يساويهم بتاجر غني، قال لوسين أحد كتاب اليونان: "متى صرت مثل فيدياس النقاش اليوناني تصنع ألف قطعة بديعة من النقوش لا يرغب أحد أن يتقبل مثالك لأنك مهما بلغت من الخدمة لا يطلق عليك إلا لقب صانع ولست إذ ذاك غير رجل يعيش بكد يمينه".

لوكلوس ولد لوكلوس- وهو مثال الروماني الحديث سنة ١٤٥ من أسرة شريفة وغنية جدا ولذا سهل دخوله في سلك أرباب المناصب والشرف واشتهر في غزواته الأولى بأنه يعطف على المغلوبين ويعاملهم باللطف، ثم عين قنصلا وقاد الجيش الذي انتدب لقتال ميتريداتس، وقد رأى سكان آسيا ساخطين من كثرة السرقة وفظاعة العشارين فعني بجعل حد لتلك الأعمال وحظر على جنده أن ينهبوا المدن المغلوبة وبذلك جلب لنفسه حب الآسياويين الباطل وبغض العشارين والجنود الخطر فدست الدسائس لتستدعيه حكومته، وكان قد هزم ميتريداتس وأخذ يطارده، وهو سائر إلى خليفة ملك أرمينية، وقد هزم جيشا من البرابرة بجيشه الصغير المؤلف من عشرين ألف مقاتل فسلبت منه القيادة وسلمت إلى بومبي نديم العشارين وحبيبهم.

وإذ ذاك اعتزل لوكلوس الأعمال للاستمتاع بما جمعه في آسيا من الثروة وأصبح يملك في أحياء رومية حدائق غلبا وله في نابولي مصيف قام في البحر مبنيا بالحجر الصلد، وفي توسكولوم قصر صيفي وفيه متحف للأعلاق والنفائس، فكان يقضي الصيف في توسكولوم بين أصحابه وجماعة العلماء وأهل الأدب يطالع مصنفات اليونان ويبحث في الأدب والفلسفة وتروى عن بذخه حكايات كثيرة منها أنه كان ذات يوم يتغذى وحده فرأى مائدته أكثر بساطة من العادة فوبخ الطاهي فاعتذر له بقوله إن عدم وجود الضيوف هو الذي دعاه إلى تقليل المآكل فأجابه لوكلوس "أما علمت أن يتغذى اليوم عند لوكلوس؟" ودعا يوما قيصر وشيشرون فقبلا دعوته على شرط أن لا يغير شيئا من عادته فاكتفى لوكلوس بأن، قال لأحد الخدمة: فقط اجعل الطعام في قاعة أبولون، وكانت المأدبة على غاية من التأنق بحيث عجب منه المدعوان، ولما سئل عن إخلاله بشرط الضيافة، قال: إنه لم يأمر بشيء، وإن نفقات طعامه محددة بحسب القاعة التي تجعل فيها، وإن بسط الموائد في قاعة أبولون لا يمكن أن يكلف اقل من خمسين ألف فرنك.

وظل لوكلوس في رومية يمثل الأخلاق الجديدة؛ كما كان كاتون يمثل الأخلاق القديمة ويرى قدماء الرومان أن كاتون هو الروماني الصالح، وأن لوكلوس هو الروماني الفاسد ومع هذا، فقد كان لوكلوس يبتعد عن عادة الأجداد، ولذلك كان واسع المدارك حسن التربية لطيف المأتى مفطورا على العطف على الخدم والرعايا.

الانقلاب الديني والعقلي

العبادات الجديدة- لم يكن بين أرباب الرومان وأرباب اليونان من شبه، حتى في الأسماء ومع هذا اعتقد اليونان بأن معظم الأرباب المعبودة في رومية كانت أربابهم أحبوا أن يعترفوا بأنها كذلك وإلى ذاك العهد لم يكن للأرباب الرومانية

شكل خاص، ولا تاريخ معين، وهذا ما دعا إلى الارتباك في حالتها فجرى تمثيل كل رب روماني على صورة رب يوناني واخترعوا له تاريخا وحكايات.

فخلطوا بين المشترى اللاتيني وزيوس اليوناني وجونون مع هيرا وميتيرفا ربة الذاكرة مع بالاس ربة الحكمة وديان زوجة جانوس مع أرتيمس الصيادة البديعة ومزجوا هركول رب السواد بهير كليس الغالب على الغيلان وهكذا دخلت الميثولوجيا اليونانية تحت أسماء لاتينية واستحال أرباب رومية إلى أرباب يونان امتزجت الرباب بعضها ببعض، حتى اعتدنا أن نطلق على الأرباب اليونانية أسماء لاتينية فلا نزال نقول أرتيمس ديان وبالاس منيرفا وبالميثولوجيا اليونانية اعتاد الرومان أن يصوروا أربابهم في تماثيل؛ كما اقتبسوا أيضا بعض الاحتفالات اليونانية، وكانت الحكومة الرومانية أدخلت إلى بلادها عبادة أبولون وبدأ بعض الأفراد يعبدون باخوس رب الكرمة ويحتفل من يعبدون باخوس بعبادته من الليل سرا، ولا يطلعون أحدا على خفايا العبادة الباخوسية وأخذ المجلس يحقق فرأى المتعبدين بهذه العبادة سبعمائة شخص بين رجال ونساء اشتركوا معا في هذه الأسرار فقضى عليهم بالموت.

ثم إن الرومان أخذوا أيضا يعبدون ما يعبد شعوب الشرق، فقد كان سنة ٢٢٠ في رومية معبد للرب سيرابيس المصري فأمر مجلس الشيوخ بهدمه، فلم يجسر أحد الفعلة على ذلك وبقي المعبد لا يمس بسوء، حتى جاء القنصل بنفسه فضرب أبوابه بالفأس.

وبعد سنين، أي: في سنة ٢٠٤ خلال حرب هانيبال بعث مجلس الشيوخ إلى آسيا الصغرى بوفد للبحث عن المعبودة سيبيل، وكانت هذه الأم الكبرى؛ كما كانوا يدعونها مصورة على حجر أسود فأتى بها مندوبو مجلس الشيوخ باحتفال حافل وجعلوها في رومية، وقد لحق بها كهنتها وأخذوا يطوفون الشوارع على أصوات المزامير والصنوج لابسين ألبسة شرقية، وهم يستوكفون الأكف على الأبواب.

ثم غصت بلاد إيطاليا بالسحرة من الكلدان، ولم يكن العامة يعتقدون

وحدهم بهؤلاء العرافين، ولما هدد برابرة السمير مدينة رومية سنة ١٠٤ تقدمت عرافة من سورية اسمها مارثا فعرضت على مجلس الشيوخ الروماني بأنها تتوسط في غلبة رومية على عدوتها فطردها مجلس الشيوخ، ولكن النساء الرومانيات بعثن بها إلى المعسكر فأبقاها ماريوس القائد العام لديه، وما فتيء يأخذ رأيها إلى أن وضعت الحرب أوزارها ورأى سيللا في نومه ربة كابودسيا فعمل بنصيحتها وسار إلى إيطاليا.

السفسطائيون- لم يكن يأتي إلى رومية كهنة وعرافون فقط، بل كان ينزل فيها فلاسفة يحتقرون الدين القديم، ومن أشهرهم كارنياد سفير الأثينيين فإنه كان يصرح بأفكاره في رومية أمام الجمهور فيخف شبان الرومان إلى سماع أقواله، حتى أراده مجلس الشيوخ على الخروج من المدينة إلا أن الفلاسفة ظلوا على بث مبادئهم في رودس وأثينة، حتى أصبح من السنن المألوفة أن يبعث الرومان بفتيانهم إلى تينك المدينتين يتعلمون فيهما الفلسفة.

وفي القرن الثالث قبل المسيح ألف إيفهمير اليوناني كتابا ينفي فيه وجود الأرباب وأنها ليست إلا رجالا ألههم الناس، حتى أن المشتري نفسه كان ملكا على كريت فانتشر كتابه، أي: انتشار ونقله الشاعر أنيوس باللاتينية، وعلى هذا النحو أخذ أشراف رومية يسخرون من أربابهم، ولم يبقوا من الدين القديم إلا على مراسيمه وظواهره[٢٧]، وكان أهل الطبقة العالية في المجتمع الروماني مدة زهاء قرن يعتقدون بالخرافات اعتقاد سفسطائيين لا يؤمنون بشيء.

الحياة العقلية- كان غاية ما يعلم اليونان الأقدمون أولادهم القراءة فقط في الزمن الذي كان فيه بوليب في رومية (قبل سنة ١٥٠) ويعهد المحدثون من الرومان بتعليم أبنائهم إلى مربين من اليونان، ولذلك افتتح أناس من اليونان في رومية مدارس لتعليم الشعر والبلاغة والموسيقى، وكانت الأسرات الكبرى تنقسم

---

(٢٧) قال شيشرون يجب أن نبقي على عادة أخذ الطالع لئلا نمس العامة في معتقداتهم

إلى أناس يتعلمون على الطريقة القديمة وآخرين على الحديثة، ولكن بقي في الأذهان شيء من الموسيقى والرقص فكانوا ينظرون إليهما بأنهما من الصناعات المهينة بمن يتعاطاها إذا كان كريم المحتد، قال سبيون أملين حامي اليونان في كلامه على مدرسة رقص كان يختلف إليها بنون وبنات من الخاصة: ما كنت أتوهم عندما ذكر لي ذلك أن أناسا من الأشراف يعلمون مثل هذه الأمور لأولادهم، ولما أخذوا بيدي إلى مدرسة الرقص رأيت فيها زهاء خمسمائة صبي وست، وفي جملتهم ولدا شريفا في الثانية عشرة من عمره، وهو أحد المرشحين للانتخابات يرقص على نغمات البوق "كروتال"، وقال سالوست في كلامه على عقيلة رومانية قليلة الاعتبار: إنها كانت تضرب على الطنبور وترقص أحسن مما يليق بامرأة محتشمة".

التربية- استهوى نساء الرومان حب الأديان الشرقية والبذخ الشرقي في أسرع ما يكون فكن يذهبن زرافات زرافات إلى معابد باخوس ومساجد إيزيس، وقد سنت لهن قوانين ليمنعن بها من لبس الألبسة الثمينة وركوب العجلات واتخاذ الحلي والجواهر، ولم تلبث أن ألغيت فصار النساء في حل من أن يلبسن كالرجال ما يشأن وانقطع النساء النبيلات عن العمل والجلوس في بيوتهن وأنشأن يخرجن في أبهة ويختلفن إلى دور التمثيل والملاعب والحمامات والمجتمعات وإذ كن بلا عمل، ومن الجهل على جانب سرى الفساد إليهن في الحال، حتى أصبح النساء الطاهرات في طبقة الأشراف من النوادر.

سقط النظام القديم في تربية الأسرات وجعل القانون الروماني الزوج سيد زوجته وابتدعوا ضربا جديدا من الزواج يجعل المرأة تحت تصرف أبيها، ولا يكون للزوج أدنى سلطة عليها، وكان الآباء يهجرون بناتهم بجهاز وصداق ليجعلوهن أكثر استقلالا.

وكان من حق الزوج وحده أن يطلق امرأته، ومن العادة أن لا يخادعن هذا الحق إلا في أحوال استثنائية شديدة فصار للمرأة الحق أن تترك زوجها وأصبح

منذ ذلك العهد من الهين اللين أن يفصم الزوجان عري ارتباطهما، ولم يعودا يحتاجان إلى حكم حاكم، ولا إلى سبب مشروع ويكفي أحد الزوجين متى استاء من زوجه أن يقول له "احمل ما يخصك وأعد لي ما أملكه" وبعد الطلاق يتيسر لكل منهما، بل للمرأة أيضا أن يتزوجها في الحال.

وبلغت الحال في الطبقة الرومانية العالية أن تعتبر الزواج عقدا مؤقتا، فقد تزوج سيللا بخمس نساء وقيصر بأربع وبومبي بخمس وأنطونيوس بأربع وتزوجت ابنة شيشرون من ثلاثة رجال وطلق هورتانسيون زوجته ليزوجها من أحد أصدقائه.

بيد أن هذا الفساد لم يصب غير أشراف رومية، ومن حذا حذوهم من أهل النعمة الحديثة. أما في أسر رومية والولايات، فقد حفظت قرونا آداب الدور القديم القاسية الشديدة وأخذت تربية الأسرة ترق شيئا فشيئا والمرأة تحرر من استبداد الرجل ببطء.

التبدل الاجتماعي

زوال الطبقة الوسطى- كان الشعب الروماني القديم مؤلفا من صغار أرباب الأملاك، وهم يتعاطون زراعة حقولهم بأنفسهم، ومن هؤلاء الفلاحين الصالحين الأقوياء يتألف الجيش والمجلس، وكان عددهم كثيرا سنة ٢٢١ خلال الحرب الفينيقية الثانية، وفي سنة ١٣٣ لم يبق منهم أحد لا جرم أنه هلك منهم كثيرون في الحروب التي أعلنتها رومية على البلاد القاصية، ولكن هلاكهم يحمل في الأكثر على أنه كان من المتعذر عليهم البقاء، فقد كانوا يعيشون من زراعة القمح عندما أخذت ترد على رومية حبوب صقلية وإفريقية فسقطت أسعار الحنطة بحيث لم يتيسر للحراثين الإيطاليين أن يستخرجوا من غلاتهم ما يغذون به أسراتهم ويتحملوا أعباء الخدمة العسكرية فقضي عليهم من ثم أن يبيعوا حقولهم فيبتاع كل غني من جاره الفقير أرضه فغدت الحقول الصغيرة

ملكا عظيما لواحد وصير أرباب الأملاك من تلك الأراضي مروجا يقيمون فيها ماشيتهم، وإذا عن لهم أن يزرعوها يبعثون إليها برعاة وحراثين من العبيد بحيث لم يمض قليل، حتى لم يبق على أرض إيطاليا إلا بعض كبار أرباب الأملاك وجماعات من العبيد، وكان بلين القديم يقول إن الأملاك العظيمة قد أخطأت إيطاليا ومع هذا فالدوائر العظمى هي التي قضت في الأرياف على أحرار الفلاحين فصاحب الأرض القديم الذي أباع حقله لم يستطع أن يبقى أجيرا، بل قضي عليه أن يتخلى عن مكانه ليحل محله العبيد وبذا أصبح هائما على وجهه لا عمل له، ولا شغل، قال فارون في رسالته في الزراعة: إن معظم زعماء الأسرات دخلوا بيوتنا تاركين المنجل والمحراث وأبوا يؤثرون التصفيق بأيديهم في الملاعب على العمل في حقولهم وكرومهم.

الطبقات الاجتماعية- ليس الشعب في رومية؛ كما هو في يونان عبارة عن مجموع السكان، بل هو مجموع الوطنيين وكل رجل ينزل أرض البلاد لا يعد وطنيا، بل الوطني هو الذي له حق التمتع بحقوق الوطنية وللوطني عدة امتيازات فله الحق وحده أن يكون عضوا في الهيئة السياسية وله الحق وحده أن يقترع في مجالس الشعب الروماني، وأن يخدم في الجيوش الرومانية ويحضر احتفالات رومية المقدسة وينتخب حاكما رومانيا، وهذا ما يسمونه بالحقوق العامة وللوطني الحق وحده أن يحميه القانون الروماني ويحق له فقط أن يتزوج على طريقة مشروعة ويكون رب أسرة، أي: حاكما مطلقا على زوجته وأولاده، وأن يوصي بما يشاء ويبيع ويبتاع ممن يشاء، وهذا ما يسمونه بالحقوق الخاصة.

ولا يحرم من لم ينالوا حق الوطنية الرومانية من الخدمة العسكرية في الجيش والمجلس فقط، بل لا يسوغ لهم أن يكونوا أزواجا، ولا آباء، ولا أصحاب أملاك مشروعة، ولا أن يتقاضوا إلى القانون الروماني ويحاكموا في المحاكم الرومانية ولذا تألفت من الوطنيين طبقة من الأشراف بين سواد الأمة من غير طبقتهم ألا لا يتساوون بينهم أيضا فبينهم فرق في الطبقات، أو: كما يقول

الرومان في الصفوف.

النبلاء- النبلاء هم في الصف الأول من الأمة فكل وطني يعد في النبلاء إذا سبق لأحد أجداده أن تولى شيئا من أمر الأمة؛ لأن الحكم في رومية من علائم الشرف ينبل به من تولاه؛ كما يكون بضعة شرف لأخلافه من بعده إذا نصب أحد من الوطنيين ناظرا للملاعب والأبنية، أو قاضيا، أو قنصلا تخلع عليه خلعة مطرزة بالأرجوان ويمنح كرسيا كالعرش ويحق له أن يرسم ويصور، وهذه الصور عبارة عن تماثيل صغيرة تعمل من الشمع أولا، ثم تطلى بالفضة وتجعل في مرار الدار (أتريوم) بالقرب من الكاتون وأرباب البيت وتجعل في مخادع خاصة بها؛ كما تجعل الأصنام ويعبدها الدرنة من أهل البيت ومتى مات أحد في الأسرة يخرجون الصور ويجرونها على مركبة في موكب ويأخذ أحد أنسباء المتوفى يعدد صفاته ويرثه، وهذه الصور هي التي تشرف الأسرة كلما احتفظت بها، وكلما كثرت الصور في أسرة تزداد شرفا فيقولون فلان شريف بصورة، أو شريف بعدة صور والأسر الشريفة في رومية قليلة جدا (ولم يكن فيها أكثر من ثلاثمائة أسرة)؛ لأن المناصب التي تولى صاحبها شرفا توسد في الغالب إلى أناس حازوا الشرف من قبل.

الفرسان- تجيء طبقة الفرسان بعد طبقة النبلاء، وهم أغنياء الوطنيين الذين لم يعهد لهم جدود من الحكام فتقيد ثرواتهم في سجلات الإحصاء وينبغي أن لا يقل ما يملكه أحدهم عن أربعمائة ألف سسترس (أو مئة ألف فرنك) منهم التجار والصيارف والملتزمون، وهم لا يحكمون، بل يغتنون ولهم في دور التمثيل أماكن خاصة بهم تقع إلى ما وراء مقاعد طبقة الأشراف، وربما ساغ للفارس منهم أن ينتخب حاكما وعندها يدعونه الرجل الحديث النعمة ويصبح ابنه شريفا.

العامة- العامة هم غير طبقة الأشراف والفرسان فهم جمهور الأمة ويكونون من نسل أبناء البلاد في إيطاليا ويتنقلون من فلاحين أصحاب أملاك إلى وطنيين

رومانيين ويعد في طبقتهم العبيد المعتوقون، أو قدماء العبيد وأبناؤهم ويحافظون على مميزات أصولهم، ولا يقبلون في خدمة الجيش الروماني، ولا ينتخبون إلا بعد غيرهم، ولقد مضت أزمان وصغار أرباب الأملاك يؤلفون السواد الأعظم من الأمة وبينا كانت الأرياف تصفر من قلة الناس غصت رومية بالواردين عليها فانهال عليها اليونان والسوريون والمصريون والآسيويون والإفريقيون والأسانيون والغاليون ممن أخذوا من بلادهم وبيعوا بيع العبيد، ثم أعتقهم مواليهم فأصبحوا وطنيين ضاقت بهم المدينة فهم كانوا شعبا جديدا ليس له من الرومانية غير اسمها.

خطب سبيون غازي قرطاجنة ونومابس جمهورا من الناس في إحدى الساحات فقاطعه العامة بأصواتهم فقال لهم: "صه أيها الأبناء الأدعياء المنتسبون لإيطاليا زورا فمن العبث ما تفعلون؛ لأن من جلبتهم إلى رومية مقيدين لا أهابهم ولو حلت قيودهم"، وهذه الطبقة الجديدة من السوقة تعيش بكدحها، أو يقضى على الحكومة أن تطعمها، وقد أخذت الحكومة سنة ١٢٥ تقدم لعامة الوطنيين حنطة بنصف ثمنها المعتاد تأتي بها من صقلية وإفريقية ومنذ سنة ٦٣ أخذت توزع الحنطة مجانا وتشفعها بزيت ورأى قيصر سنة ٤٦ أن من كانوا يتناولون هذه الجراية بلغوا ٣٢٠ ألفا.

العبيد- جميع الأسرى وسكان البلد المفتوح ملك للفاتح يتصرف فيهم فإذا أبقى عليهم، ولم يقتلهم يستعبدهم له هكذا كان الحق القديم، وقد ظل الرومان يعملون به بالحرف يعاملون الأسرى كأنهم بعض الغنيمة يبيعونهم من النخاسين الذين يتبعون الجيش، وإذا حملوهم إلى رومية فإنما يحملونهم ليبيعوهم في المزاد[٢٨] وهكذا كانوا يبيعون عقيب كل حرب ألوفا من الأسرى رجالا ونساء والأولاد الذين يولدون من أسيرات يكونون أسرى كأمهاتهم فالأمم

---

(٢٨) تقام سوق الرقيق في كل مدينة ذات شأن؛ كما تقام سوق للبقر والخيل فيعرض العبد الذي يراد بيعه على دكة، وقد نيطت في عنقه بطاقة كتبت فيها سنه وصفاته وعيوبه

المغلوبة للرومانيين هي مادة الرقيق الروماني.

العبد ملك صاحبه فهو لا يعتبر اعتبار شخص، بل اعتبار متاع فمن، ثم ليس له حق من الحقوق فلا يكون وطنيا، ولا مالكا، ولا زوجا، ولا أبا، قال أحد الأبطال في رواية هزلية رومانية: "أي شيء هذا أعرس عبيد! ما أعجب عبدا يتزوج! إن هذا مخالف لعادة جماع الأمم".

وللمولى جميع الحقوق على عبده يرسله، حيث يريد ويشغله على ما يرى، بل يشغله أكثر من طاقته ويطعمه أخشن طعام ويضربه ويعذبه ويقتله دون أن يسأله أحد عما جنى، وعلى العبد أن يخضع لرغائب سيده كلها ويقول الرومان إن العبد لا وجدان له، وإن الواجب عليه أن يطيع مولاه طاعة عمياء فإذا قاوم، أو أبق من بيته فالحكومة تعاون سيده على قمع جماحه، أو القبض عليه وكل من يؤوي عبدا آبقا تجري عليه أحكام اللصوص كأنه سرق بقرة، أو حصانا لغيره.

والعبيد في المملكة الرومانية أكثر من الأحرار ويملك أغنياء الوطنيين من عشرة إلى عشرين ألف عبد وعند بعضهم من يكفون لتجنيد جيش كامل، وكان لسيليوس إيزدوروس أحد قدماء العبيد زهاء أربعة آلاف عبد، وكان عند هوراس سبعة أعبد، فكان يشكو من فقره، ومن علائم الفقر في رومية أن لا يملك المرء سوى ثلاثة أعبد.

وإذ كان العبيد يعملون أشق الأعمال، أو يسترسلون في البطالة مكرهين، وهم أبدا عرضة للضرب بالسياط والتعذيب وأصبحوا بحسب فطرهم إما متوحشين أغبياء، أو أنذالا مستعبدين، ومن كان منهم على شيء من الشهامة ينتحرون وغيرهم يعيشون كالآلة الصماء، وكان الشيخ كاتون كثيرا ما يقول على العبد دائما أن يعمل، أو ينام ومعظم العبيد يفقدون الإحساس والشرف، ولذلك كانوا يقولون هذا عمل عبيد يريدون به أنه دنيء رذل.

الحكام ينتخب الشعب كل سنة رجالا يتولون أمره ويفوض إليهم السلطة المطلقة ويطلق عليهم اسم الحكام "أي ولاة الأمر" فيسير أمامهم حملة الفؤوس يحملون حزمة من القضبان وفأسا ومعنى هذا الرمز أن للحاكم أن يضرب ويقتل على ما يراه مناسبا، ومن حق الحاكم أيضا أن يرأس مجلسي الأمة والشيوخ، وأن يكون له محل في المحكمة ويقود الجيوش، وهو السيد المسود في كل مكان فيجمع المجلس ويفضه بحسب ما يرى ويصدر الأحكام برأيه وحده.

وفي زمن الحرب يفعل ما يشاء بالجند ويقتلهم دون الرجوع إلى رأي ضباطهم، وقد كان مافليوس القائد الروماني في إحدى الحروب التي أعلنت على اللاتين حظر على الجنود الخروج من المعسكر فدعا أحد المقاتلين من جيش العدو ابنه إلى المبارزة فخرج لبرازه وقتله، فلم يعتم مافليوس أن قبض على ابنه وأعدمه في الحال.

وللحاكم بحسب التعبير الروماني سلطة ملك، ولكن هذه السلطة قصيرة موزعة وذلك؛ لأنه لا ينتخب إلا لسنة واحدة وله رصفاء لهم مثل سلطته ففي رومية قنصلان، أو حاكمان يتوليان أمر الأمة وقيادة الجيش وفيها عدة قضاة يتولون الحكم، أو القيادة بالنيابة ويصدرون الأحكام، وهناك كثير من الحكام ومراقبان وأربعة نظار للأبنية والملاعب للنظر في الطرق العامة والأسواق وعشرة محامين عن حقوق السوقة وصيارفة يتولون النظر في خزائن المملكة.

الإحصاء- أرقى الحكام هما الوكيلان المسيطران، وهما مكلفان كل خمس سنين بتنظيم إحصاء للشعب الروماني فيتمثل أمام المكلفين بإحصاء جميع أبناء البلاد ليذكروا لهما، وهم يقسمون الأيمانات أسماءهم وعدد أولادهم وعبيدهم ومقدار ثروتهم يقيد كل ذلك في سجلات خاصة والقائمان بإحصاء الأمة هما اللذان يكتبان قائمة بأسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان والوطنيين ويحددان لكل واحد مقامه في المدينة، ثم هما مكلفان أيضا بأن

يحتفلا احتفال الثريا، وهي حفلة عظمى تقام للتزكية كل خمس سنين فيجتمع ذلك اليوم عامة الوطنيين في ساحة المريخ اجتماعهم في حرب ويطوفون ثلاث مرات حول المجلس يحملون ثلاث ضحايا لتكفر عن السيئات، وهي عبارة عن ثور ونعجة وخنزير يحنقونها ويرشون المجلس بدمها وبذلك تصبح المدينة مزكاة مطهرة وسلما مع الأرباب.

وللقائمين بالإحصاء الحق أن يقيدا، وأن يجعلا كل إنسان في المنزلة التي يريانها ولهما أن يجردا أحد الشيوخ بإسقاطه من قائمة مجلس الشيوخ، وأن لا يحسبا أحد الفرسان في جملة أهل طبقته، أو يحرمان أحد الوطنيين بأن يحذفا اسمه من سجلات القبائل ويسهل عليهما عقاب من يرنهم مجرمين ويتجاوزان عن السيئات التي لا تقدح بمنطوق القانون ولطالما رأوهما يجردان والوطنيين؛ لأنهم لم يحسنوا التوفر على حقولهم ولصرفهم كثيرا على خدمهم وسجنوا أحد الشيوخ؛ لأنه كان يملك عشر ليبرات من الأواني الفضية وآخر؛ لأنه أهمل تعهد قبور أجداده وغيره؛ لأنه طلق زوجته هذه السلطة المفرطة هي ما يطلق الرومان عليه "حكومة الأخلاق" فوكيلا الإحصاء هما سيدا المدينة على الجملة.

جلسة مجلس الشيوخ يتألف مجلس الشيوخ من نحو ثلاثمائة رجل يعينهم وكيل الإحصاء إلا أن هذا لا ينصبهم كيفما اتفق فلا ينتخب من أبناء البلاد إلا الأغنياء أصحاب المكانة وسلالة الأسرات الكبرى ومعظمهم من قدماء الحكام ويختار على الأغلب دائما أناسا كانوا في المجلس من قبل بحيث أن عضو مجلس الشيوخ يبقى في هذا المنصب طول حياته فمجلس الشيوخ هو محل اجتماع أهم رجال رومية، ولذلك كانت لهم سلطة وسطوة.

فإذا حدث أمر يجمع أحد الحكام أعضاء الشيوخ في أحد المعابد ويعرض عليهم المسألة، ثم يسألهم رأيهم فيها فيجيبه كل واحد بمفرده مراعين في ذلك مراتبهم في الشرف، وهذا ما يدعى أخذ رأي مجلس الشيوخ ويسطر الحاكم بعد ذلك رأي الأكثرية، وهذا ما يسمونه مرسوم ديوان الأعيان، أو الشيوخ ويكون

قرارهم عبارة عن رأي؛ لأن ليس من حق مجلس الشيوخ أن يقنن القوانين، بيد أن رومية تعمل بهذا الرأي عملها بأمر مفروض وللشعب ثقة بشيوخه لعلمه بأنهم أكثر خبرة منه، ولا يجرأ الحكام على مقاومة مجلس مؤلف من أكفاء يساوونهم في الشرف، ولذلك كان المجلس يفض جميع المسائل فيقرر الحرب ويعين عدد الجيوش ويقبل السفراء ويعقد السلم ويفرض الدخل والخرج فيصدق الشعب على قراراتهم والحكام ينفذونها، وفي سنة ٢٠٠ قرر مجلس الشيوخ إعلان الحرب على ملك مكدونية فأوجس الشعب خيفة، ولم يوافق على ذلك فصدر أمر مجلس الشيوخ بجمع المجامع من جديد، وأن يلقي عليهم خطاب يكون أبلغ في إقناعهم من الخطاب الأول وعندها لم يسع الشعب إلا الموافقة وبذلك رأيت أن الشعب في رومية كان يحكم؛ كما يحكم الملك في إنكلترا، ولكن كان الحكم لمجلس الشيوخ.

المجالس والانتخابات تسمي حكومة رومية "الجمهورية"، أي: متاع الشعب وجماعة الوطنيين المدعويين شعبا كأنهم سادة مستقلون في المملكة فمنهم الذين ينتخبون الحكام ويوافقون على الحرب والسلام ويسنون الشرائع ويقول الفقهاء أن القانون هو ما أمر به الشعب والشعب في رومية؛ كما في أثينة لا يعين نوابا وعليه أن يوافق على كل شيء بنفسه، حتى أن حكومة رومية بعد أن قبلت في المدينة زهاء خمسمائة ألف رجل كانوا مشتتين في أطراف إيطاليا كلها اضطر الوطنيون للحصول على حقوقهم أن يحضروا بالذات إلى رومية.

ويجتمع الشعب في الساحة ويسمي المجلس "المجتمعات" يدعوه الحاكم إلى الالتئام برياسته وكثيرا ما يدعى الوطنيون إلى الاجتماع بصوت البوق فيذهبون إلى ميدان العمل (ساحة المريخ) يصطفون فرقا تظلهم أعلامهم وعندما يتألف منهم مجتمعات ذات فرق وكثيرا ما يجتمعون في ساحة السوق "الفوروم" منقسمين إلى ٣٥ جماعة يسمونها القبائل فتدخل كل قبيلة في نوبتها إلى مكان مسور بسدود لتوافق على ما تقرر به وتسمى المجتمعات بحسب القبائل والحاكم

الذي جمع المجلس يبين له المسألة التي يجب عليه الموافقة عليها ومتى فعل ينفض فمن، ثم كان الشعب حاكما ولكنه اعتاد الخضوع لزعمائه.

والمجلس أيضا هو الذي يختار كل سنة الحكام فينتخب بحسب الفرق جميع الحكام الذين كان انتخبهم الشعب قديما مثل القناصل والقضاة ووكلاء الإحصاء ونظار الأبنية والملاعب ومجلس القبائل ينتخب حكام أهل الطبقة المتوسطة ومحامي الشعب ونظار أبنية الشعب، وقد ضاقت ساحة الفوروم منذ القرن الثاني فأخذت تجتمع جميع مجالس الانتخابات في ساحة المريخ تنقسم الرحبة بحواجز ذات مرابض صغيرة تلقب بحدائق الغنم فتنقطع كل قبيلة إلى إحدى تلك الرحاب وتلاحظ كل قبيلة أكثرية الوطنيين في التصويت إذ ليس لكل قبيلة غير صوت واحد.

سلك المناصب ليس تولي الحكم، أو المشيخة عن الأمة في رومية صناعة من الصناعات فإن الحكام والشيوخ يصرفون وقتهم ومالهم دون أن ينالوا أجرا فمنصب الحكم في رومية يعد من دواعي الشرف فلا يتطال إليه غير الأشراف، أو الفرسان على الأقل على شرط أن يكونوا أغنياء، ثم لا يطمع امرؤ أن يبلغ أرقى مناصب الحكم إلا بعد أن يتقلب في المناصب الأخرى.

ومن أراد يوما أن يحكم على رومية يجب عليه أولا أن تكون له في الجيش عشر وقائع وحملات وبعدها يسوغ له أن ينتخب صرافا فيعهد إليه النظر في إحدى خزائن المملكة، ثم يصير ناظرا للأبنية والملاعب فينظر في أمور الشرطة والبياعات وبعد ذلك ينتخب قاضيا ليجري أحكام العدل وعقيب ذلك يصبح قنصلا فيقود جيشا ويرأس المجالس وعندئذ تحدثه نفسه بأن يكون وكيل إحصاء، وهذه هي الدرجة التي دونها في العلو كل درجة لا يبلغها المرء قبل أن يبلغ الخمسين من العمر فترى بهذا أن رجلا واحدا يكون ماليا وإداريا وقاضيا وقائدا وحاكما قبل أن يتولى وظيفة وكيل الإحصاء الغريبة، وهي عبارة عن تنظيم المجتمع وتسمى سلسلة هذه الوظائف سلك المناصب، ولا تدوم كل وظيفة من هذه

الوظائف إلا سنة واحدة وللارتقاء للوظيفة التالية يقتضي انتخاب جديد ويجب على الموظف في خلال السنة التي تتقدم انتخابه أن يظهر في الشوارع بلا انقطاع ويسير؛ كما يقول الرومان، أو يطمع في امتياز المنصب، وأن يلتمس أصوات الشعب والعادة في خلال هذه المدة أن يلبس حلة بيضاء، وهذا معنى مرشح باللغات الإفرنجية، أي: المكتسي بالبياض.

إدارة الولايات

الشعوب الخاضعة- ما انقضى القرن الأول قبل المسيح إلا، وقد أخضعت رومية عامة الأقطار الواقعة حول البحر الرومي منذ إسبانيا إلى آسيا الصغرى، ولم تضف هذه البلاد إلى المملكة الرومانية، ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولم تغد أرضهم أرضا رومانية، بل ظلوا غرباء وانضموا فقط إلى هذه المملكة، أي: أنهم أصبحوا تحت استيلاء الشعب الروماني؛ كما أن الهنود اليوم ليسوا وطنيين انكليزا، بل هم رعايا إنكلترا والهند جزء لا من إنكلترا، بل من المملكة الإنكليزية فقط.

فلا يصبح سكان البلاد المغلوبة وطنيين في رومية، بل يبقون غرباء أجانب ولكنهم رعايا الشعب الروماني يؤدون إليهم الجزية وعشر غلاتهم وإتاوة من المال ورسما على كل رأس وعليهم أن يخضعوا لجماع ما يأمرونهم به وإذ ليس في استطاعة الشعب أن يحكم بالذات ليبعث بحكام ينتدبهم؛ لأن يحكموا عنه وكل بلد خاضع لوال كان يسمي ولاية ومعناها "المهمة".

كان في أواخر عهد الجمهورية (في سنة ٤٦) ١٧ ولاية منها عشر في أوربا وخمس في آسيا وثنتان في إفريقية ومعظمها متنائية الأطراف جدا، فلم تكن بلاد الغال كلها سوى أربع ولايات وإسبانيا ولايتين، قال شيشرون: إن الولايات أملاك الشعب الروماني فإذا أخضع هذه الشعوب بأسرها فذلك طمعا في فائدتها لا لأجل منفعته، ولذلك لا يتوخى أن يدير تلك الولايات، بل يحرص على

استثمارها.

الولاة- يتخذ الشعب حاكما لإدارة كل ولاية، وهو إما أن يكون قنصلا، أو قاضيا خرج من الوظيفة فيطيل أمد سلطته، وليس هذا الموظف الكبير قنصلا. بل هو وال ينوب عن القنصل.

وللوالي؛ كما للقنصل سلطة مطلقة يسير فيها على هواه؛ لأنه وحيد في ولايته[٢٩]، وليس لديه حكام آخرون ينازعونه السلطة، ولا محامون عن الطبقة الوسطى ليصدوه عما يريد، ولا مجلس شيوخ يسيطر على أعماله فهو وحده يقود الجيوش ويحملهم على القتال وينزل بهم حيثما يشاء فيتخذ له مقاما في محكمته حاكما بالغرامة والسجن والموت ويصدر أوامر تكون قانونا متبعا وله وحده السلطة العالية؛ لأن فيه يتجسد الشعب الروماني.

وكان هذا الحاكم الذي لا يقاومه مقاوم مستبدا حقيقيا فيقبض على من يريد ويحبس ويضرب بالعصي ويعدم من لا تروقه حالتهم واليك مثالا من ألوف الأمثلة التي كان الحكام يجرون فيها مع الهوى؛ كما رواه أحد خطباء الرومان. قال: "جاء القنصل مؤخرا إلى تيانوم فخطر لامرأته أن تتلذذ بالاستحمام في حمامات الرجال فأخرج من الحمام الرجال الذين كانوا يستحمون فيه فشكت المرأة من إبطائهم وقلة استعداد الحمام فنصب القنصل عمودا في الساحة العامة وأحضر أشهر رجل في المدينة ليجعله عليه فجرد من ثيابه وضرب بالعصي".

والوالي يأخذ من ولايته ما يستطيع من المال وينظر إليها كأنها ملك له. ولا تعوزه الوسائط لاستثمارها، بل يمد يديه إلى خزائن المدن وينزع التماثيل والحلي الموضوعة في المعابد ويجبي من السكان الأغنياء إتاوات من المال، أو البر واذ كان له الحق أن ينزل جنوده، حيث أراد فالمدن تقدم له المال لتعفى من قبول

---

(٢٩) كانت تبقى رومية في بلاد الشرق بعض أقيال، أي: ملوك صغار مثل الملك هيرو في بلاد اليهودية ولكنهم يؤدون الجزية ويخضعون للحاكم، أو الوالي الروماني

جنوده وإذ كان في حل من أن يعدم كل من يتراء له فالأفراد يعطونه المال ليأمنوا غائلته، وإذا طلب شيئا بعيدا، أو مبلغا من المال يجاب في الحال إلى ما طلب، ولا يجرأ امرؤ أن يأتي عليه طلبه وأتباعه يسيرون على مثاله وينهبون باسمه، بل بحمايته ويسرع الوالي في جمع المال إذ الواجب عليه أن يعتني في سنة ويعدها يعود إلى رومية ويخلفه آخر يعود بمثل ما بدأ فيه سلفه.

على أن هناك قانونا يخطر على كل وال أن يقبل هدية ومحكمة مخصوصة (منذ سنة ١٤٩) تنظر في دعاوى الاختلاس، بيد أن هذه المحكمة تؤلف من طبقة الأشراف والفرسان الرومانيين فلا يرون أن يحكموا على ابن بلدهم والعاقبة المهمة في هذه الطريقة: كما قال شيشرون أن يضطر الوالي إلى ضبط يده في السلب من ولايته ليتسنى له أن يرشي المحلفين في المحكمة، ولا ينبغي العجب إذا رأينا اسم الوالي مرادفا لاسم مستبد، ومن أشهر هؤلاء اللصوص فيريس والي صقلية وقاضيها، وقد خطب في بيان أعماله الخطيب شيشرون لأسباب سياسية خطبا اشتهر بها، ومن المحتمل أن كثيرين مثله قد أتوا ما أتاه.

العشارون- كان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين، فكان هؤلاء مثل المزارعين العموميين في فرنسا قديما يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني.

وكان في كل ولاية عدة شركات من العشارين، ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه ويسلبون نعمة الآهلين وكثيرا ما يبيعونهم؛ كما يباع الرقيق، وكانوا يأخذون في آسيا، حتى السكان بدون سبب، ولما طلب ماريوس من ملك بيتنيا أن يقدم له جندا أجابه الملك أن العشارين لم يبقوا عنده من الرعايا غير النساء والأطفال والشيوخ، وقد عرف الرومان هذه المظالم حق معرفتها وكتب الخطيب شيشرون

إلى أخيه، وكان هذا حاكمـ بد داك "إذا وفقت إلى طريقة ترضي بها العشارين دون أن تهلك سكان الولايات فتكون قد رزقت مهارة رب"، بيد أن العشارين كانوا قضاة في محاكمهم، حتى أن الولاة أنفسهم خاضعون لهم، وقد أراد سكاروس والي آسيا المشهور بالإفراط في العفة أن يمنع العشارين من إطالة يد الأذى في ولايته فلما عاد إلى رومية رفعوا عليه شكوى وحكموا عليه.

ولطالما أثار العشارون سخط سكان الشرق الخاضعين الساكنين، فقد ذبحوا بأمر ميتيريداتس في ليلة واحدة مئة ألف روماني وبعد قرن، أي: على عهد المسيح كان عشار مرادفا لاسم لص.

الصيارف- جمع الرومان في بلاذهم ثروة الأمم المغلوبة، ولذلك كانت الدراهم كثيرة جدا في رومية ونادرة جدا في الولايات، فكان في رومية يمكن الاقتراض بفائدة أربعة، أو خمسة في المائة، أما في الولايات فلا يجد المستدين مالا يقترضه بأقل من اثني عشر في المئة، وكان الصيارفة الرومان يقترضون مالا من رومية ويقرضونه للولايات ولاسيما باسم الملوك، أو المدن.

وإذا لم يستطع المستدين أن يوفي رأس المال ورباه يعمد الصيارفة في تقاضي أموالهم إلى الطرق التي يستعملها العشارون، فقد اقترضت مدن آسيا سنة ٨٤ على نية أن تدفع مبلغا كبيرا لتستعين به على الحرب فبعد أربع عشرة سنة فقط، أي: في سنة ٧٠ صار المبلغ بفوائده ستة أضعاف ما كان فاضطر الصيارفة مدن آسيا أن تبيع، حتى التحف والطرف، وقد شوهد أبوان يبيعان أبناءهما وبناتهما وبعد بضع سنين أقرض برونوس من حكماء الرواقيين، ومن أشهر رجال عصره من الرومان وأعلاهم كعبا ومكانة لمدينة سلامينة في قبرص مبلغا من المال بفائدة ٤٨ في المئة (أي ٤ في المئة كل شهر) فلما طالب وكيله سكانتيوس بالمال مع فائضه تعذر على المدينة أن تؤدي إليه مطلوبه فقصد سكانتيوس الوالي إيبوس فأصحبه هذا بفرقة من الفرسان فجاء إلى سلامينة وحاصر مجلس شيوخها، وكان أعضاؤه في قاعة الجلسات فمات خمسة منهم جوعا.

رعايا رومية كان سكان الولايات لا حول لهم، ولا طول مع هؤلاء الظالمين بأسرهم وذلك: لأن الولاة كانوا يمالئون العشارين والصيارفة على رغائبهم ويأخذون بأيديهم في كل ما يطلبونه ووراء الوالي الجيش والشعب الروماني يعضدانه، فكان يسمح للوطني الروماني أن يشتكي السلابين في الولايات، ولكن لا يمس الوالي بأذى، ولا تتأتى شكايته إلا مرة واحدة عندما يخرج من الخدمة فيصر عليه الرعايا يسلبهم ويعتدي؛ كما يشاء ريثما تنقضي مدته، وإذا اتهم عند عودته إلى رومية فتكون محاكمته أمام محكمة مؤلفة من الأشراف والعشارين ممن تكون مصلحتهم في معاضدته لا في إحقاق الحق ورفع ظلامة أهل الولاية التي كان فيها، وإذا صادف أن حكمت عليه المحكمة يستعيض عن الحكم بالنفي فيذهب إلى إحدى مدن إيطاليا يتمتع بما نهبه أيام ولايته، وهذا القصاص لا يوازي ما أتاه البتة، ولا يعد انتقاما، ولذلك كنت ترى سكان الولايات يؤثرون أن يقمعوا ولاتهم بخضوعهم لهم فيعاملونهم؛ كما يعاملون الملوك وينافقونهم ويهادونهم ويقيمون لهم التماثيل، وربما نصبوا للوالي في آسيا هياكل[٣٠] وبنوا لهم المعابد وعبدوهم؛ كما يعبد الرب.

ولئن عامل الشعب الروماني رعاياه بقسوة، فلم يكن يأبى عليهم الانضمام إليه؛ كما كان شأن المدن اليونانية، بل إن الغريب يصبح وطنيا رومانيا بإرادة الشعب الروماني والشعب يمنح هذه العاطفة أحيانا وكثيرا ما يمنحها إلى شعب برمته فمنح حق الوطنية الرومانية إلى اللاتين أولا في سنة ٨٩ ومنح هذا الحق للطليان في سنة ٤٦ ومنحه لأهل غاليا فأصبح سكان إيطاليا والرومانيين سواء، حتى إن العبد الذي يعتقه سيده يسوغ له أن يكون وطنيا في الحال، وكلما عرضت للشعب الروماني عوارض الضعف ونقص في الأنفس يزيد عدده برعايا جدد وعبيد جدد، فكان عدد الوطنيين يزيد في كل إحصاء، ولا ينقص فبلغ

---

(٣٠) ذكر شيشرون الخطيب الروماني المعابد التي أقامها له سكان سيسليا التي كان واليا عليها

عددهم في قرنين من ٢٥٠ ألفا إلى ٧٠٠ ألف وهكذا ظلت رومية غاصة بالسكان. ولم تخل منهم: كما خلت إسبارطة، بل كانت تمتلئ بالقادمين إليها من المغلوبين على التدريج.

قانون الأراضي

الأملاك العامة- متى طلب شعب غلبته رومية على أمره أن يعقد معها الصلح يجب على نوابه أن يلفظوا بالجملة الآتية "نتخلى لكم عن الشعب والمدينة والحقول والمياه وتماثيل الأرباب الحامية للحدود والآيات وجميع ما يملكه الأرباب والناس قد جعلناه، بيد الشعب الروماني"، وبهذا التسجيل تصبح الأمة الرومانية مالكة لما يملكه المغلوبين لهم بأسره، بل مالكة، حتى لأشخاصهم وكثيرا ما يبيعون السكان، وقد أباع بولس إميل مئة وخمسين ألفا من أهل أبير على هذه الصورة كانوا استسلموا إليه، ومن العادة أن تمنح رومية لمن تتغلب عليهم حريتهم، وأن تبقي أملاكهم ملكا للشعب الروماني يجعلونها ثلاث حصص متساوية فيعطي للأهالي قسم من أراضيهم على أن يدفعوا شيئا معلوما من المال، أو الحبوب عنها وتحفظ رومية لنفسها الحق أن تأخذ منها: كما تشاء وتؤجر الحقول والمراعي إلى أناس من الملتزمين وتترك الأراضي البائرة شاغرة يأخذها من يريد ويحق لكل وطني روماني أن يقيم فيها ويزرعها.

قوانين العقارات- شملت قوانين الأراضي التي احتل بها نظام رومية الأملاك العامة، وما كان لأحد الرومان أن يخطر في باله نزع الأملاك من أربابها: لأن حدود تلك الأملاك نفسها كانت أربابا يدعونها آلهة التخوم والدين يمنع من نزعها إلا أن الشعب كان يستولي بموجب قانون الأراضي على أراض من الأملاك العامة فقط يوزعها بصفة ملك على مواطنيه وللشعب من، حيث الشرع الحق في ذلك: لأن الأراضي كلها ملكه إلا أن الرومانيين تسامحوا قرونا بأن تركوا

أناسا من رعاياهم، أو أبناء وطنهم يتمتعون بغلات تلك الأراضي، وقد انتهت بهم الحال أن صاروا ينظرون إلى تلك الأراضي كأنها ملكهم يحبسونها ويبيعونها ويبتاعونها ولو أخذت منهم لقضي على جمهور عظيم من الأمة بالإفلاس في الحال، وقد حدث في إيطاليا خاصة أن ينزع من أهل مدينة بأسرها جميع ما يملكون هكذا نزع أغسطس جميع أراضي مانتو من سكانها، وكان الشاعر فرجيل في جملة المنكوبين فتوصل بفضل شعره إلى أن عاد إليه أملاكه، ولكن سائر الشعب الذي لم يكن شاعرا كفرجيل بقي مسلوبا من أملاكه وتوزع هذه الأراضي المأخوذة على تلك الصفة أحيانا على أناس من فقراء الوطنيين في رومية، وفي الأغلب على جماعة من قدماء الجند، وقد وزع سيللا أراضي أهل إيتروربأغلى ١٢٠ ألفا منن قدماء الأجناد.

الإخوان الاشتراكيان- كان الشقيقان تيبريوس وكايوس عراشوس من أشراف أسرات رومية، ولكن حاول أحدهما بعد الآخر، وقد تولى زعامة السوقة أن ينزع الحكومة من يد الأشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ.

وكان في ذاك العهد في رومية، بل في إيطاليا جمهور كبير من الوطنيين لا سيد لهم، ولا لبد يطمحون إلى إحداث ثورة، ومنهم الأغنياء ومعظمهم من طبقة الفرسان الذين يشكون من حرمانهم من الحكومة فعرض تيبربوس غراشوس نفسه على أن يتولى الدفاع عن العامة وسعى إلى توطيد سلطته هذه، وكان في قلق مما يراه في بلاد الأرياف في إيطاليا من إقامة الرعاة العبيد يخلفون قدماء أصحاب الأملاك الفلاحين، ومن رؤية رومية غاصة بأناس من الوطنيين لا يملكون فتيلا، ولا نقيرا.

قال مرة في خطاب له يخاطب به العامة: "للوحوش البرية في إيطاليا مغاور تأوي إليها والرجال الذين يهريقون دماءهم في الدفاع عن بيضة إيطاليا ليس لهم إلا النور والهواء الذي يستنشقونه يهيمون على وجوههم مع أزواجهم وأبنائهم لا بيوت تؤويهم، ولا منازل يسكنونها ألا، وإن القواد الذين يحرضونهم على الدفاع

عن مدافنهم ومعابدهم ليكذبون في أقوالهم وليت شعري هل ملك واحد منهم، حتى الآن مذبحا مقدسا في بيته ومدفنا يضم رفات أجداده يدعونهم سادة الأرض، وهم لا يملكون مدرة منها".

فاقترح على الشعب سن قانون للأراضي، وذلك بأن تأخذ الحكومة من الأفراد جميع الأراضي التي هي من المنافع العامة فتضع يديها عليها ويترك لكل فرد منهم خمسمائة فدان ويوزع الباقي من الأراضي حصصا صغيرة على فقراء الوطنيين فوافق المجلس على هذا القانون فحدث بذلك اضطراب عام في نظام الثروات؛ لأن معظم أراضي المملكة على التقريب كانت من الأملاك العامة، ولكن وضع الواضعون أيديهم عليها واعتادوا أن يعتبروا أنفسهم مالكيها على أنه كان كثيرا ما يصعب التمييز بين الملك الخاص والملك العام إذ لم يكن للرومانيين سجلات للأراضي.

فأقام تيبربوس ثلاثة مفوضين عهد إليهم قسمة الأراضي؛ كما أن الشعب أعطاهم سلطة مطلقة، وكان هؤلاء المفوضون هم تيبربوس نفسه وأخوه وعمه فقام خصوم تيبربوس يتهمونه بأنه سن قانون الأراضي ليتخذ من ذلك حجة لتكون له بها السلطة فمضت سنة، وهو السيد المتحكم في رومية ولكنه لما أراد أن ينتخب محاميا من العامة عن السنة التالية أقام أعداؤه الحجة (وهذا كان منافيا للعادات المتبعة) فنشأت من ذلك فتنة انتهت باستيلاء تيبربوس وأصحابه على معبد الكابتول فنهض أنصار مجلس الشيوخ وعبيدهم مسلحين بالدبابيس وخشب المقاعد وطاردوا تيبربوس وأتباعه وضربوهم (١٣٣).

وبعد عشر سنين انتخب كايوس أصغر الأخوين غراشوس محاميا عن الشعب (١٢٥) وجدد التصديق على قانون الأراضي وقرر توزيع حنطة على فقراء الوطنيين وقرر أن يجري انتخاب القضاة من طبقة الفرسان ليتوصل بذلك إلى هدم سلطة الأشراف فكانت كلمته هي العليا مدة حولين كاملين ولكنه لما قصد قرطاجنة ليسكن فيها جماعة من الطوارئ (المستعمرين) الوطنيين تخلى الشعب

عنه مدة غيابه، حتى إذا عاد لم يتيسر له أن يعاد انتخابه إذ كان أعداؤه اغتنموا تلك الفرصة للتخلص منه وعندها أمر الحاكم بتسليح أشياع مجلس الشيوخ وزحف على كايوس وأحبابه، وكانوا اعتصموا في جبل أفنتين فقتل كايوس، بيد أحد العبيد وذبح أشياعه، أو أعدموا في السجون ونقضوا بيوتهم من أسسها وصادروا أملاكهم (١٢١).

مايوس وسيللا

لم يكن النزاع بين الشقيقين غراشوس ومجلس الشيوخ إلا عبارة عن هرج في شوارع رومية ينتهي بفتنة تنشأ بين العصابات المسلحة على عجل، أما الفتن التي حدثت بعد فكانت حروبا حقيقية بين جيوش منظمة، وكان رؤساء الأحزاب من القواد.

الحروب المدنية- ليس الشعب الروماني سوى مجموع فقراء لا عمل لهم، وما الجيش إلا حفنة من المتشردين نزاع الأفاق فلا المجلس، ولا الكتائب خاضعة لمجلس الشيوخ؛ لأن الأشراف الفاسدين فقدوا كل سلطة أدبية، فلم يبق ثمة سوى قوة حقيقية واحدة ونعني بها الجيش، ولم يبق سطوة إلا للقواد، وقد أبى القواد أن يخضعوا فتعذر الحكم بواسطة مجلس الشيوخ، حتى أصبح، بيد القائد وغدت الثورة لا مناص منها ولكنها لم تنشأ دفعة واحدة، بل تخمرت زهاء مئة سنة، وكان مجلس الشيوخ يقاوم، وقد أمسى من الضعف بحيث لا يتيسر له أن يجري الأحكام بذاته على أنه مازال على شيء من القوة تحول دون غيره من القبض على قياد الأمة والقواد يتنازعون بينهم فيمن يكون السيد المتحكم وهكذا قضى الرومانيون قرنا يتخبطون في الفتن والحروب المدنية.

ماريوس- كان أصل ماريوس القائد الأول الذي جعل جيشه تحت أمره في رومية من أرنينوم، وهي مدينة جبلية صغيرة، ولم يكن من سلالة شريفة واشتهر بأنه ضابط وانتخب محاميا عن العامة، ثم قاضيا بمساعدة الأشراف له، ثم

انقلب عليهم وانتخب قنصلا وعهدت إليه محاربة جوكورتا ملك النوميديين الذي بدد شمل عدة جيوش رومانية.

وعندها جند ماريوس جماعة من فقراء الوطنيين ممن أصبحت الخدمة العسكرية صناعتهم فتغلب ماريوس بجيشه على جوكورتا وأهلك الشعوب البربرية كالسميريين والتوتون ممن أغاروا على غاليا وإيطاليا الشمالية وإذ لم يكن للشعب ثقة في غيره لقيادة الجيش انتخبه قنصلا ست مرات متوالية خلافا للقوانين المتبعة.

عاد إلى رومية بعد هذه الانتصارات فأصبح مطلق اليد في الحكومة وعندئذ تألف في تلك العاصمة حزبان دعيا أنفسهما باسم حزب الشعب (وهو حزب ماريوس) وحزب الأشراف (وهو حزب مجلس الشيوخ).

الحرب الاجتماعية- ارتكب أشياع ماريوس من الفظائع ما انتهى بتلويث شهرته بين الناس فاغتنم أحد الأشراف من أسرة كورنيوليوس الكبيرة واسمه سيللا هذه الفرصة لينازعه السلطة، وكان هو أيضا من جملة القواد، وفي خلال ذلك استشاط الطليان غيظا من قيامهم بمثل ما يقوم به الرومانيون من التكاليف دون أن يكون لهم مثل امتيازاتهم فنزعوا إلى مقاومته لينالوا حقوقهم المدنية، وهذا ما دعوه بالحرب الاجتماعية، أي: حرب مقاومة المتحالفين فجيشوا جيوشا كبيرة تقدم إحداها على مقربة من رومية، وكان سيللا هو الذي أنقذ رومية بقتاله الطليان أشد قتال وبعد حرب دامت سنتين (٩١ - ٨٩) خضع الطليان، بيد أنهم نالوا ما طلبوه وعدوا وطنيين رومانيين.

سيللا- طارت شهرة سيللا في هذه الحرب فنصب قنصلا وعهد إليه أن يزحف على ملك بحر الحز رميتريداتس الذي أغار على آسيا الصغرى وذبح فيها الرومانيين عن بكرة أبيهم (٨٨) فحمل الحسد ماريوس أن يثير فتنة في رومية فخرج سيللا للالتحاق بجيشه الذي كان ينتظره في إيطاليا الجنوبية وعاد معه، وكان الدين الروماني يحظر على الجنود الدخول إلى المدينة وعليهم أسلحتهم،

وعلى الحاكم نفسه قبل أن يجتاز الباب أن يخلع عنه رداء الحرب ويلبس الحلة الرومانية، فكان سيللا القائد الأول الذي جسر على خرق سياج هذا المنع ودخل إلى رومية فانهزم ماريوس أمامه.

ولما وصل سيللا إلى آسيا عاد ماريوس في جيش له من المتشردين ودخل رومية بالقوة (٨٧) وعندئذ بدئ بقتل المعتدين قبل محاكمتهم وجعل خاصة أشياع سيللا تحت الأحكام العرفية، بل صدرت أوامر الحكومة أن يقتلوا حيثما وجدوا وصودرت أموالهم ومات ماريوس بعد بضعة أشهر وظل سينا أهم أنصاره يجري أحكامه في رومية ويقتل كل من لا تروقه حالته، وكان سيللا في خلال هذه المدة قد تغلب على ميتريداتس وضمن إخلاص جنده له بأن أباح لهم نهب آسيا على ما يشاءون، وقد عاد (٨٣) في جيشه إلى إيطاليا فبعث عليه خصومه بخمسة جيوش فانهزم بعضها وانحاز الآخر إليه، ثم دخل سيللا إلى رومية وذبح الأسرى وحنق أنصار ماريوس.

الأحكام العرفية بعد أن مضت بضعة أيام في المذابح شرع سيللا ينفذ الأحكام العسكرية على الأصول وعلق ثلاث قوائم بأسماء من يريد إهلاكهم، قال: "أعلنت أسماء جميع من ذكرتهم، وقد نسيت كثيرا منهم وسأعلن أسماءهم كلما خطروا في بالي" وكل من علق اسمه في قائمة المحكوم عليهم كان معدا للقتل، ومن أتى برأسه ينال مكافأة وتصادر أموال القتيل، وكان يقتل الواحد بدون محاكمة، بل بمجرد هوى القائد وبدون أن ينذر بالقتل، وعلى هذا الوجه لم يكتف سيللا بذبح أعدائه فقط، بل قتل الأغنياء الذين كان يطمع في ثروتهم ويروى أن أحد الوطنيين البعيدين عن السياسة نظر، وهو مار إلى قائمة المحكوم عليهم بالقتل فرأى اسمه مسطورا في أول القائمة فهتف قائلا: "ما أتعسني، فقد قتلني بيتي في آلب" ويقال: إن سيللا قتل ألفا وثمانمائة ألف فارس.

قوانين سيللا- بعد أن تخلص سيللا من خصومه حاول أن ينظم حكومة تكون الكلمة فيها لمجلس الشيوخ فعينوه حاكما مطلقا (ديكتاتور) ويطلق هذا

اللقب قديما على القواد في أيام الشدة والخطر ممن تكون لهم السلطة المطلقة فاستخدم سيللا هذه السلطة ليسن قوانين تغير النظام الدستوري القديم، وذلك بأن ينتخب القضاة بموجب هذا القانون من مجلس الشيوخ، ولا تجري المناقشة في قانون قبل أن يوافق عليه مجلس الشيوخ، ولا يحق لمحامي الشعب بتة أن يقترحوا شيئا وبعد هذه الإصلاحات التي خولت مجلس الشيوخ سلطة مطلقة استقال سيللا من منصبه وأخذ نفسه بالانقطاع إلى داره والعيش في عزلة (٧٩)، وكان يعرف بأنه في مأمن إذ كان له مائة ألف من جنوده في إيطاليا.

بومبي

بومبي- عاد مجلس الشيوخ فقبض على السلطة؛ لأنه حسن في رأي سيللا أن يعيدها عليه ولكنه لم يكن له من القوة ما يستطيع معه المحافظة على تلك السلطة متى قام أحد القواد ينازعه إياها ودامت أيضا حكومة مجلس الشيوخ في الظاهر أكثر من ثلاثين سنة وذلك؛ لأنه كان ثمة عدة قواد وكل منهم يحول دون خصمه أن يستأثر بالحول والطول، ولما هلك سيللا كان في البلاد أربعة جيوش على قدم الاستعداد اثنان منها خاضعان لقائدين من أنصار مجلس الشيوخ، وهما كراسوس وبومبي والآخران بقيادة قائدين خصيمين لمجلس الشيوخ، وهما ليبدوس في إيطاليا وسرتوبوس في إسبانيا والمأثور أنه لم يكن أحد في تلك الجيوش على استعداد ونظام، وأن ليس في أولئك القواد حاكم له الحق بقيادة الجند، وكان القواد إلى ذاك العهد أبدا من القناصل، أما الآن فأصبحوا من الأفراد ينضم إليهم الجند لا ليخدموا الجمهورية الرومانية، بل ليغتنوا بسلب الأهلين.

ولقد انهزمت جيوش خصوم مجلس الشيوخ وبقى القائدان كراسوس وبومبي وحدهما واتفقا بينهما على الزعامة وجرى انتخابهما قنصلين.

سبارتاكوس- تكرر حدوث عصيان العبيد مرات (حروب العبيد)، وكان

ذلك في الأغلب في جزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا، حيث كان العبيد يحملون السلاح لحراسة القطعان وبعد أن ولي الولاية القائدان كراسوس وبومبي بدأت أشهر تلك الحروب، وذلك أن عصابة مؤلفة من ٧٠ مصارعا هربت من كابو ونهبت عربة تحمل أسلحة وأنشأت تحمل على البلاد حملاتها فخف العبيد وانضموا إليها زرافات زرافات، فلم تلبث تلك العصابة أن أصبحت جيشا، وقد هزم هؤلاء العبيد على الولاء ثلاثة جيوش رومانية أرسلت لتأديبهم، وكان سبارتاكوس زعيمهم أسر في الحرب، وهو من إقليم تراسيا جيء به إلى إيطاليا ليستخدم في الصراع فحدثته نفسه أن يجتاز بلاد إيطاليا كلها للعود إلى تراسيا بلده، بيد أن جيش كراسوس قاوم عصابات سبارتاكوس مؤخرا، وكانت محتلة النظام فقبلها عن آخرها وبعدها حظرت رومية على العبيد أن يحملوا سلاحا ويحكى أنه أعدم راع من العبيد؛ لأنه قتل خنزيرا بريا بحرية كانت معه.

حروب في الشرق- عهد مجلس الأمة لبومبي أن يتولى قيادة الجيش في حربين متعاقبتين في الشرق الأولى (٦٧) كانت مع قرصان البحر في شواطئ آسيا الصغرى، وقد عزوا شواطئ إيطاليا ونهبوها والثانية (٦٦) كانت مع ميتربداتس الذي لم يبرح على ما أصابه من الفشل يدافع عن حوزته في أطراف آسيا الصغرى.

ولقد عاد بومبي من آسيا في جيش يتفانى في الإخلاص له، وكان في بضع سنين السائد المسود في رومية وإذ كان ينظر إلى الشرف أكثر منه إلى السلطة لم يدخل أدنى تعديل في الحكومة، وفي خلال ذلك نال الحظوة من الأمة شاب من الأشراف اسمه قيصر فأنفق بومبي وكراسوس وقيصر على اقتسام السلطة (٦٠) فانتخب قيصر قنصلا، ثم واليا على غاليا وتولى كراسوس قيادة الجيش الذي أرسل إلى آسيا للحملة على البارتيين ولقي حتفه سنة ٥٣ وبقي بومبي في رومية.

كاتالينا- بينا كان بومبي يحارب في الشرق حدثت في رومية أزمة كادت

تؤدي إلى ثورة، وذلك أن أحد الأشراف من قدماء أنصار سيللا واسمه كاتالينا كان، فقد ثروته لاسترساله في الشهوات فحاول أن يسترجع ماله بالقبض على أزمة الأحكام، وكان رجلا قوي الشكيمة جريء النفس مقداما لا يتطرق إلى قلبه وسواس وله أصدقاء كثيرون من أشراف الشبان المستهترين الفاسقين أخلصوا في حبه إذ كان يقضي معهم أوقات صفائه ويقرضهم مالا ويهديهم خيولا وكلاب صيد وله من الأنصار قدماء أشياع سيللا وقدماء الجنود الذين أسكنهم سيللا في إيطاليا ممن باعوا أراضيهم وأخذوا يبحثون عن مورد يعيشون منه.

فاتفق كاتالينا مع جمهور من هؤلاء الساخطين على أن يذبحوا في آن واحد القنصلين يوم يذهبان معا إلى معبد الكابتول، فلم يفلحوا فيما دبروه؛ لأن الخبر ترامى إلى القنصلين إلا أن كاتالينا احتفظ بأنصاره وظل يدس الدسائس، وكان أعداء مجلس الشيوخ، وربما قيصر أيضا يعضدونه سرا فقدم نفسه لينتخب قنصلا، فكان خصمه في هذا الانتخاب شيشرون أشهر محام وأعظم خطباء الرومان، وكان هذا توصل إلى أن ينتخب حاكما؛ لأن الأسرات الشريفة غدت منذ عهد ماريوس لا تسمح إلا بانتخاب أناس من الأشراف.

وساعد أشياع مجلس الشيوخ الخطيب شيشرون فجرى انتخابه وسقط كاتالينا إلا أن القنصل الآخر رصيف شيشرون، وهو أنطونيوس كان ممالئا سرا للحانقين فدبر كاتالينا مكيدة كبرى على أن يذبح أصحابه شيشرون وأعضاء مجلس الشيوخ في رومية ويحرقوها بينا يكون قدماء أجناد سيللا المقيمون في أتروريا زاحفين على رومية فبلغ الخبر شيشرون، فلم يخرج إلا في كوكبة من الفرسان محدقة به إلا أنه لم يكن عنده جيش لقتال قدماء الأجناد الذين شرعوا يتجمعون ويتسلحون والعبيد الذين أخذوا يسلحونهم في كابو فقضى جزءا من السنة التي تولى فيها القنصلية، وهو في قلق مستمر.

وأخيرا رجع واليان يقودان جنودا فشعر شيشرون بقوة تمكنه من الدفاع

فاستدعى مجلس الشيوخ ليوافق على قيام القناصل بما فيه سلامة الجمهورية الرومانية، وأن يعطي القناصل سلطة ليتخذوا عامة الأسباب التي يرونها مناسبة وأدخل الجند إلى رومية يرابطون في الساحات ودعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع ثانية، وفي هذه الجلسة ألقى خطبته الأولى في مقاومة كاتالينا وسأله مشعرا إياه بما دبره من المكيدة التي افتضح أمرها وأنذره بالانصراف.

فغادر كاتالينا رومية وذهب للالتحاق بقدماء الأجناد المتمردين في أتروريا وظل أشياعه في المدينة فاتفقوا سرا مع وفود الألوبروج بأن يقدموا لهم فرسانا، ثم عيروا آراءهم وأفشوا سر المتآمرين فطلب شيشرون خمسة من رؤوس زعماء المؤامرة واضطرهم إلى الإقرار، ثم استفتى مجلس الشيوخ فيما يجب أن يعاملوا به فأجاب بأنه يجب إعدامهم، ولكن كان أحد المجرمين واسمه لاتنتولوس قاضيا، ولا يحق لأحد أن يوقفه إلا حاكم له مقام أرقى من مقامه فذهب شيشرون بذاته لتوقيف المجرمين الخمسة وأخذهم إلى سجن الكابتول وحنقهم وعاد يقول لمجلس الشيوخ "لقد عاشوا".

فأعلن كاتالينا الرحب، ولم يكن سوى جزء من رجاله يحمل سلاحا ومعظمهم انفضوا من حوله وزحف عليه جيش بقيادة القنصل أنطونيوس آتيا من الجنوب وزحف آخر من الشمال، ولم يبق لكاتالينا سوى ثلاثة آلاف رجل حاول بهم الفرار نحو الشمال فرأى جبال اثنين في وجهه مسدودة فانقض على جيش أنطونيوس وهاجمه وقتل مع أصحابه جملة واحدة (٦٣) فنال إذ ذاك شيشرون من مجلس الشيوخ "أبو الوطن" دلالة على أنه أنقذ رومية من مخالب العدو، ولكن لما انتهت سنة حكمه لم يعهد له بسلطة.

فتح بلاد الغال

دخول قيصر إلى غاليا اتفق قيصر مع بومبي وكراسوس أن يتولى كل منهم القيادة في إحدى الولايات العظمى على أن يكون له الحق في أن يجيش جيشا

فوضع كراسوس يده على سورية وبومبي على إسبانيا وقيصر على الثلاث ولايات المجاورة لغاليا، وذلك لمدة خمس سنين، وقد ذهب قيصر لما انقضت سنة حكمه بصفته واليا إلى مقر ولايته لينشئ فيها جيشا يكون هو قائده ودخل في الحال في عدة حروب وظل عشر سنين بعيدا عن رومية (ولم يدم حكمه أكثر من خمس سنين إلى سنة ٥٣ ولكنه جدده دفعة ثانية إلى سنة ٤٨).

وكانت رومية إلى ذاك العهد لم تخضع غير جزء من البلاد التي نزلها الشعوب الغالية، بل لم يكن لها سوى ولايتين غاليتين غاليا سيراليين، وهي مؤلفة من البلاد الواقعة بين جبال اثنين الألب (وهي اليوم إيطاليا الشمالية) والبروفانسيا، وهي عبارة عن شواطئ البحر المتوسط وبلاد الرون من جبال الألب إلى جبال البيربية، وكانت هذه البلاد مع إقليم إيليريا (الجبال الواقعة في شرق الإدرياتيك) هي الثلاث ولايات التي تولاها قيصر.

أما باقي بلاد فرنسا الحالية التي دعاها الرومانيين غاليا فكانت مستقلة بعد يسكنها ثلاثة عناصر من الناس أحدها الغاليون، وهم يشغلون القسم الأعظم من البلاد، أي: جميع فرنسا الواقعة بين نهر العارون ونهر السين ويصفهم اليونان والرومان بأن هؤلاء السكان من الرجال العظام بيض البشرة شقر الشعور زرق العيون طوال السبلات يأكلون اللحوم ويسكرون بنبيذ السرفواز (ضرب من الجعة)، أو بشراب الأيدرومل، وهم أشد شبها بالجرمانيين منهم بالفرنسيس اليوم، وكان السواد الأعظم من هذه الأمة يعيش شقيا في الأكواخ لا شأن لهم في إدارة شؤون بلادهم يخضعون لكبار أرباب الأملاك الذين يقاتلون راكبين صهوات خيولهم ويدعوهم قيصر بالفرسان ويذكرهم؛ كما يذكر محاربين شجعانا للغاية، ولا يبعد أن يكون هؤلاء الفرسان الغاليون شبيهين بالجرمانيين هم من الفاتحين نزلوا وسط شعب أصغر منهم أجساما أشقر أصهب يشبه الشعب النازل اليوم في البلاد الغربية، أي: فرنسا وأيرلاندا وبلاد الغال.

والقسم الثاني من تلك العناصر الثلاثة هم البلجيكيون نزلوا البلاد الواقعة

في شمالي السين إلى نهر الرين، وهم يشبهون؛ كما كان يقول الرومان الجرمانيين النازلين في الشاطئ الآخر من نهر الرين والظاهر أنهم كانوا أقل اختلاطا بالشعب القديم من الغاليين وأحسن الفرسان فيهم كانوا يقاتلون راكبين.

والقسم الثالث من تلك العناصر هم الأكيتيون نزلوا في جنوبي نهر الغارون، وهم ضئال الأجسام شجعان يشبهون الإيبريين في إسبانيا ويتكلمون بلغة إيبرية ويعتبرون سائر شعوب غاليا كأنهم غرباء وهؤلاء خضعوا لقيصر أول الأمر وبعد، فلم يكن الغاليون والبلجيكيون والأكيتيون أمما معدودة، بل لم يكن ثمة غير شعوب صغيرة يستولي أقدرها على تحويلات، أو أربع من مقاطعاتنا اليوم وكل مقاطعة تؤلف حكومة مستقلة ودعاها قيصر سيلفيتا، أي: التي يحكمها؛ كما يشاء وتحارب غيرها، وكان لبعض تلك الحكومات ملك ويحكم معظمها مجلس من الأشراف (الفرسان)، وكان للكهنة عند الغاليين سلطة كبرى.

لم تبرح تلك الشعوب على حالة من التوجس بعد تعيش بما ينتجه لها ماشيتها، وما مدنها إلا أسوار صغيرة محصنة يجعلون فيها مواشيهم وعيالهم إبان الحرب ولئن كان معظم البلاد غابات وحراحا، فقد بدءوا يزرعون حنطة ليتيسر أن تطعم جيشا رومانيا بأسره.

جاء قيصر ينوي فتح غاليا في جيش اختاره من سكان الولايتين الغاليتين الخاضعتين لرومية خاصة، وكان مؤلفا بحسب العادة الرومانية من مشاة منتظمين كتائب وعليهم أسلحتهم، وهم مدربون أكثر من جيوش الشعب الغالي، ولقد عني قيصر بذكر خبر الفتح في مفكراته فأهم القارئ بأن الغاليين ساقوا عليه جيوشا أكثر عددا من جيشه، ومن المحتمل بأنه لم يقل الحقيقة إذ لم يكن في استطاعة غاليا أن تطعم غير عدد قليل من الناس ومعظم سكانها ليسوا محاربين.

غـارة الهيلفتـيين والـسويفيين- عنـدما وصـل قيـصر إلى بـلاد الغـال كـان الأيدوانيون النازلون في جبال مورفان أشد شعوب أواسط غاليا بأسا وعاصمتهم بيبراكت بالقرب من أوتون وبلادهم واقعة بين نهر السون واللوار، ومن أشداء البأس الأرفرنيون النازلون في البلاد الجبلية التي أطلق عليها اسمهم (أوفرنيا)، وكانوا حاكمين على الأمم النازلة في البلاد الصخرية الوسطى.

فحارب الإيدوانيون السكيانيين النازلين في جبال جورا لاختلاف طرأ بينهم على الملاحة في نهر سون فاستدعى الكسيانيون من ألمانيا زعيما سويفيا، وهو الملك (أريوفيست) فأتى بعصابة من خيرة المحاربين مؤلفة من العامة خاصة، وهم السويفيون وبعد أن تغلب الأيدواتيين طلب الملك أريوفيست إلى السكيانيين جزءا من أرضهم لينزل فيها جيشه، وكان السكيانيون صالحوا الأيدوانيين لقتال أريوفيست الذين نزلوا عليهم وعندها استخدم الأيدوانيون برومية، ولما قاد قيصر جيشه إلى بلاد سون تقدم على أنه خليف شعبه غالي لمقاومة غارة جرمانية، وفي غضون ذلك أخذ الهيلفتيون، وهم شعب غالي يسكن سويسرا بالهجرة من بلادهم فانقلبوا منها يحملون أسراتهم ومواشيهم وأمتعتهم محمولة على مركبات قائلين إنهم يريدون مهاجمة بلاد الغال ليستوطنوا شواطئ المحيط، وربما كان ذلك حيلة منهم ليذهبوا لنصرة الأيدوانيين على أريوفيست وتقدموا إلى قيصر أن يسمح لهم باجتياز تلك الولاية الرومانية فأتى عليهم ذلك، فلم يبق، أما الهلفتيين إلا أن يقطعوا وادي سون فداهمهم قيصر بالقرب من نهر سون وحمل أولا على ساقة جيشهم، ثم هاجم مجموعهم فذبح منهم جزءا عظيما واضطر من أفلتوا من القتل إلى الرجوع إلى بلادهم، ثم ارتد على أعقابه لقتال أريوفيست وأسرع، حتى بلغ في جيشه إلى فيرونوسيو (بزانسون) وحاذر جنده من هول هذه الحرب، وهم في بلاد جبلية مغشاة بالغابات يهاجمون برابرة أشداء على أهبة تامة فجمع قيصر قواد المئة من جنده (يوزباشية)، وقال لهم على من يوجسون خيفة أن يسافروا مع الفرقة العاشرة

فأجابه قواد المئة بأنهم يتبعونه حيثما ذهب.

وقطع الجيش الروماني مجاز جبال الفوسج ونزل إلى سهل الألراس وجاء يعسكر أمام العدو وألف أريوفيست معسكره من مركباته وتحصن وراءها، وكان قيصر يمرن جيشه في السهل ويعبئه للقتال، ثم صحت عزيمة أريوفيست على الخروج من المعسكر فداهم الجيش الروماني في فرسانه فجرح وفر جنده فطارده العدو، حتى نهر الرين، وكان المهاجمون الجرمان يطردون إلى خارج غاليا، ولكن قيصر لم يأت مع جيشه إلى ولايته، بل رابط معه في وادي سون، حيث قضى الشتاء، وقد أخذ يعامل بلاد غاليا كالبلاد المغلوبة فاضطرت الشعوب الغالية أن تحالف رومية.

فتح شمال غاليا- أبى البلجيكيون النازلون بين نهري السين والرين، وهم أشجع شعوب غاليا كافة أن يدخلوا في محالفة رومية فتعاهدوا بينهم وتحالفوا وجمعوا جميع المحاربين من أبنائهم في بلاد لاون فجاء قيصر في الربيع في ثماني فرق من الجند وعقد محالفة مع أحد هذه الشعوب، وهم الريمسيون ونزل في معسكر حصين على رابية يفصلها عن معسكر البلجيكيين واد ذو بطائح وظل الجيشان زمنا أحدهما قبالة الآخر وإذ كان الجيش الروماني منظما كانت تأتيه النجدات من الطعام تباعا، أما البلجيكيون فشق عليهم أن يتغذوا في تلك الأدغال والحراج فأنفذ قيصر الأيدوانيين أحلافه يخربون بلاد البيلوفاكيين أهم تلك الشعوب المتحالفة، ولما بلغ البلجيكيون ذلك انفضت جموعهم ليذهبوا للدفاع عن بلادهم فتخلص قيصر من جيش العدو بدون قتال وراح يطوف بلاد البلجيكيين ويهاجم مدنهم الواحدة بعد الأخرى مكرها كل أمة أن تكون حليفة لرومية، وأن تعطيها على سبيل الرهن رجالا من الأسر النبيلة في بلادها.

وقد داهم النيرفيون (أهل بلاد السامير) أحد هذه الشعوب الجيش الروماني في غابة على شاطئ نهر السامير بينا كان يبني معسكره وهزم الفرسان الغاليين أحلاف الرومان وعساكر الرجالة الخفيفة إلا أن الكتائب حمت المؤخرة وحالت

دون الهزيمة فأخذ قيصر يحارب النيرفيين حربا يريد بها إبادتهم عن آخرهم، ولما أخضع الجيش الروماني الشعوب البلجيكية قضى الشتاء في وسط بلاد غاليا على شاطئ اللوار.

فتح الغرب قبلت الشعوب النازلة على ضفاف البحر المحيط أن تحالف رومية وتقدم لها رهائن، وما جاء الشتاء، حتى تحالفوا بينهم وأبوا أن يرسلوا حنطة لإطعام الجيش الروماني وأسروا عندهم مندوبي الرومان الذين جاءوهم في طلب ذلك ليكرهوا قيصر على أن يعيد إليهم من استبقاهم عنده من رجالهم رهينة، وكان للفنتيين (سكان فان)، وهم من الشعوب الخطيرة في ذاك الحلف سفن حربية صنعوها من شجر البلوط وجعلت بحيث تسير على إرادة ربانها ولها مقدم مرتفع يقاوم فعل الأمواج وطبقات سفلى منبسطة تستطيع أن تبحر على قيعان الشاطئ، وفي البحار الصغيرة فأنشأ قيصر سفنا ذات قلوع في مصب نهر اللوار هاجم بها أسطول الفنتيين وصعب عليه أن يحطمه؛ لأن سفنه لم يكن لها من العلو ما يكفي للوصول إلى مساماة تلك السفن الفينيقية، وكانت مراكبه داخلة في الماء كثيرا بحيث لا يتسنى لها أن تطارد مراكب عدوه في وسط الصخور والقيعان وبعد اللتيا والتي صنع الرومان مساجل ذات مقابض وعصي طويلة قطعوا بها الحبال التي كانت تمسك قلوع سفن الفنتيين فلما سقطت القلوع من هذه السفن، ولم يكن عندها مجاديف تقذف بها وقفت لا تبدي حراكا فداهما الجيش الروماني وأخذها عنوة فطلب الفنتيون الصلح إلا أن قيصر أمر بإشرافهم فضربت أعناقهم وباع سائر الشعب بيع العبيد، وفي تلك المدة أيضا كان اقتطع قيصر فرقة صغيرة من جيشه لتخضع لسلطان رومية جميع الشعوب النازلة في الإقليم المعروف اليوم بإقليم نورماندیا، وهناك فرقة أخرى له تحارب شعوب الأكتيين في جنوب نهر الغارون، وعلى هذا، فقد أخضع قيصر في ثلاث حملات (٥٨ - ٥٦) عامة بلاد غاليا واغتنم فرصة الشتاء للعودة إلى ولايته في إيطاليا المعروفة بسيزالبين.

وفي العام التالي (٥٦) ضرب موعدا للقائدين الآخرين اللذين كانا يقاسمانه الحكم، وهما بومبي وكراسوس فاجتمع ثلاثتهم على تخوم ولايته في ولاية لوكس وقرروا تجديد حكومتهم لخمس سنين أخرى.

حملات إلى خارج غاليا- حارب قيصر خارج غاليا دلالة على سطوته وإشغالا لجيشه، وكان شعبان جرمانيان اجتازا نهر الرين وهاجما بلاد البلجيك فسار قيصر في جيشه وفرسان شعوب غاليا على نهر الرين بالقرب من ملتقى نهر الموز وهاجم الجرمان وذبحهم مع نسائهم وأولادهم، ثم بنى على الرين جسرا من جذوع الأشجار وذهب لتخريب الشاطئ الأيمن.

ولما عاد إلى غاليا ركب البحر مع فرقتين (٥٥) واجتاز بحر المانش ونزل إلى بريطانيا (إنكلترا)، ولما أنشأ في السنة التالية سفنا متسعة قليلا لنقل الأثقال والخيول عاد إلى بريطانيا في جيش كبير واجتاز الغابات التي دافع عنها المحاربون البريطانيون، حتى بلغ نهر الشيمس (٥٤).

قيام الغاليين كان الأشراف في معظم الشعوب الغالية من أشياع رومية يقاتلون في الجيش الروماني على أنهم رديء من الفرسان ويعاشرون الضباط الرومانيين، وكان بعضهم من أصحاب قيصر إلا أن السواد الأعظم من تلك الأمم كانوا يتبرمون بأولئك الجنود الغرباء الذين يسيرون سير السادة فانشق بعض الزعماء عن حرب الأشراف واتفقوا بينهم سرا على تهييج الشعب، وكان قيصر قد وزع جيشه على شعوب كثيرة لقضاء فصل الشتاء وذلك؛ لأن القمح كان نادرا في تلك السنة فقرر زعماء الغاليين أن يغتنموا هذه الفرصة لمهاجمة الفرق المنعزلة وقطع مواصلاتهم فانتظروا ريثما يبتعد قيصر إلى ولاية سيزالبين، حيث ذهب لقضاء الشتاء.

إلا أن شعب الكاريوت (شارتر) أبدى نواجذ العصيان قبل أن يتم ما دبروه مستشيطا غضبا من ملكه الذي نصبه قيصر وحاكمه فحكم عليه بالإعدام وقتل فبلغ قيصر هذا النبأ فاستعد للحرب، ولما أزمعت الفرقة الرابطة في بلاد

السامير الخروج من معسكرها داهمها الأيبورون وذبحوها ورأت فرقة رومانية أخرى أن تبقى في معسكرها فأحاط بها الغاليون فأسرع قيصر وتمكن من إنقاذها وعند ذلك استراحت الجنود الرومانية إلى آخر الشتاء، ولما طلع الربيع أبى عدة شعوب غالية من الشمال أن يبعثوا بوفودهم إلى قيصر فجمع جيشه برمته وسحقهم واحدا بعد واحد فانتقم من الأيبوريين بتخريب زرعهم وحرق قراهم وذبح السكان وطارد المنهزمين إلى غابات آردن، وما جاء الخريف إلا، وقد خضعت غاليا الشمالية بأسرها.

الفارس فرسنجتوريكس- أجمع شعوب أواسط البلاد في خلال الشتاء أمرهم بينهم على العصيان ثانية وبدأ الكارنتيون أولا فداهموا مدينة سابوم على نهر اللوار فقتلوا فيها تجار الطليان كافة، وفي هذه المرة تسلح عامة الشعوب النازلين بين نهر السين والغارون لقتال الرومان وبقي الأكتيون على الحياد وبدأت الشعوب المحالفة لرومية تنزع السلطة من يد الأشراف أشياع قيصر وأقاموا زعماء جددا ودخل هؤلاء في التحالف الغالي.

وكان زعيم الثورة شابا من أشراف أرفرنا اسمه فرسنجتوريكس، وهو فارس يحسن الفروسية خدم في الجيش الروماني، وكان صديق قيصر وأحدث ثورة في بلاده أولا، وما هاج سكان القرى، حتى نزع السلطة من أيدي الأشراف وأصبح ملكا على أرفرنا، ثم بعث برسل إلى الشعوب الأخرى وجمع جيشا وجعل من نظامه أن يحرق الخائنين ويصلم آذان الأبقين ويسمل عيونهم وداهم الغاليون الرومانيين في آن واحد في الجنوب من ولاية بروفنسيا (من إقليم لانكدوك)، وفي الشمال من البلاد الواقعة بين نهري السين والسون، حيث كانت ترابط الفرق الرومانية واضطر قيصر أن يجتاز جبال سيفين، وهي مكللة بالثلوج وأكره فرسنجتوريكس من رجاله أن يعود للدفاع عن بلاده فاتسع الوقت لقيصر أن يجمع جيشه بالقرب من سانس ويذهب فيه إلى إقليم اللوار فخرب فرسنجتوريكس جميع البلاد وجعل المدن قاعا صفصفا لتكون قفرا لا يجد فيها

العدو شيئا يطعمه، بيد أن البيتوريجيين لم يقبلوا بتخريب مدينتهم أفاريكوم ودافعوا قيصر عنها زمنا.

بعث قيصر في الربيع (٥٢) فيلقا لمباغتة شعوب السين وذهب بنفسه في معظم جيشه للهجوم على جركوفيا قلعة الأفرنيين فرد على أعقابه وحرج موقفه إذ لم يكن لديه طعام (لخراب مخازن ذخائره في برفر)، وهو محصور بين شعوب الأرفرنيين والأيدوانيين الذين ذبحوا التجار الطليان ومع ذلك أصر على عدم إخلاء غاليا وتمكن من الوصول إلى سانس، وفي خلال ذلك عين المجلس المؤلف من مندوبي جميع الشعوب الغالية الزعيم فرسنجتوريكس قائدا عاما على الجيوش الغالية.

فاستدعى قيصر من جرمانيا فرسانا لحساب رومية وقاد جيشه من ناحية سون ولعله فعل ذلك ليتمكن من مراسلة بروفنسيا فتبعه فرسنجتوريكس في جيشه وحاول أن يقطع عنهم مواد الطعام ورمى الجيش الروماني، وهو في مسيره بفرسانه الغاليين فهزمهم فرسان الجيش الغالي ورجع فرسنجتوريكس على أعقابه إلى مدينة إليزيا الحصينة في بلاد الآكام بين نهر السون ومصب نهر السين فتبعه قيصر وحاصره فيها جاعلا حول إليريا سورا تعلوه دائرة مجنحة ذات أبراج يحميها بخندق.

وصل جيش من الغاليين لرفع الحصار عن جيش فرسنجتوريكس وداهم الرومانيين، ولكن حال دون الوصول إليه ذاك السور الذي أقامه قيصر من ناحية الخلاء وبعد اشتباك القتال بين الجيشين رد الجيش الغالي على أعقابه وتفرق شذر مذر، فلم يبق عند الجيش المحاصر في إليزيا شيء من الزاد فسلم فرسنجتوريكس (٥٢) فبعث به قيصر إلى رومية، حيث قضى ست سنين سجينا، ثم شهد حفلة انتصار قيصر وضرب عنقه.

وهكذا انتهى العصيان العام وقضى قيصر سنة أخرى في إخضاع الشعوب التي كانت تقاوم واحدا بعد الآخر فأبادها، وكان يفاخر بأنه ذبح في ثماني سنين

مليونا من السكان وأنه أسر منهم مليونا آخر باعه بيع العبيد وقضى سنة أخرى لتنظيم شؤون حكومة غاليا وبعد ذلك صفا الجو لرومية بهلاك أعدائها، وقد وسد قيصر الحكم إلى الأشراف أشياع الرومان وألف فرقة من الغاليين لقبوها بالسنونو، وكان جيشه المدرب يحبه فحدثته نفسه أن يستخدمه في الاستيلاء على المملكة الرومانية بأسرها فخضعت غاليا لرومية مباشرة وانقسمت ولايات، ولكن تنظيمها لم يتم إلا على عهد أغسطس.

عاقبة الجمهورية

كاتون الأوتيكي بينا كان القواد يتنازعون بينهم فيمن يستأثر بالسلطان على العالم الروماني اشتهر رجل بتعلقه بالدستور الجمهوري القديم الذي أخذ يمزق، ولما رآه آخذا في التداعي لم يلبث أن انتحر، وكان كاتون هذا هو الملقب بعد كاتون الأوتيكي باسم المدينة التي انتحر فيها.

كان هذا الرجل من أسرة شريفة من أحلاف كاتون وزير الإحصاء الشهير والمدافع عن الأخلاق الرومانية القديمة كتب له أن يكون صاحب ثروة طائلة، وهو شاب بعد، وكان قد تعلم فلسفة الرواقيين وجرى عليها فأنشأ يعيش عيش الزهاد يأكل قليلا ويشرب قليلا، ولا يتطيب وعود نفسه احتمال الحر والبرد الشديد يسافر ماشيا في كل فصل من فصول السنة، حتى مع أصحابه الراكبين خيولهم، ولا يلبس إلا ثيابا بسيطة رثة، وقد وقع له أن خرج بدون حذاء.

ولما أرسل قائدا لأحد الجيوش إلى إحدى الحروب (بموجب امتياز فتيان الأشراف) أحبه جنده واحترموه إذ رأوه يعيش مثلهم عيشا بسيطا، ولما وسدت إليه نظارة المالية عني بالنظر في الحسابات بنفسه على العكس فيمن كان قبله من الأشراف يتولون هذه النظارة ، فإنهم كانوا يتركون الكتاب ينظرون في شؤون المالية وحدهم وبذلك اكتشف تزويرات الكتبة وحاكم المرتكبين واشتهر بغيرته، وكان لا يتأخر عن جلسة من جلسات مجلس الشيوخ، أو مجلس الأمة فصار

يضرب المثل بشرفه وأصبح القوم يقولون عن الأمر المتعذر "لا يمكن تصديق هذا ولو قاله كاتون".

وكان كاتون يقوم بما يعتقد أنه واجب عليه دون أن تأخذه رأفة، أو تناله رهبة وحاول أن يحكم على مورينا؛ لأنه ابتاع أصوات الأمة، حتى انتخبته قنصلا فبرأه شيشرون، وكان إذ ذاك قنصلا بخطاب سخر فيه من فلسفة الرواقيين فقال كاتون: "حقا إن لنا قنصلا مضحكا" واقترح قيصر في مسألة المشتركين في قتل كاتالينا أن يتأخر إعدامهم؛ لأنهم رفعوا قضية فاشتد كاتون على قيصر وأشار إلى مجلس الشيوخ أن يأمر بإعدام الجناة في الحال، فلم يسع المجلس إلا أن يقرر قتلهم.

ولما اقترح بومبي سن قانون يسمح له بإدخال جيشه إلى رومية خلافا لما رسمه الدستور استشاط كاتون غضبا في جلسة مجلس الشيوخ من المحامي متلوس الذي اقترح وضع القانون وصرح بأنه مادام حيا لا يدخل بومبي إلى المدينة مسلحا، ولما جاء متلوس إلى الساحة في جيش من العبيد المسلحين للموافقة على القانون اخترق كاتون صفوف الجماعة وقعد بالقرب من متلوس ومنعه من قراءة مشروعه فجاء العبيد إذ ذاك صارخين يرمون بالحجارة ويضربون بالعصي فهرب الشعب وبقي كاتون فأنقذه مورينا بأن جره إلى أحد المعابد وعاد الشعب فصعد كاتون على المنبر وخطب في سيئات هذا القانون فأبى متلوس أن يعرضه وذهب إلى آسيا ليلحق ببومبي.

ولما اتفق قيصر وبومبي، وكان قيصر قنصلا اقترح سن قانون، فلم يجرأ غير كاتون على قتاله فأنزله قيصر من المنبر بواسطة رجال الشرطة وبعث به إلى السجن وظل كاتون يتكلم في الطريق، وقد تبعه جمهور من أعضاء مجلس الشيوخ فعزم قيصر أن يخلي سبيله وللخلاص منه أرسلته الحكومة إلى قبرص ليطرد منها الملك بطيلموس دون أن يعطوه جيشا وإذ كان هذا الملك انتحر لم يبق على كاتون إلا أن ينظم قائمة بما خلف الملك من الكنوز فأتى إلى رومية

بمبلغ كبير فاستقبله مجلس الشيوخ أحسن استقبال وتقدم للانتخاب قاصيا، وكانت القبيلة الأولى وافقت على انتخابه وإذ كان بومبي رئيس المجلس لم ير بدا من أن يدعي أن السماء ترعد وأعلن بانفضاض الجلسة (والرعد طالع شؤم؛ كما عرفت في بعض الفصول السابقة) وعندما اقترحوا أن يعطوا لقيصر جيشا تقدم كاتون إلى بومبي ولطالما شغل الأول بقتال الثاني وحضه على الحذر من قيصر فبقي بومبي عدوا لهذا، وهذا لم يمنع كاتون عندما رأى المنافسين في الحكومة يقتتلون في المدينة من معاضدة اقتراح المقترحين أن يعينوا بومبي وحده قنصلا عندما اقترب أحدهما من صاحبه، ولما زحف قيصر على رومية بجيشه نصح كاتون لمجلس الشيوخ أن يلقي إلى بومبي بمقاليد الحكم بأجمعه قائلا على من عمل الشر أن يتلافاه وتبع بومبي إلى خارج إيطاليا ومنذ ذاك العهد أطلق شعره ولحيته علامة على الحزن وأشار بإطالة زمن الحرب، وكان يخاف من عاقبة قتال يقتل فيه الرومانيون بعضهم بعضا.

ولما بلغه هزيمة فارسال سافر إلى مصر يريد الالتحاق ببومبي ووقف في إفريقية، حيث كان لأحد أشياع بومبي جيش وتولى الدفاع عن مدينة أوتيكيا.

وإذ هزم قيصر جيش إفريقية اقترح كاتون على الرومانيين النازلين في أوتيكيا أن يحاصروا فأتوا فأطلق كاتون جميع أعضاء الشيوخ الذين لجئوا إليه، ثم استحم وتعشى مع أصحابه وأخذ يخوض في المباحث الفلسفية، ولما حان وقت النوم طالع محاورة لأفلاطون في خلود النفس والتمس سيفه الذي كان نزعه ابنه عنه مغاضبا فأحضروه إليه فجعله على مقربة منه ونام فاستيقظ عند الفجر، ثم طعن نفسه في صدره، وكان عمره ٤٨ سنة.

فارسال لم يبق في البلاد بعد وفاة كراسوس غير بومبي وقيصر وكلاهما يود الاستئثار بالسلطة، وكان من تقدم بومبي على صاحبه أنه كان في رومية مستوليا على أزمة مجلس الشيوخ، وكان مع قيصر جيش غاليا المدرب على الحروب منذ ثماني سنين قضاها في الحملات.

فاتخذ بومبي خطة الهجوم واستصدر من مجلس الشيوخ أمرا بأن يترك قيصر جيشه ويجيء إلى رومية فعقد قيصر إذ ذاك عزمه على اختيار حدود ولايته (وكان الحد هو نهر روبيكون) وزحف على رومية، ولم يكن عند بومبي جيش في إيطاليا للدفاع فركن إلى الفرار مع أكثر الشيوخ من الشاطئ الآخر من بحر الأدرياتيك، وكان له عدة جيوش في إسبانيا واليونان وافريقية شتت قيصر شملهم واحدا بعد الآخر فهزم جيش إسبانيا سنة ٤٨، ثم جيش اليونان في فارسال سنة ٤٨ فجيش إفريقية سنة ٤٦، ولما غلب بومبي في فارسال لجأ إلى مصر فقتله ملكها.

حكم قيصر- ولما رجع قيصر إلى رومية عهد إليه بالأمر لمدة عشر سنين فصار الحاكم المطلق، ثم حارب جيوش أشياع بومبي في إفريقية وساد جميع البلاد الخاضعة للرومان واحتفل في رومية لظفره بأربعة أعداء الغاليين والمصريين وملك بحر الجزر في آسيا الصغرى وملك النوميديين حليف البومبيين في إفريقية (لم يكن من اللياقة بأن يفاخر لتغلبه على جيش روماني).

فقام مجلس الشيوخ لقيصر بالتشريفات الدينية فأعطاه أولا كرسيا أعلى من مقاعد القناصل ولقبه بالأول، ثم خوله الحق أن يحمل تاجا من الغار (وكان ذلك من حق الأرباب) ومنحه لقب "أبو الوطن" وابتدع احتفالات وألعابا إكراما له وأقام له تمثالا خطوا فيه ألفاظ التعظيم وعهدوا إلى الكهنة للاحتفال بعبادة رب يوليوس قيصر، ومن الممكن أن يكون قيصر طمع في لقب ملك ومع هذا دعا نفسه بالإمبراطور وقبل بأن يلبس ثوبا أرجوانيا، وأن يجلس على عرش من ذهب ويرسم خوذته على النقود.

واحتفظ قيصر بمجلس الشيوخ وجميع المناصب، وهو الذي كان يعين المرشحين الذين يقضى على الشعب انتخابهم، وهو الذي وضع قائمة بمجلس الشيوخ، وكان هلك كثيرون من الشيوخ فأبلغ عدد الأعضاء إلى تسعمائة ومعظمهم من انتخابه وكثيرون منهم الغاليين، ولم يقض في رومية غير خمسة

عشر شهرا من، حيث المجموع فما اتسع له الوقت أن يقوم بالإصلاحات التي كان ينويها (ماعدا تقويم السنين)، ثم قتله ندماؤه الذين كانوا يرغبون في إعادة حكومة مجلس الشيوخ (٤٤).

أحد الحكام الثلاثة- اضطر الشعب الروماني، وكان يحب قيصر زعيمي قتله، وهما بروتوس وكاسيوس أن يهربا فتنحيا إلى الشرق، حيث جيشا جيشًا عظيما وظل الغرب تحت حكم أنطونيوس الذي اعتمد على جيش قيصر فحكم رومية حكما استبداديا.

وكان قيصر تبنى ابن أخته أوكتاف وعمره ثماني عشرة سنة بوصية أوصى بها فسمي بحسب العادة الرومانية باسم متبنيه ودعا نفسه يوليوس قيصر الأوكتافي فضم إلى حزبه جند قيصر وعهد إليه مجلس الشيوخ أن يحارب أنطونيوس وبعد أن تغلب عليه آثر الاشتراك معه لاقتسام السلطة فاتحدا مع لبيدوس ودخلا ثلاثتهم إلى رومية واستولوا على الأمر استيلاء مطلقا مدة خمس سنين تحت اسم الحكام الثلاثة المعهود إليهم تنظيم المسائل العامة وشرعوا في نفي خصومهم وأعدائهم الخاصة (فأمر أنطونيوس بضرب عنق شيشرون) (٤٣)، ثم ذهبوا إلى الشرق لتشتيت جيوش المتحالفين وبعد ذلك اقتسموا المملكة بينهم، ولم يدم الوفاق بينهم طويلا، بل قاتل بعضهم بعضا في إيطاليا، حتى توسط جندهم في الأمر واضطروهم إلى العودة لما كانوا عليه من الاتفاق، ثم جرى تقسيم المملكة من جديد فأصبح أنطونيوس ملك الشرق وأوكتاف ملك الغرب (٣٩).

حرب الأكتيوم- دام السلم بضع سنين فأخذ أنطونيوس يعيش عيش ملك شرقي مصاحبا لكلوبطرة ملكة مصر وشغل أوكتاف بقتال ابن بومبي الذي كان تحت أمره أسطوله يخرب به شواطئ إيطاليا وانتهت الحال بهذين الملكين بانقطاع علائقهما فنشبت آخر حرب بينهما، وكانت حربا بين الشرق والغرب تمت بحرب أكتيوم البحرية وأسلم أسطول كلوباطرة أنطونيوس صاحبها

فلجأ إلى مصر وانتحر وبقي أوكتاف وحده صاحب المملكة المطلق (٣١)، وكان قد انتهى أمر حكومة مجلس الشيوخ.

تقرير السلطة المطلقة- شكا الناس كلهم من هذه الحروب، وكان سكان الولايات يؤخذون فداء ويسيء الجند معاملتهم ويقتلهم تقتيلا يضطرهم كل فريق من الحكام أن ينحازوا إليه ويعاقبهم الغالب على انضمامهم إلى المغلوب، وكان القواد يَعدون الجند بأن يكافئوهم بإعطائهم أراضي يستغلونها فيطردون منها عامة سكان مدينة ليحل محلهم قدماء الأجناد، وكان أغنياء الرومان يخاطرون بثروتهم وحياتهم ومتى غلب حريهم يصبحون العونة في يد الغالب يتصرف فيهم بما يشاء، فقد وضع سيلا مثالا من المذابح المدبرة (٨١) وبعد أربعين سنة (٤٣) جدد أنطونيوس أوكتاف أمر القتل بدون محاكمة.

ولقد كان شعب رومية نفسه يشكو من سوء هذه الحالة فلا تصل إلى رومية الحبوب التي هي مادة غذائه على طريقة مطردة، بل كانت تقع في يد قرصان البحر، أو ينهبها أسطول العدو فبعد أن مضى قرن على طريقة هذا الحكم لم يعد للجميع من الرومان وسكان الولايات والأغنياء والفقراء رغبة في غير السلام وعندها تقدم إلى ذاك الشعب المنهوك بالفتن الأهلية وارث قيصر ابن أخته أوكتاف أحد الحكام الثلاثة تقدم إليهم بعد أن تغلب على رصيفيه، قال المؤرخ ناسيت وقبض بيده على جميع سلطات الأمة ومجلس الشيوخ والحكام، ولم تمض بضع سنين إلا، وقد أصبح سيدا على رومية، وليس بعد هذا من لقب، فلم يعد يفكر أحد في مقاومته، وقد أغلق معبد جايوس ونشر في العالم ألوية السلام، وهذا كان ما يطلبه العالم بأجمعه وذلك؛ لأن حكومة الجمهورية بواسطة مجلس الشيوخ لم تكن تمثل غير النهب والحروب المدنية فكانت النفوس تطمع في رجل يكون من القوة بحيث يحول دون الحروب والثورات، وعلى هذا الوجه أسست الإمبراطورية الرومانية.

تنظيم الحكومة الملكية- يقضي نظام الحكم الجديد الذي وضعه وريث قيصر أن يكون الحكم المطلق، بيد رجل واحد يدعى الإمبراطور، أي: الرجل المدبر لأمره وله الحق أن يتولى السلطات بأسرها التي كانت موزعة بين الحكام القدماء فيرأس مجلس الشيوخ ويجمع الجيوش كلها ويقودها ويضع قائمة بأسماء أعضاء الشيوخ والفرسان والوطنيين ويجبي الضرائب، وهو القاضي الأكبر والحبر الأعظم وله سلطة القضاة ولبيان أن هذه السلطة قد جعلته رجلا فوق الرجال من البشر لقبوه بلقب ديني، وهو أغسطس، أو أغست ومعناه المحترم.

لم تنتظم شؤون المملكة بثورة أتت على كل اصطلاح قديم، ولم يلغ اسم "جمهورية" وانقضت ثلاثة قرون وأعلام الجنود لا يزال يكتب عليها أربعة حروف من أول أربع كلمات S P Q R ومعناها مجلس الشيوخ والشعب الروماني، ولكن اجتمعت السلطة التي كان يتقاسمها أشخاص كثيرون في يد واحدة بدلا من أن يتولاها سنة فقط أصبح يتولاها طول حياته فالإمبراطور هو الحاكم الفرد مدى حياته في الجمهورية وفيه يتجسد الشعب الروماني، ولذلك كان مطلق التصرف.

مجلس الشيوخ والشعب بقي مجلس الشيوخ الروماني على ما كان عليه قديما مجلس أعيان الأغنياء وأكثر الوجوه حرمة في المملكة فكانت عضوية المجلس تعد من الشرف المرغوب فيه فإذا أرادوا أن يقولوا الأسرة الفلانية كبيرة يقولون هي أسرة شيوخ، ولكن مجلس الشيوخ على حرمته لم تعد له سلطة؛ لأنه لا يتأتى للإمبراطور أن يستغني عنه، ولم يبرح مع هذا أول قوة حاكمة في الحكومة، وإن لم يكن المسيطر عليها، وكان يتظاهر الإمبراطور أحيانا بأنه يريد أحد رأيه ولكنه لا يعمل بمشوراته.

فقد الشعب كل سلطة إذ ألغيت مجالسه منذ عهد تيبر وأصبح جمهور الأمة المزدحم في رومية لا يتألف إلا من بضعة ألوف من كبار السادة مع عبيدهم، ومن خليط من الشحاذين، وكانت الحكومة قد تعهدت بإطعامهم، وكان الإمبراطرة يوزعون عليهم الحنطة ويرضخون لهم بشيء من النقود فأعطى أغسطس سبعمائة فرنك عن كل رأس تسع مرات وأعطى نيرون ٢٥٠ فرنكا ثلاث مرات عن كل رأس.

ثم إن الحكومة كانت تقيم مشاهد لتسلية هذا الغوغاء، وكان عدد المشاهد النظامية ٦٦ يوما في السنة على عهد الجمهورية فبلغت بعد قرن ونصف على عهد مارك أوريل ١٣٥ يوما، وفي القرن الخامس وصلت إلى ١٧٥ يوما دع عنك الأيام الإضافية.

وتدوم هذه المشاهد منذ شروق الشمس إلى غروبها فيتناول المتفرجون طعامهم في الساحات، وهذا ما كان الإمبراطرة يتخذون منه طريقة أمينة لإشغال العامة، قال أحد الممثلين لأغسطس: لفائدتك يا قيصر يعتني الشعب بنا، بل كانت هذه المشاهد واسطة لاستمالة قلوب الأمة للإمبراطور فكثيرا ما كان أقبح الإمبراطرة أكثرهم حظوة عند العامة، فكان نيرون (الظالم) يعبد؛ لأنه قام بألعاب لطيفة، فلم يصدق العامة بأنه مات، وكان ينتظر قدومه بعد ثلاثين سنة من موته.

وما كان العامة في رومية يبحثون عن تولي الأمور، بل غاية ما تطال إليهم نفوسهم أن يتسلوا، أو يأكلوا؛ كما، قال حوفينال في عبارة له إشارة: "خبز وألعاب الميدان".

التأليه- الإمبراطور وحده سيد المملكة مادام حيا؛ لأن الشعب الروماني يتخلى له عن كل سلطة ومتى مات يبحث مجلس الشيوخ فيما أتاه في حياته ويحاكمه باسم الشعب فإذا حكم عليه تبطل جميع أعماله وتتحطم تماثيله

ويمحى اسمه من المصانع والآثار[٣١]، وإذا أقر على أعماله (وهو ما يحدث غالبا) يقرر مجلس الشيوخ بأن الإمبراطور مات، وقد ارتقى إلى مصاف الأرباب.

وقد غدا معظم الإمبراطرة أربابا بعد موتهم على هذه الصورة فكانت تقام لهم معابد وعهد إلى كاهن أن يقيم لهم الشعائر الدينية، وقد كان في جميع أجزاء المملكة معابد رسمت باسم الرب أغسطس والربة رومية واشتهر عن أشخاص أنهم قاموا بوظائف كاهن للإلهي كلود وللإلهي فرنازين، وهذه العادة في تأليه الإمبراطور المتوفى كانت تسمى "التأليه" والكلمة يونانية وانتقلت عادتها من يونان الشرق على ما يظهر.

إدارة الولايات كان ثلاثمائة، أو اربعمائة أسرة شريفة في رومية تحكم البلاد وتستثمر باقي المعمور منذ الفتح الروماني فجاء الإمبراطور ينزع منهم الحكومة ويخضعهم لسلطان ظلمه، حتى أصبح كتاب الرومان يئنون من، فقد حريتهم المسلوبة، ولم يكن لسكان الولايات ما يأسفون عليه، بل ظلوا رعايا، ولكن بدلا من أن يرأسهم عدة مئات من الرؤساء يتناوبون الحكومة على الدوام ويجيئونهم نهمين للغنى أصبح لهم رئيس واحد، وهو الإمبراطور يهتم بالنظر في أمرهم، ولقد أوجز تيبر السياسة الإمبراطورية بما يأتي "الراعي الصالح يجز صوف غنمه، ولا ينتفه" فمضى زهاء قرنين، وقد اكتفى الإمبراطرة بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيرا من الأموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي، بل من عمالهم أنفسهم وعندما كان سكان الولايات يشكون من الفظائع، ومن سرقات حكامهم كانوا يستعدون الإمبراطور فيعديهم، وكان من المعروف عند القوم أن الإمبراطور يقبل الشكوى على ضابطه، وهذا كان يكفي لإدخال الرعب على قلوب الولاة الفاسدين وإدخال الطمأنينة على رعاياهم.

الولايات كلها ملك الإمبراطور[٣٢]؛ لأنه يمثل الشعب الروماني فهو قائد

---

(٣١) عثر على كتابات محي منها اسم دومنيسين على هذه الصورة

(٣٢) ترك أغسطس لمجلس الشيوخ بعض ولايات من أقل ولاياته منزلة ولكن ظل فيها حاكما متحكما مثل ولاياته الخاصة كأنه صاحبها

جميع الجنود وسيد الناس طرا ومالك الأراضي كافة (قال الفقيه كايوس ليس لنا في أراضي الولايات إلا التمتع بها والإمبراطور وحده مالك لها) وإذ كان من المتعذر أن ينصب الإمبراطور في كل ولاية عنه الوكلاء الذين يختارهم بنفسه يرسل إلى كل ولاية بضابط (يسمونه مندوب أغسطس لتولي وظيفة القضاء)، وهذا المندوب يحكم البلاد ويقود الجيش ويطوف في ولايته ليفض المصالح المهمة وبيده الحياة والموت كالإمبراطور ويبعث الإمبراطور أيضا بمحافظ لجبي الخراج وإدخال المال في صندوق الإمبراطور (ويسمونه نائب أغسطس).

فالضابط والمحافظ يمثلان الإمبراطور ويحكمان على رعاياه ويقودان جنده ويثبتان ملكيته ويختارهم الإمبراطور أبدا من الطبقتين الشريفتين في رومية يختار الضباط من مجلس الشيوخ والمحافظين من الفرسان ولهؤلاء العمال مراتب للتشريف على نحو ما كان الحكام في رومية القديمة يتدرجون من ولاية إلى أخرى ذاهبين من طرف المملكة إلى طرفها[٣٣] فمن سورية إلى إسبانيا، ومن إنكلترا إلى إفريقية وإنك لتقرأ في الكتابات المكتوبة على قبور رجال ذاك العهد جميع المناصب التي شغلوها مبينة أحسن بيان وكتابة قبورهم تكفي لبيان تراجمهم، وما تولد من أعمالهم.

الحياة البلدية- وكان تحت هؤلاء العمال الكبار الذين يمثلون الإمبراطور، وهم لا يسألون عما يفعلون أناس من العامة الخاضعين يديرون شؤون أنفسهم بأنفسهم وللإمبراطور الحق في أن يتداخل في شؤونهم الداخلية إلا أنه لا يسيء في العادة استعمال هذا الحق فيطلب إليهم فقط أن لا يحاربوا، وأن يدافعوا على وتيرة واحدة ما يفرض عليهم من الأموال، وأن يحاكموا أمام محكمة الوالي،

---

(٣٣) قال الفيلسوف إبيكيت لا يقدر كبار الرجال أن يتأصلوا في الأرض كالنباتات بل عليهم أن يسيحوا كثيرا لإطاعة أوامر الإمبراطور

وكان في كل ولاية كثير من الحكام المحكومين ويسمون أهل المدينة، أو البلديون، ومن هنا جاءت كلمة الحكم البلدي والمجلس البلدي.

تجري كل مدينة خاضعة للإمبراطور في ترتيباتها على مثال رومية نفسها فيكون لها مجلس الشعب وتنتخب حكامها لسنة ويقسمون إلى فرق في كل فرقة عضوان ومجلس الشيوخ مؤلف من كبار أرباب الأملاك والأغنياء وأرباب الأسر القديمة، وفي الولايات؛ كما في رومية لا يكون مجلس الأمة إلا صورة والحكم لمجلس الشيوخ، أي: للأشراف.

من العادة أن يكون مقر الولاية مدينة، أي: مثل مدينة رومية مصغرة ولها معابدها وأقواس نصرها وحماماتها العامة وأحواضها ودور تمثيلها وميادين قتالها والعيشة فيها عيشة مصغرة من عيش رومية فتوزع الحنطة والدراهم على الفقراء وتولم الولائم العامة وتقام الحفلات الدينية الكبرى والألعاب الدموية إلا أن رومية تقوم بما يجب لذلك من النفقات تأخذه من مال الولايات، أما في الولايات فإن الأشراف يقومون بالإنفاق على حكومتهم وأعيادها والخراج الذي يجبى لحساب الإمبراطور يحمل كله إليه، ولذلك يقضى على أغنياء كل مدينة أن يقوموا بما يقتضي من النفقات للاحتفال بالألعاب وإحماء الحمامات وتبليط الشوارع وبناء الجسور والمجاري والساحات قاموا بذلك مدة تزيد عن قرنين وأنفقوا عن سعة شهدت بذلك المصانع المبنية في أرض المملكة وألوف من المكتوبات على الأحجار.

المستعمرات- تقيم رومية في البلاد التي تشك في إخضاعها لها جيشا صغيرا تسكنه فيها فيبني مدينة تكون حصنا حصينا وتبعث إليه بأناس من الوطنيين الرومانيين يكونونجندا وفلاحين في آن واحد ويجزئ الجيش الأراضي المجاورة إلى حصص متساوية توزعها عليهم، وهذا ما يسمونه مستعمرة.

ويبقى المستعمرون وطنيين رومانيين ويخضعون لجميع ما تأمر به رومية وتختلف المستعمرة الرومانية عن المستعمرة اليونانية التي كانت كثيرا ما تشق

عصا الطاعة، حتى إنها لتحارب أثينة نفسها بأن تكون أبدا ابنة خاضعة لأمها فليست المستعمرة إلا حامية رومانية مرابطة بين الأعداء، وكانت أكثر هذه المحطات العسكرية في إيطاليا، ولكن كان منها في مكان آخر مثل مستعمرة فاربون وليون وآرل فإنها كانت مستعمرات رومانية.

جيش التخوم- لم يكن في المدن الداخلية جيش روماني؛ لأن سكان المملكة لا يرون الانتقاض على الحكومة، فلم يكن للمملكة أعداء إلا على الحدود، وكان الأجانب أبدا على استعداد من مهاجمتها فالجرمان وراء نهري الرين والطونة ورحالة الصحراء وراء رمال إفريقية ووراء الفرات جيوش المملكة الفارسية.

ولذا كان من اللازم اللازب إقامة جند يكون على قدم الاستعداد على تلك التخوم المعرضة أبدا للتهديد أدرك أغسطس ذلك فأنشأ جيشا دائما، فلم يكن جنود الإمبراطورية من أصحاب الأراضي يؤخذون من حقولهم ليخدموا في الجندية بعض حملات، بل كانوا أناسا من الفقراء جعلوا الحرب صناعة لهم فيدخلون الجندية ليخدموا فيها ست عشرة سنة، أو عشرين سنة، وربما جددوا هذه المدة.

وعلى هذا كان للإمبراطورية في رومية ثلاثون فرقة من الوطنيين، أي: ١٨٠ ألفا ولهم بموجب العادة الرومانية مساعدون فيبلغ مجموعهم نحو ٤٠٠ ألف رجل على التقريب، وكان هذا الجيش قليلا بالنسبة لعظم تلك المملكة.

ولكل ولاية على الحدود جيش صغير بعيد في معسكر دائم يشبه قلعة يجيء الباعة ينزلون بقربها فلا يعتم المعسكر أن يصبح مدينة وهكذا يعسكر الجند بإزاء العدو فيحفظون شجاعتهم ودربتهم مضت ثلاثة قرون والجند الروماني يدخل في كل حرب زبون مع البرابرة المتوحشين ولاسيما على ضفاف الرين والطونة في بلاد ندية قاحلة مغشاة بالغابات والمستنقعات، وربما بذل الجند الروماني في هذه الحروب التي لا نتيجة لها من الشجاعة والشهامة أكثر مما بذل قدماء اليونان في فتح العالم.

الأداب- لم يكن الرومان بالطبع أمة فنون، وقد أصبحوا كذلك فيما بعد مقتفين فيها أثر اليونان فمن يونان أخذوا نموذجا من فاجعاتهم وقصصهم الهزلية وملاحمهم وأناشيدهم وأشعارهم الفلسفية والعامية والتاريخية واقتصر بعضهم على ترجمة الأصل اليوناني (كما فعل هوراس في أناشيده) وكلهم اقتبسوا من اليونان أفكارهم ومناحيهم ومزجوها عندما احتذوا مثالها بما عرف فيهم من صفات الصبر والشهامة، حتى صارت بعض آثارهم غريبة الغرائب في أسلوبها.

واتفق الرومان على أن العهد الذي أزهرت فيه الأداب اللاتينية حقيقة كانت الخمسين سنة التي قضاها أغسطس في الحكومة فهو الوقت الذي نبغ فيه فرجيل وهوراس وأوفيد وتيبول وبرويرس وتيت ليف، ولكن عصر أغسطس (كما يسمونه) قد سبقه ولحقه قرنان ربما عادلاء في إخراج النوابغ ففي الجيل الأول (القرن الأول قبل المسيح) ظهر الشاعر الغريب المدهش لوكريس وقيصر رانير ناتر وشيشرون أخطب خطيب في الجيل اللاحق كتب سينيك ولوكين وتاسيت وبلين وجوفينال ما كتبوا.

وبعض هؤلاء المؤلفين العظماء فقط من أسرة رومانية ومعظمهم إيطاليون وكثيرون من الولايات مثل فرجيل من مانتو وتيت ليف من بادو (في غاليا) وسينيك إسباني، وكان الفصاحة هي الفن الوطني حقا في رومية، فكان الرومان كالطليان في أيامنا يحبون الكلام علنا، وكان الخطباء يأتون إلى ساحات الاجتماع، حيث تلتئم مجالس الأمة في أواخر عهد الجمهورية يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم وشيشرون أعظم أولئك الخطباء، وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه.

ولما سقطت الجمهورية انقضت أيام المجالس ففقدت الفصاحة لقلة المادة.

اللغة اللاتينية- انتفعت آداب اللغة اللاتينية بفتوحات رومية فنقلها الرومان مع لغتهم إلى رعاياها المتوحشين في الغرب فتناسى جميع شعوب إيطاليا

وغاليا وإسبانيا وإفريقية وضفاف الطونة لغاتهم الخاصة وتعلموا اللغة اللاتينية، ولما لم يكن لهم آداب وطنية خاصة اقتبسوا آداب حاكميهم فتكلم أهل الإمبراطورية إذ ذاك بلغتي الشعبين الكبيرين القديمين فظل الشرق يتكلم باليونانية وأخذ الغرب بأجمعه يتكلم باللغة اللاتينية ، فلم تكن اللاتينية اللغة الرسمية للوطنيين وكبار الرجال فقط؛ كما هي الإنكليزية لعهدنا في الهند، بل إن الأمة نفسها تتكلم بها ما أمكن من الصحة بحيث إن القوم في أوربا بعد انقضاء ثمانية عشر قرنا ما برحوا يتكلمون إلى اليوم بخمس لغات مشتقة من اللاتينية، وهي الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسوية والرومانية.

وانتشرت الآداب اللاتينية مع اللغة اللاتينية في عامة أنحاء الغرب فما كانت تدرس في القرن الرابع في مدارس بوردو وأوتون غير شعراء اللاتين وخطبائهم وظل الأساقفة والقسيسون بعد هجوم البرابرة يكتبون باللغة اللاتينية ونقلوا هذه العادة أيضا إلى شعوب إنكلترا وألمانيا الذين احتفظوا بلغتهم الجرمانية فباللاتينية كتبت في القرون الوسطى السجلات والعقود والشرائع والتواريخ والكتب العلمية، وفي الديار والمدارس لا تقرأ، ولا تنسخ، ولا تعتبر غير الكتب اللاتينية، وما عدا كتب العبادة لم يعرف غير مؤلفي اللاتين أمثال فرجيل وهوراس وشيشرون وبلين لجون، وما كانت النهضة العصرية الأوروبية إلا عبارة عن إحياء ما، فقد من آثار أقلام كتاب اللاتين وأصبح النسج على منوالهم أكثر من ذي قبل فكما أن الرومان أنشئوا لأنفسهم آدابا خاصة لتقليدهم اليونان هكذا صار المحدثون من الأوربيين ينسجون على مثال كتاب اللاتين وليت شعري هل عاد ذلك بخير أم بشر، ومن يجرأ أن يفوه بذلك فمما لا جدال فيه إذا أن لغاتنا الرومانية الأصل هي بنات اللاتينية، وأن آدابنا طافحة بالأفكار والمنازع الأدبية الرومانية، وأن العالم العربي بأسره مصبوغ بصبغة الآداب اللاتينية.

الصناعات- عثر الباحثون بكثرة على تماثيل وصور بارزة رومانية أبقتها الأيام من عهد تلك الحكومة منها ما نقل عن الآثار المصرية ويكاد يكون معظمها

تقليدا لها ولكنها أقل من الأصل لطفا وذوقا، ومن أغرب الأنموذجات الباقية النقوش البارزة والصور النصفية.

فالنقوش البارزة كانت تزدان بها المصانع (كالمعابد والعمد وأقواس النصر) والقبور والنواويس تمثل بها أحسن تمثيل مشاهدة حقيقية وحفلات ونذورا وحروبا ومآتم وكل ما يحيطنا علما بالحياة السالفة، وأن النقوش البارزة التي جعلت حول أعمدة تراجان ومارك أوريل لتجعلنا كأننا نشاهد مشاهد حروبها العظيمة وبتلك الرسوم تتمثل لك الجنود تقاتل البرابرة ويحاصرون قلاعهم ويأتون بالأسرى؛ كما تشاهد النذور العامة والإمبراطور يخطب شعبه.

والصور النصفية هي في الأكثر صور الإمبراطرة ونسائهم وأولادهم وإذ كثرت تماثيلهم في أطراف المملكة بأسرها عثر على كثير منها، حتى إن عند جميع المتاحف اليوم مجموعة من الصور النصفية الإمبراطورية، وهي صور حقيقية، وربما كانت شبيهة بأصحابها كل الشبه إذ ترى فيها سيماء كل إمبراطور واضحة، أي: وضوح وكثيرا ما تكون بشعة مستكرهة بحيث لم يحاول النقاشون أن يزينوها ويحفوا من سحنات المصورين.

فعلم البناء هو الفن الروماني الحقيقي؛ لأنه يقوم بحاجة عملية وفيه أيضا قلد الرومان اليونان باتخاذ الأروقة والعمد، ولكن كانت لهم طريقة لا يستعملها اليونان، وهي العقود (الأقبية)، أي: فن وضع الأحجار المنحوتة تدعم بعضها بعضا على شكل قوس مربع فبالعقود تسنى لهم أن ينشئوا أبنية أوسع وأكثر تفننا من أبنية اليونان.

المصانع- إليك أهم أنواع المصانع الرومانية منها "المعبد"، وهو كثيرا ما يشبه المعبد اليوناني وله دهليز متسع ويكون أحيانا أكثر سعة تعلوه قبة، ومن هذا النوع معبد البانتيون الذي بني في رومية على عهد أغسطس ومنها "الكنيسة الكبرى"، وهي بناء مستطيل طويل يعلوه سقف وتحيط به أروقة وفيها يتصدر الحاكم يحيط به نوابه وفيها يجتمع التجار ليتجادلوا في ثمن البضائع

فالكنيسة هي "بورصة" ومحكمة معا، وفي الكنائس الكبرى أقيمت بعد ذلك مجالس المسيحيين وظلت الكنائس النصرانية قرونا محتفظة بأسماء الكنائس الرومانية وأشكالها.

ومنها المرازح "المراسج" ذات الدرجات "انفنياتر" والملعب، وهي مؤلفة من عدة طبقات واروقة وضعت بعضها فوق بعض تحيط بالملعب وكل طبقة من هذه الأروقة يعلوه عدة صفوف من الدريجات، وذلك مثل الكوليرة في رومية وميادين أرل ونيم ومنها قوس النصر، وهو باب شرف له بعض سعة بحيث يكفي لمروره مركبة منه، وهو مزين بعمد ومزخرف بنقوش كثيرة، ومن هذا النوع قوس النصر في أورانج ومنها الجسر، وهو يبنى على صف من الحنايا وسط النهر ومنها المجاري التي تجلب فيها المياه وكثيرا ما تكون على شكل جسر لتمر فوق دار، ومن هذا الضرب من المجاري القطعة من الجسر المسماة كارد.

وقد كان الإمبراطور أغسطس يفاخر بأنه افتتح في رومية زهاء ثمانين معبدا، قال: "لقد وجدت مدينة من القرميد وها أنا ذا أترك مدينة من الرخام" وعمل أحلافه كلهم على زخرفة رومية، وقد ازدحمت المصانع حوالي الفوروم (الميدان) خاصة وأصبح الكانتول مع معبده المعروف بمعبد المشتري أشبه شيء بالأكروبول في أثينة، وفي ذاك الحي أيضا أنشئوا عدة ساحات ذات مصانع مثل ساحة قيصر وساحة أغسطس وساحة برفنا وساحة تراجان، وهي أزهاهن.

استخدم الرومان[٣١] في أبنيتهم الحجارة التي وقعت تحت أيديهم في البلاد يرصفونها بملاط متين صنع بالكس والرمل بحيث أتت عليه الف وثمانمائة سنة، وهو لم يتحتت بما أصابه من الرطوبة، ولا تقرأ في مصانع الرومان تلك البهجة التي تتجلى على المصانع اليونانية بلى إنها متسعة متينة راسخة القواعد شأن الفتح الروماني ومازالت أرض البلاد إلى يومنا هذا طافحة بأنقاض تلك

---

(٣٤) لا ينبغي أن يغرب عن الأذهان ان الصناعات الرومانية هي كالآداب الرومانية

المصانع، ولم يبرح الباحثون يعثرون، حتى في قفار إفريقية والدهشة آخذة منهم على مصانع رومانية محفوظة سالمة، ولما أريد جلب الماء إلى تونس لم يعملوا إلا أن أصلحوا مجرى النهر الذي أنشئ في العهد الروماني.

التجارة أصبحت رومية أعظم مدينة في العالم (ويذهبون إلى أنه جاء عليها زمن كان فيها مليون نسمة) فكانت بالطبع مركز تجارة المملكة، ولقد مضت العصور القديمة والمتاجر تنقل في الماء، اي: في البحار، وفي الأنهار أكثر من الطرق التي يقتضي لها عجلات ثقيلة لنقل تلك المتاجر فكانت المتاجر تنقل إلى رومية من طريق البحر خاصة فتقلها السفن إلى مرفأ أوستي عند مصب نهر التيبر ومنها توسق في قوارب تصعد النهر، حتى تصل إلى سفح جبل أفنتين وتنزل شحنها في مرفأ رومية، وكانت البضائع الخاصة ببقية إيطاليا تفرغ في مرفأ فوزول في خليج نابولي، ومن هناك يرسلونها في الطرق، وإذا تيسر لهم يرسلونها في قوارب تسير على الشاطئ، أو تجري صعدا في الأنهار تجرها الخيول.

وكانت رومية وإيطاليا تصرفان أكثر مما تنتجان فتجارتهما خاصة تجارة واردات، وكان تجار من الطليان ينزلون في أهم مرافئ العالم يجمعون فيها حاصلات كل بلد ليبعثوا بها إلى رومية وكنت تجد في كل بلد مركزا للتجارة مثل بلزمة في صقلية وقرطاجنة في إفريقية والإسكندرية في مصر، ومن هذه البلاد كانت تجلب إلى رومية الحبوب والزيت والفاكهة والبقول الناشفة، ومن المراكز التجارية أفير في آسيا الصغرى وأنطاكية في سورية ومنها كانوا يرسلون الأصواف والأقمشة والحنطة التي تخرجها البلاد الداخلية، ومن هذه المراكز أولبيا على شاطئ البحر الأسود وإليها كانت تأتي حنطة روسيا ومنها قادش في إسبانيا كانت ترسل إلى رومية فضة المناجم وأوبار بتنكيا (في الأندلس)، ومن هذه المراكز ناربون وأرل في غاليا كان يجلب إليهما في نهر الرون جلود بلاد الغال وأخشابها (أما مارسيليا فكانت سقطت منزلتها القديمة ومرسى فريجوس أصبح مينا حربية).

وكان الرومانيون يجلبون أيضا بضائع من خارج فيبعث إليهم الشرق بأدوات الزينة والرفاهية كالعطور والأبازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والحجار لم تنشأ، بيد صناع من الرومان بل، بيد أناس من سكان الولايات ربما كانوا من العبيد، ولم يكن ثمت روماني إلا الرجل الذي يعملون له أعمالهم الكريمة وأقمشة الصوف والحرير والعبيد السود والحيوانات النادرة (ولاسيما القرود) فكانت تجلب إلى الإسكندرية من طريق البحر الأحمر، أو في النيل وتأتي إلى أنطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام (مع القوافل) وإلى أوليبا من طريق بلاد فارس وبحر الجزر، وكان الرومان يستخرجون من بلاد الشمال المواد التي لم تهذبها يد الصناعة مثل عنبر البلطيق وقصدير إنكلترا، وكان يأتي من طريق غاليا الجلود والأديم والشمع وشعور النساء والعبيد.

أغسطس- مات أغسطس، ولم يخلف وريثا يرثه مباشرة فخلفه ابن زوجته تيبر، وهو الذي تبناه ومضى نصف قرن والإمبراطور أبدا رجل من أسرة أغسطس وأدرك الرومان منذ ذاك فساد هذه الطريقة.

فكان للإمبراطور مدة حياته سلطة متناهية لا حد لها فهو الحاكم على هواه في الأشخاص والأموال يحكم بالقتل ويصادر الأموال ويهلك من يريد إهلاكه بدون رقيب لا يقف أمام إرادته حاجز من نظام، ولا قانون، حتى، قال المشرعون الرومان: إن لأمر الإمبراطور قوة القانون وبذلك عرفت رومية الاستبداد الذي لا نهاية له على نحو الاستبداد الذي كان يجري في المدن اليونانية استبداد لم ينحصر في سور ضيق من مدينة، بل كان عظيما كالملكة فكما كان في يونان ظالمون أهل حشمة ووقار كان في رومية إمبراطرة حكماء محتشمون، ولكن قل في هؤلاء من لم يستهوهم دوار السلطة عندما يرون أنهم بلغوا أرقى رتبة يصل إليها إنسان، ومن إمبراطرة رومية من لم يستخدموا سلطتهم التي لم يسمع بمثلها إلا لترسل أسماؤهم كالأمثال فضرب المثل بنيرون وظلمه وبكلود خليفة تيبر وسخافته وكاليخولا وجنونه المطبق وتقليده حصانه رتبة قنصل وتطاوله إلى أن

يعبد كالأرباب، فكان الإمبراطرة يضطهدون الأشراف خاصة ليحولوهم عن كيد المكايد ويضغطون على الأغنياء ليصادروا أموالهم.

وكانت هذه السلطة المتناهية سيئة النظام، وهي تتمثل كلها في شخص الإمبراطور ومتى هلك يبحث فيما أتاه من الأعمال كان القوم عارفين بأن العالم لا يستغني عن سيد، ولكن ليس في شريعة، ولا عادة ما يستدل به على ماهية ذاك السيد، فكان من حق مجلس الشيوخ وحده أن يعين الإمبراطور ولكنه يختار أبدا بالقوة من اختاره الإمبراطور السالف، أو رضي عنه الجند، ولقد عثر حراس القصر الإمبراطوري بينا كانوا يبحثون فيه عقيب وفاة الإمبراطور كاليجولا على رجل اختبأ وراء الفرش، وهو ترتعد فرائصه فرأوا أنه من أنسباء كاليجولا فعينه الحرس إمبراطورا، وكان هو الإمبراطور كلود.

الحرس الإمبراطوري- كان يحظر زمن الجمهورية على القائد أن يأتي في جيشه إلى المدينة فأصبح الإمبراطور رئيس الجيوش كلها وله في رومية حرس عسكري مؤلف من نحو عشرة آلاف رجل أقاموا منذ عهد تيبر في ثكنة حصينة بالقرب من المدينة وينتخب هذا الحرس من قدماء الأجناد وتدر عليه الرواتب الكثيرة وتتوالى عليه الإحسانات وبهؤلاء الجنود يعتز الإمبراطور فلا يخاف بائقة تصيبه من الناقمين عليه من أهل رومية، بيد أن الخطر كان يأتي من الحرس نفسه وإذ كانت القوة معهم اعتقدوا بأنه يحل لهم أن يأتوا كل شيء، وكان زعيمهم أوسع سلطة من الإمبراطور.

الثورات والحروب- استشاط أشراف الرومان غضبا مما أتاه نيرون من الفظائع وضروب الجنون فحدا سخطهم ببعض الولاة إلى الانتقاض وخلع الطاعة فشعر إذ ذاك مجلس الشيوخ بقوة يستند إليها فأعلن أن نيرون عدو عام، فلم يسعه إلا الهرب، ثم الانتحار.

وبعد موته (٦٨) وقع اختيار مجلس الشيوخ على والي إسبانيا المدعو غاليا فعينوه إمبراطورا، ولكن الحرس الإمبراطوري لم يره كريما جوادا فذبحه ونصب

مكانه أحد ندماء نيرون واسمه أتون، ثم إن الجنود المرابطة في تخوم جرمانيا أرادت أن تنصب بنفسها إمبراطورا فدخلت فرق نهر الرين إلى إيطاليا فصادفوا الحرس الإمبراطوري بالقرب من كريمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة شعواء أحدث بطرفي الليل، ثم نصبوا الإمبراطور الذي اختاره مجلس الشيوخ، وهذا القائد فيتليوس.

وفي ذاك الحين انتخب جيش سورية زعيمه فسباسين الذي قاتل فيتليوس وعين مكانه (٦٩) وهكذا نصبت رومية ثلاثة إمبراطرة في سنتين وأنزل الجند ثلاثة إمبراطرة عن عروشهم، وفي خلال هذه الحروب نهب جنود جرمانيا مدينة وحرق معبد الكانتول.

الفلافيون نصب فسباسين إمبراطورا فوطد أركان السلم، وكان إيطاليا، وهو حفيد أحد الفلاحين حافظ على عادات له في الاقتصاد وللسذاجة في عيشه فرأى القسم الأعظم من مجلس الشيوخ قد تمزق شملهم والأسرات القديمة قد بادت، أو هلكت فاستعاض عنها بأسرات إيطالية، أو من أهل الولايات، ولما تجدد مجلس الشيوخ على هذه الصورة كف عن إبداء العداء للإمبراطور فخلف فسباسين أولا (٧٩) ابنه تينوس الذي مات للحال، ثم ابنه دومنسين (٨١) الذي كان قاسيا غدارا مثل ظلمة اليونان.

الأنطونيون اشتهر الخمسة الإمبراطرة الآتون، وهم نرفا وتراجان وأدريان وأنطونين ومارل أوريل (٩٦ - ١٨٠) بالحشمة والحكمة ويدعونهم الأنطونيين (وهذا الاسم لا يوافق في الحقيقة إلا الآخرين منهم)، ولم يكونوا من نسل البيوت القديمة في رومية، بل كان تراجان وأدرين إسبانيين وولد أنطونين في نيم، ولم يكونوا أمراء من أسرات إمبراطورية خلقت لتولي رقاب الناس منذ ولادتها، وقد تولى الحكم أربعة إمبراطرة، وهم عقيمون، فلم يتسن نقل الحكم بالوراثة، وكان الإمبراطور يختار كل مرة من قواده وولاته أقدر رجل يخلفه ويتبناه ويعينه باختيار مجلس الشيوخ له وهكذا لم يبلغ عرش الإمبراطورية إلا أناس محنكون

يخلفون آباءهم في مركزهم بدون، قال وقيل.

ولقد كان عصر الأنطونيين أهدأ العصور التي عرفها العالم القديم والحروب تنشأ بعيدة عن تخوم المملكة، ولم يحدث في الداخلية شغب عسكري بتاتا، ولا مظلمة، ولا أحكام جائرة فكبح الأنطونيون جماح الجند بتدريبهم على النظام ونظموا المحاكم ومجلس الإمبراطورية، وهو مؤلف من الفقهاء والمشرعين واستعاضوا عمن حرروهم من العبيد الذين طالما سخط الرومانيون عليهم على عهد الاثني عشر قيصرا بأناس من الموظفين النظاميين اختاروهم من أشراف الطبقة الثانية (يعني الفرسان)، وما عاد الإمبراطور ظالما يخدمه جند، بل كان حقا الحاكم الأول في الجمهورية لا يستعمل سلطته إلا لما فيه نفع شعبه.

حارب الأنطونيون حروبا كثيرة ليدفعوا الشعوب المحاربة التي كانت تحاول مهاجمة الإمبراطور من ناحيتين فحاربوا في أسفل نهر الطونة الداسيين، وهم شعب بربري سكن البلاد الجبلية ذات الغابات التي نسميها الآن ترانسلفانيا؛ كما حاربوا على الفرات حكومة البارتيين العسكرية الكبرى التي كانت جعلت المدائن عاصمتها قرب بابل، وكانت مملكتهم تمتد على طول بلاد فارس.

ولقد حمل تراجان على الداسيين عدة حملات واجتاز الطونة وربح في ثلاثة مواقع واستولى على عاصمة ملك الداسيين (١٠١ - ١٠٢) وتفضل عليهم بالصلح، ولما عاود الداسيون الحرب عمد تراجان ان يأتي عليهم فانشأ على نهر الطونة جسرا من حجر وهاجم ولايتهم فضمها إلى المملكة الرومانية (١٠٦) وأنزل فيها طوارئ ومستعمرين أنشئوا فيها مدنا وأصبحت ولاية داسيا بلادا رومانية تكلم أهلها باللاتينية وتخلقوا بالأخلاق الرومانية.

ولما انجلت الجيوش الرومانية في أواخر القرن الثالث كانت قد استحكمت اللغة اللاتينية من الداسيين وظلت شائعة في بلادهم خلال القرون الوسطى على الرغم من غارات برابرة الصقالبة، وقد أطلق على الشعب الذي يسكن اليوم السهول في شمالي الدانوب اسم رومية فيدعى الروماني ويتكلم بلغة مشتقة من

اللاتينية كالإفرنسية والإسبانية.

حارب تراجان البارتين أيضا فجاز الفرات واستولى على "المدائن"، وهي عاصمتهم وتوغل في أحشاء البلاد إلى فارس ودخل إلى سوس وأخذ منها عرش ملوك فارس المعمول من الذهب الأصم وانشأ أسطولا على دجلة ونزل في النهر، حتى مصبه وأبحر في خليج فارس واستخلص من البارتيين البلاد الواقعة بين بلاد الفرات وذجلة وجعلها ولايتين رومانيتين، بيد أن هاتين الولايتين انتقضتا بعد سفر الجيش الروماني.

أما الأنطونيان الأخيران، وهما أنطونين ومارك أوريل، فقد شرفا الإمبراطورية بفضائلهما، وكان كلاهما يعيش ببساطة؛ كما يعيش الأفراد على غناهما دون أن يكون لهما ما يشبه قصرا، أو سرايا، وأن يشعرا بأنه كانت لهما سلطة وسيادة.

ولقد لقب مارك أوريل على العرش بالحكيم، وكان يحكم البلاد مدفوعا بعامل الواجب على غير إرادته ومع أنه كان يؤثر العزلة قضى حياته في الحكم وقيادة الجيوش وإنك لترى فيما خطه في تذكرته البيتية من أفكاره صورة الفيلسوف الرواقي الصالح الزاهد العازف عن العالم، وهو على جانب من اللطف والحلم، قال: "أحسن الأساليب في الانتقام من الأشقياء هو أن لا يعمل المرء عملهم والأرباب أنفسهم يعطفون على الأشقياء فلك أن تقتدي بالأرباب".

ولقد كان مارك أوريل يأخذ برأي مجلس الشيوخ في عامة المسائل ويحضر جلساته بدون انقطاع، ولقد وقف في وجه كثير من الشعوب البربرية الجرمانية يرد غاراتها ويدفع عادياتها تلك القبائل التي اجتازت الطونة على الجليد ودخل إلى شمالي إيطاليا واقتضى له أن يؤلف جيشا فجند عبيدا وبرابرة (١٧٣) فانسحب الجرمانيون، ولكن بينا كان مارك أوريل مشغولا في سورية بقتال أحد القواد المتمردين عادوا على أعقابهم وهاجموا الإمبراطورية ومات مارك أوريل على ضفاف الطونة (١٨٠).

ولما وقفت الفتوح (بعد تراجان) كانت الإمبراطوريه نمتد على طول جنوبي أوربا كلها، وعلى طول الشمال من إفريقية والغرب من آسيا، ولا يقف في سبيلها إلا الحدود الطبيعية فمن الغرب البحر المحيط، ومن الشمال جبال إيكوسيا ونهر الرين والطونة وقافقاسيا، ومن الشرق بوادي الفرات وبلاد العرب، ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء الكبيرة فكانت الإمبراطورية الرومانية عبارة عن البلاد التي تتألف منها اليوم كل من إنكلترا واسبانيا وايطاليا وفرنسا والبلجيك وسويسرا وبافيرا والنمسا والبحر والبلاد العثمانية في أوربا ومراكش والجزائر وتونس ومصر وسورية وفلسطين والأناضول، أي: إنها ضعفا مملكة الإسكندر.

السلم الروماني- أبطل الرومان الحروب في داخلية بلادهم بإخضاع جميع الشعوب لسلطاتهم فتوطد السلم الروماني الذي وصفه أحد كتاب اليونان بما يأتي "لكل فرد أن يذهب، حيث شاء فالمرافئ غاصة بالسفن والجبال أمينة على سالكيها أمن المدن لساكنيها، ولم يبق داع للخوف، وقد طرحت الأرض سلاحها الحديدي القديم وتجلت في ثياب الأعياد وها أنتم أولاء قد حققتم قول هوميروس بأن الأرض ملك للجميع".

فأصبح الناس في الغرب للمرة الأولى في حل من إنشاء بيوتهم وزرع حقولهم والاستمتاع بأموالهم وأوقاتهم دون أن يكونوا كل ساعة عرضة لهدد يتهددهم باستلابها منهم، أو أن يذبحوا، أو يقادوا كالأسرى والعبيد، وهذا أمان قلما نقدره قدره إذ قد تمتعنا به كلنا منذ الصغر، ولكن الظاهر أنه كان يعد من حسنات الأمور النادرة عند القدماء.

سهلت الرحلة في تلك الإمبراطورية المسالمة وأنشأ الرومان طرقا في كل مكان مع محطات ومواقف وصنعوا مصورات (خرائط) لطرق المملكة، وكان كثير من أرباب الصناعات والتجار يرحلون من طرف إلى طرف آخر من المملكة ويرحل علماء البيان والفلسفة في بلاد الإمبراطورية ذاهبين من مملكة إلى أخرى، وهم يلقون المحاضرات.

وكان ينزل في كل ولاية أناس من أهل الولايات القاصية، فقد دلت الكتابات على الأحجار أنه كان في إسبانيا أساتذة ومصورون ونقاشون من اليونان، وفي غاليا صياغ وصناع آسياويون.

وجميع هؤلاء كانوا ينقلون عاداتهم وصناعاتهم وأديانهم ويمزجونها بما يرونه عند الأمم التي ينزلون عليها، ثم يعتادون بالتدريج على التكلم باللغة الرومانية، وما انبلج فجر القرن الثالث عشر، حتى عدت اللاتينية لغة بلاد الغرب المشتركة؛ كما أصبحت اليونانية لغة الشرق منذ قام خلفاء الإسكندر فنشأت في رومية؛ كما نشأت في الإسكندرية حضارة مشتركة سموها الحضارة الرومانية، ولم تكن كذلك إلا باسمها ولغتها واجتمعت حضارة العالم القديم في قبضة الإمبراطور.

الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث

السيفيريون- بدأت الفتن الأهلية بعد عهد الإمبراطرة الأنطونيين فذبح الحرس الإمبراطوري سنة ١٩٣ الإمبراطور برتيناكس ورأوا أن يضعوا المملكة في المزاد فتقدم طالبان يريدان ابتياعها أحدهما سولبسين تقدم على أن يعطي كل جندي خمسة آلاف فرنك والثاني ديديوس رفع ما يدفعه لكل جندي إلى ستة آلاف فرنك فحمله الحرس إلى مجلس الشيوخ وعينوه إمبراطورا، ثم لم يستطع القيام بما تعهد به فذبحوه.

وفي خلال ذلك بويع بالملك ثلاثة قواد لثلاثة جيوش كبيرة، وهما قائد برتانيا وقائد إيليريا وقائد سورية وسار هؤلاء الثلاثة المتنافسون إلى رومية فوصلت فرق إيليريا قبل غيرها فعين مجلس الشيوخ القائد سبتيم سيفير إمبراطورا على رومية فنشبت عندئذ حربان سالت فيهما الدماء أنهارا إحداهما لمدافعة جيش سورية والأخرى لمدافعة جيش برتانيا وظلت لسيفير الكلمة النافذة مدة سنتين، وهو الذي أوجز سياسته في كلمتين فقال: "أيها الأبناء ارضوا الجند

واهزءوا بمن بقي".

الفوضى والغارة- مضى قرن ولم يكن قاعدة في الحكومة غير إرادة الجند، وكان في الإمبراطورية ما خلا جيش الحرس الصغير في رومية عدة جيوش كبيرة على نهر الرين والطونة والشرق وإنكلترا وكل جيش يود أن يجعل قائده إمبراطورا والمتنافسون يتقاتلون، حتى كتبت الغلبة لواحد فحكم بضع سنين، ثم قتل[٣٥]، وإذا أسعده الحظ بنقل السلطة إلى ابنه من بعده فالجيش يتمرد على ابنه ذاته وتعود نار الحرب تستعر.

وفي ذاك العهد نشأ إمبراطرة غرائب في أطوارهم، فكان إيلاجابال كاهنا سوريا لبس ثياب امرأة وترك أمه تؤلف مجلس شيوخ من النساء (مجلس شيخات وعجائز)، ومنهم الإمبراطور ماكسيمان، وهو جندي بالعرض وجبار قاس وسفاك كان يأكل على ما يقال ٣٠ لترة من اللحم ويشرب عشرين لترة من الخمر وجاء زمن على هذه المملكة والذين يدعون الإمبراطورية ثلاثون إمبراطورا انقطع كل منهم إلى ناحية من المملكة (٢٧٨ - ٣٦٠) وسمى نفسه إمبراطورا فدعي هؤلاء الثلاثون بالثلاثين ظالما.

وبينا جند البلاد مشغولون بقتال بعضهم بعضا كان يرى البرابرة أن التخوم خالية من الحامية فيجتازون أرض الإمبراطورية ويخربونها، وكان إقليم غاليا خصوصا هو الذي يقاسي الأمرين من هذه الغارات في القرن الثالث فيجتازها عصابات من المحاربين الجرمان كالألمان والفرنك وإذ لم يجدوا فيها مدنا حصينة، ولا جيوشا نهبوا المدن وحرقوها وأخذوا ما شاءوا من أهلها أسرى معهم وذبحوا الباقين وقرصان السكسون يخربون شواطئ بحر المانش.

كان هذا القرن الذي انقضى في حروب قرن خرافات فكنت تجد في كل مكان أناسا يعبدون أرباب المشرق مثل الرب إيزيس وأوزوريس والربة الكبرى، ولكن

---

(٣٥) قدروا أن عدد الإمبراطرة من القرن الأول إلى الثالث ٤٥ مات منهم ٢٩ قتلا

ميترا، وهو رب فارسي رب عام أكثر من الأرباب قاطبة في الإمبراطورية وميترا الشمس، وهي مصورة في المصانع التي انشئت إكراما لها، وهي تصرع ثورا، وقد كتب عليه ما يأتي "للشمس التي تغلب للرب ميترا"، وقد عثر على مثل هذه الرسوم في جميع أجزاء الإمبراطورية وعبادة الشمس ملتبسة مبهمة فهي أحيانا أشبه بالشعائر النصرانية فيكون فيها عماد وولائم مقدسة ومسحة وتوبة وشموع ولأجل أن يقبُل المرء في جملة أهل هذه العبادة يجب القيام بأعمال من صوم ومحن مخوفة.

وقد كان دين ميترا في أواخر القرن الثالث الدين الرسمي في المملكة ودان الإمبراطرة والجيش بهذا الرب القهار ولهذا الرب في كل مكان معابد على شكل مغاور ذات مذابح ونقوش بارزة، وكان في رومية أيضا معبد فخيم أنشأه الإمبراطور أورليان، وكان من أشد الحاجات الماسة في ذاك العهد البقاء مع الأرباب على صلح ووئام فاخترعوا حفلات لتزكية النفس فيلبس المؤمن ثوبا أبيض مزينا بالذهب ويقعد في أسفل هوة فيطبقونها على رأسه بلوح من الخشب مثقوب ويأتون بثور يقفونه على هذا اللوح فينحره الكاهن فيجري دمه من الثقب على أثواب المؤمن ووجهه وشعره، وكانوا يعتقدون أن هذا التعمد بالدم يطهر المرء من السيئات كافة، ومن يجري له يكون كيوم ولدته أمه في حياة جديدة ويخرج من الحفرة بشع الصورة ولكنه سعيدا مغبوطا.

اختلاط الأديان- أخذت الأديان كلها في هذا القرن الذي تقدم فيه فوز النصرانية على غيرها بالاختلاط فتعبد الشمس تحت أسماء منوعة (وهي الترينة وهاروس وبعل وايلكابال وميترا) وجميع هذه العبادات منسوخة بعضها عن بعض وكثيرا ما تجري على مثال العبادات النصرانية، ومن أعظم الأمثلة في هذا الاختلاط الديني ما كان يتوفر عليه إسكندر سيفير الإمبراطور المحتشم الطيب ذو الذمة، فقد كان في قصره مصلى يعبد فيه المحسنين للإنسانية، وهم إبراهيم وأوروفيه ويسوع وأبولونيوس دي تيان.

ديوكلسين- بعد مرور زمن في الحروب الأهلية قام إمبراطرة تمكنوا من وضع حد للشعب، وكانوا قساة عاملين وجندا ترقوا في درجات الجندية، حتى أصبحوا زعماء وقوادا، ثم صاروا إمبراطرة ويكاد يكون منشأ معظم أولئك الإمبراطرة من ولايات نصف متوحشة كولايات الطونة وإيلريا وبعضهم كانوا في طفولتهم رعاة، أو مزارعين، وكانوا في سذاجة أخلاقهم على مثال قدماء قواد الرومان، ولما طلبت وفود ملك الفرس أن يروا الإمبراطور كرويوس رأوه شبحا أصلع يلبس عباءة صوف ويضطجع على الأرض ويتناول حمصا وشحم خنزير، وكانت هذه سيرة كرويوس دانثاتوس قبل خمسة قرون.

ولقد كان هؤلاء الإمبراطرة أشداء على الجند فأحدثوا في الجيش نظاما، وفي البلاد أمانا ولكنه نشأت بحكم الضرورة ثورة أضرم نيرانها الإمبراطور ديوكالين الذي تدرج من الجندية إلى تولي مقام الإمبراطورية (٣٨٥) وتنازل عن الملك بعد أن نظم شؤون الإمبراطورية.

ولم يعد يكفي رجل واحد لتولي شؤون الحكم في تلك البلاد المتسعة والدفاع عنها فاتخذ كل إمبراطور له؛ كما اتخذ ديوكلسين من أنسبائه وأصحابه اثنين، أو ثلاثة يؤازرونه وعهد إلى كل واحد النظر في جزء من مملكته، وفي العادة أن يدعوا باسم "قيصر" ويحدث أحيانا أن يتولى امبراطوران متكافئان يدعى كلاهما باسم أغسطس ومتى هلك أحدهما يجعله أحد القياصرة، أما الجيوش فلا تستطيع أن تنصب إمبراطرة.

واتسعت الولايات، أي: اتساع، حتى أدى ذلك بديوكلسين إلى تقسيمها، فكان عددها ٤٨ ولاية في القرن الثاني فأصبحت زهاء ٩٠ ولاية (وغدت غاليا سبع عشرة ولاية بعد أن كانت سبعا) وأمسى الحرس الإمبراطوري في رومية خطرا على البلاد فاستعاض الإمبراطور ديوكلسين عنه بفرقتين سماهما فرقتي القصر.

المدينة الرومانية على عهد الإمبراطورية

مدينة بومبي- ذكر بلين الفتى في كتاب له قصة ثوران بركان فروف (سنة ٧٩) الذي هلك فيه خاله بلين القديم، وكان المعلوم أن هذا البركان أخرب مدينتين صغيرتين برهتين، وهما هركلانوم وبومبي، ولكن لم يعرف أحد موقعهما واكتشفت في القرن الثامن عشر عشر بالعرض مدينة هركلانوم مغشاة بطبقة من الحمم، ثم كشفت مدينة بومبي مدفونة تحت طبقة من الرماد وحجر الكذان وبدئ بالبحث في هركلانوم فعثر فيها على تماثيل صغيرة جميلة ومدارج مخطوطة محروقة توصل العلماء إلى حل بعضها، ولكن حالت صعوبة العمل في الحمم فوقف الباحثون عن التوفر على ما كانوا بدءوا به وآثروا أن يبحثوا في بومبي، حيث يسهل نزع الرماد، وقد مضى القرن التاسع عشر بأجمعه والهمم متوفرة على نزع الرماد عن المدينة، حتى كادت تظهر بأسرها الآن؛ كما كانت.

ظهرت بومبي للأنظار على ما كانت عليه قديما، وقد سقطت السقوف من ثقل الرماد وفر السكان من كثير من البيوت عند وقوع هذا البلاء، ثم عادوا يفتشون عن أهم الأعلاق وأنفس النفائس، وما برحت الحيطان قائمة، ولم تمح منها الإعلانات المكتوبة بالحمرة، بل مازلت ترى فيها الخطوط التي خطها المارة بالفحم وسلمت الشوارع وبلاطها المحفور بسير المركبات، وقد وجدا أيضا على الرماد ما تركته جثث الذين هلكوا اختناقا من الرسوم، وقد توصلوا بأن جعلوا جبسا مائعا في تلك الرسوم وأخرجوها فكانت قوالب لتلك الأجساد الميتة.

العيشة الرومانية- تصور بومبي للفكر كيف كانت العيشة في مدينة رومانية صغيرة، فقد كانت هذه المدينة حديثة البناء ذات شوارع مصفوفة مقطوعة إلى زوايا قائمة ومبلطة ببلاط محكم الأجزاء ولها أرصفة إلا أن الشارع الأعظم كان معوجا وبلغ من ضيقه أن كان يتعذر على مركبتين أن تلتقيا في وسطه.

ولم يكن للمساكين غير نوافذ صغيرة وقليلة تطل على الشارع، بل كانت للغرفة كلها نوافذ من وسط الدور يدخل إليها النور، وبهذا عرفت أن الشوارع كانت محاطة بحيطان ما عدا الشوارع الرئيسة، وعلى طولها صفوف من الحوانيت يستأجرها السوقة والباعة.

وساحة المدينة متوسطة الحجم تحيط بها المباني والمصانع مثل ديوان مجلس شيوخ المدينة ومعابد صغيرة ومحاكم وسوق مسقوف ورواق ذو عمد وفيه كان يجتمع أهل البطالة وفيها داران للتمثيل حفر القسم الأعظم من الكبير منهما في أكمة، وهو يسع خمسة آلاف متفرج والصغير يسع ألفا وخمسمائة وفيها مشهد ذو درجات على شكل نصف دائرة "أنفيتياتر" تقام فيه الألعاب ويتصارع فيه المصارعون وفيه ثلاثة حمامات عامة (على الأقل) لأصغرهما، وهو الذي حفظ أكثر من غيره مقصورة للاستحمام وأخرى للحمام السخن وثالثة للبارد وصوان (محل الثياب)، وليس في الدور غير أحونة ومقاعد وصناديق وسرر وشمعدانات وكثير من المصابيح إذ لم يكن القدماء يكثرون من الأثاث، أما الغرف فصغيرة ويجعلون الزينة كلها في قاعة الاستقبال الكبرى إلا أن مصايف أغنى أغنياء السكان مبلطة بالفسيفساء والجدران مغشاة بصور جميلة فيها مشاهد أساطير وتزينات من أكاليل وأزهار، أما الحوانيت فحالتها تشعر بضعف التجارة ولحوانيت باعة المشروبات إشارات مصورة، وقد صورت في إحداها صورة باخوس (رب الكرمة) يعصر عنقودا وكتب على حانوت آخر "هنا فندق يؤجر غرفة ذات ثلاثة سرر"، وقد عثروا في تلك المدينة على مخبز فيه رحيان تداران باليد، وعلى معمل لقصر الثياب ودكان حلاق وبيت جراح وأدواته من القلر (النحاس الصفر)ومعمل نقش ودباغة.

المشاهد- كان للمشاهد في حياة هذا الشعب العطل من الأعمال في رومية شأن يصعب علينا تصوره فكانت المشاهد: كما في يونان عبارة عن ألعاب، أي: حفلات دينية وتتعاقب المشاهد طول النهار وتعود من الأيام التالية مدة أسبوع

على الأقل.

والمشهد عبارة عن موعد تتواعد إليه الأمة الحرة بأسرها، وهناك كانت تقام المظاهرات ففي خلال الحروب المدنية سنة ١٩٦ أخذ المتفرجون بلسان واحد يهتفون "السلم" والمشهد (الفرجة) كان بحسب ما تميل إليه النفوس في ذاك الزمن، فقد مثل فيه ثلاثة إمبراطرة فمثل كاليجولا في هيئة حوذي ونيرون ممثلا وكومودُ مصارعا وللمشاهد ثلاثة أضرب، وهي المرزح، أو المسرح (المرسح) والملعب وشكل نصف الدائرة (أنفيتياتر).

وكان المرزح على الأسلوب اليوناني والممثلون يمثلون، وقد جعلوا أوجها مستعارة على وجوههم يشخصون قصصا أخذوها من اللغة اليونانية وقلما كان الرومان يقدرون مثل هذه الروايات قدرها لأنها تعلو عن عقولهم، وكانوا يؤثرون الروايات المضحكة الجافة المعروفة بالميم ولاسيما "البانتوميم" التي يشخصها المشخص دون أن يتكلم ويظهر عواطف الأشخاص الذين يمثلهم بحركاته وسكناته تمتد بين أكمتين من جبل افانتين وبالاتين ساحة للسباق تحيط بها أروقة علتها مراق وأدارج، وهذا المكان هو الملعب الأعظم أصبح يسع منذ وسعه نيرون ٢٥٠ ألف متفرج، ثم وسع في القرن الرابع، حتى صار صالحا لإجلاس ٣٨٥ ألف شخص، وهناك كانوا يمثلون الفرحة التي يحبها الشعب الروماني، وهي سباق المركبات ذات الأربعة الخيول فالمركبة الواحدة تطوف الملعب من أقصاه إلى أقصاه ثلاث مرات وعليها أن تقطع ٢٥ شوطا في اليوم الواحد وسائق المركبات تبع لشركات تزاحم كل منها الأخرى ويلبسون لونا من الألبسة خاصا بشركتهم فكانت الشركات أربعا بادئ بدء، ثم استحالت ثنتين، وهما الزرقاء والخضراء ولكليهما شهرة في تاريخ التمرد، ولقد أولع القوم في رومية بسباق المركبات؛ كما يولع الناس اليوم بسباق الخيل، حتى كان موضوع حديث النساء والأولاد أيضا وكثيرا ما يتعصب الإمبراطور لفريق دون آخر في السباق وتتكون من النزاع بين الزرق والخضر مسألة سياسية.

أنشأ الإمبراطور فسبازين على أبواب رومية بناء الكوليزة، وهي عمارة ضخمة ذات طبقتين تسع سبعين ألف متفرج كانت عبارة عن ملعب مستدير حول ميدان يصطادون فيه ويتقاتلون فإذا أرادوا الصيد يجعلون الميدان غابة يطلقون فيها الوحوش الكاسرة فيجيء رجال مسلحون بحراب يصيدونها، وكانوا ينوعون المشهد بجعل الحيوانات الكثيرة في هذا المكان ولاسيما النادر منها كالأسود والفهود والفيلة والدببة والجواميس والكركدن والزرافة والنمور والتماسيح وظهر في الألعاب التي احتفل بها الإمبراطور بومبي ١٧ فيلا و٥٠٠ أسد في الميدان، وكانت لبعض الإمبراطرة دار لغرائب الوحوش، ثم رأى القوم بدلا من أن يجعلوا الرجال المسلحين أمام الحيوانات أن يطلقوا الحيوانات على الرجال، وهم عراة مقيدون وشاعت العادة في جميع مدن الإمبراطورية باستخدام المحكوم عليهم بالإعدام في هذه التسلية فافترست الحيوانات ألوفا من الناس من كل جنس وسن، ومنهم كثير من شهداء المسيحيين على مرأى من الحضور.

المصارعون- كان قتال المصارعين (رجال بأيديهم السيوف) من أجل المشاهد الوطنية عند الرومانيين فنزل رجال مسلحون إلى الميدان يتبارزون، حتى يقتل بعضهم بعضا وبلغ الحال بالرومانيين على عهد قيصر أن صاروا يقتلون ٣٢٠ زوجا من المصارعين في آن واحد، وقد قتل أغسطس في حياته كلها عشرة آلاف رجل وقتل تراجان مثل ذلك في أربعة أشهر، وكان المغلوب يذبح في الحال إلا إذا عفا الشعب عنه.

وكثيرا ما يلقون بأناس من المحكوم عليهم في ميدان الصراع، ولكن المتصارعين يكونون في الغالب من العبيد وأسرى الحرب وكل انتصار يجلب إلى ميدان الصراع عصابات من البرابرة يقتل بعضهم بعضا ليتلذذ المتفرجون[٣٦]،

---

(٣٦) شكر أحد الخطباء الإمبراطور قسطنطين في خطاب رسمي ألقاه؛ لأنه قدم جيشا برمته من البرابرة الأسرى ليتصارع أمام الجمهور ولأنه استعمل قتل الناس لتسلية الناس قال وليت شعري، أي: ظفر أجمل من هذا؟

وكان في رومية مصارعون من كل بلد فمنهم الغاليون والجرمان والتراسيون، وربما كان منهم الزنوج فيقتلون بأسلحة مختلفة عن أسلحتهم الوطنية عادة، وكان يحب الرومان هذه المقاتلات في صور مصغرة.

وكنت ترى بين هؤلاء المقتتلين في الملعب أناسا من المتطوعة الأحرار حدا بهم حبهم للخطر أن يقدموا أنفسهم للصراع وقواعده القاسية، وأن يقسموا لزعمائهم بأنهم يقدمون ليضربوا بالعصي ويحرقوا بالحديد المحمي ويقتلوا تقتيلا، وقد تجد غير واحد من أعضاء مجلس الشيوخ من هذه العصابات من العبيد والمشردين، بل تجند في زمرتهم الإمبراطور كومود ونزل إلى الميدان بذاته، ولا تقام هذه الألعاب الخطرة في رومية فقط، بل في جميع مدن إيطاليا وغاليا وإفريقية (أما اليونان، فقد استنكفوا من قبول هذه الألعاب).

وإليك صورة كتبت على تمثال أقيم لأحد أعيان بلدة منتورن "قد أظهر في أربعة أيام أحد عشر زوجا من المصارعين ما برحوا يقتتلون، حتى بعد أن سقط نصفهم في الميدان وصاد عشرة دببة هائلة، ولا شك إنكم تذكرونه أيها الوطنيون الأشراف".

وكان الشعب يهوى إهراق الدماء على نحو ما يجري اليوم بإسبانيا في سباق الثيران وينبغي للإمبراطور؛ كما ينبغي لملك إسبانيا أن يحضر هذه المجازر، ولقد، فقد الإمبراطور مارك أوريل ثقة العامة في رومية؛ لأنه أظهر مللا من مشاهدة تلك الألعاب، فكان يقرأ ويتكلم ويقابل الناس بدلا من أن يتفرج، ولما صحب معه المصارعين ليستخدمهم في قتال البرابرة الذين هاجموا إيطاليا أوشكت الغوغاء أن تتمرد وصرخوا قائلين "إنه يريد أن يسلبنا تسليتنا ليضطرنا إلى التفلسف".

المدارس- لم يخطر للقدماء قط أن يعلموا الأولاد كلهم فليس العبيد وحدهم، بل السواد الأعظم من سكان الإمبراطورية لم يتعلموا القراءة على أنه لم يكن في المملكة غير مدارس للأغنياء وللوطنيين الرومانيين وقلما نعرف

المدارس التي يتعلم فيها أبناء الوطنيين والأجناد القراءة والكتابة، وقد كان راتب معلم المدرسة قليلا جدا وآباء الأولاد هم الذين يؤدون إليه راتبه وطريقة التعليم عبارة عن ضرب الأولاد بمقرعة، أو بالعصي، وقد مثلوا في صورة وجدت في مدينة بومبي ولدا يمسكه أترابه بينا كان المعلم يضربه بالسوط.

وتعلم الأسرات الغنية أولادها على مؤدب عبد يكون روميا في الغالب فيعلمهم النحو واللغة اليونانية والمدارس العامة تقبل الشبان الأغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم إليها ليتعلموا فيها الخطابة وإلغاء المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة ومرانهم عليها، وعلى ذاك العهد بدأ المفوهون، أو الخطباء يكثرون ويعلمون الناس كيفية الأداء فافتتحوا منذ القرن الأول في رومية مدارس يقبلون فيها الفتيان الأغنياء، وكان بعضهم يمرن تلاميذه على إنشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة، وقد حفظ لنا الخطيب سيسيات عدة من هذه الدروس الخطابية وموضوعها أولاد مخطوفون ولصوص ومتشردون على أساليب مختلفة.

أسست على الولاء مدارس من هذا الطراز في جميع أقطار المملكة، فكان في غاليا مدرسة قديمة في مدينة مرسيليا اليونانية يقصدها الطلاب من إيطاليا وأصبحت مدرسة أوتون منذ زمن أغسطس عامرة أكثر من غيرها بالطلاب، وهي التي بقيت عامرة إلى آخر أيام الإمبراطورية.

ثم أنشئت مدارس من هذا النوع في الشمال منها مدرسة في ريمس وأخرى في تريف، وكانت في الجنوب لعدة مدن مدارس من مثل هذه وأشهرها هي التي أصبحت مدرسة بوردو بعد ذلك.

تنفق المدن على هذه المدارس فتعين لها الأساتذة وتدفع لهم أجورهم والمقصد الأول منها تعليم أبناء الأسرات الغنية التكلم باللاتينية واليونانية، وأن يكتبوا فيهما ليتمكنوا من أن يكونوا موظفين ويعلم فيها النحو والبيان خاصة، وكان أشهر أستاذ في مدرسة أوتون في القرن الرابع الخطيب أومين أرسله الإمبراطور

قسطنطين، وكان مدحه وأعظم رجل في مدرسة بوردو هو أوزون مربي ابن الإمبراطور (٣٦٩) ومؤلف عدة مقاطيع شعرية لاتينية متكلفة.

الأشراف دثرت الأسرات القديمة الغنية في رومية إلا قليلا، ولكن قام غيرها من الأسر الحديثة التي اغتنت بالصيرفة والتجارة والتزام الجباية واستثمار الأراضي المفتوحة، وكلما تمكن غني من أرباب الأملاك من أن يعينه الإمبراطور حاكما تشرف أسرته وبذلك شرفت جميع الأسرات الغنية في إيطاليا والولايات (حتى لم يبق في أواخر القرن الثالث أناس من الفرسان العاديين)، وكان كل عظيم من كبراء هؤلاء الملاك يعيش بين عبيده ملكا صغيرا لا عمل له إلا اتباع الشهوات وداره في رومية أشبه بقصر تغص غرفة التشريفات (الأتريوم) كل صباح بأناس من الرين (الريونات)، وهم أناس من الوطنيين يختلفون إليه لأمور طفيفة صباح كل يوم يسلمون عليه بالسيادة ويسايرون موكبه في الشارع؛ لأن الاصطلاح يطلب أن لا يظهر الغني أبدا أمام الجمهور إلا ويحيط به جماعة، وقد ضحك هوراس من أحد القضاة لمروره بشوارع تيبور في خمسة من العبيد فقط وللكبراء خارج رومية مصايف مبهجة على شواطئ البحر، أو في الجبال يتنقلون فيها لا عمل لهم والضجر آخذ منهم.

ولم تكن واجهات لبيوت هؤلاء الأغنياء من الرومانيين على العكس من بيوتنا الحديثة، بل كانت كلها دائرة من داخل، أما من الخارج، فلم تكن سوى حيطان عارية لا شيء فيها والغرف صغيرة وفرشها قليل، وهي مظلمة لا يدخلها الضوء إلا من قاعات التشريفات، وهي في وسط البيت وفيها نصبت تماثيل الأجداد وفيها يستقبل الزوار ويدخل إليها النور من شق في السقف ووراءها البيريستيد، وهي حديقة محاطة بصفوف من العمد وعليها تطل غرف الطعام مزينة بأفخر زينة وفيها سرر لجلوس الضيوف ويتناولون فيها الطعام؛ لأن ذلك كان من عادة أغنياء الرومان؛ كما كان عادة اليونان في آسيا وكثيرا ما يكون بلاط الدار معمولا بالفسيفساء.

الأخلاق- وصف سينيك في رسائله وجوفنال في أهاجيه الرجال والنساء في عهدهما وصفا مزعجا، حتى أصبح فساد رومية القياصرة مثلا سائرا في الغابرين على أن هذا ناشئ من دوام اضطرابات القرون الأخيرة للجمهورية مثل بذخ الأغنياء الغليظ وقسوة السادة مع عبيدهم وطيش النساء الممزوج بجنون، فلم يأت الشر من طريقة الحكم الإمبراطورية، بل من الإفراط في جمع ثروات العالم أجمع، بيد بضعة ألوف من الأشراف، أو أدعياء الشرف وتحتهم بضع مئات من الأحرار يعيشون عيشا سافلا وملايين من العبيد يظلمون ظلما هائلا.

وكانت الأسرة الكبرى تندثر بسرعة، حتى هال الإمبراطور أغسطس ما رأى من نقص عدد الرجال الأحرار فسن قوانين لحمل الناس على الزواج والعقاب على العزوبة وإذ كان تأثير هذه القوانين يحتاج إلى زمن لم تنجع أصلا، ولقد كثر عدد الأعزاب من الأغنياء، حتى غدت مداهنتهم من الصناعات الرابحة، وذلك ليوصي لهم من يدهنون لهم بشيء من المال يأخذونه بعدهم، ومن حسن التدبير أن لا يرزق الغني ولدا فيكون محاطا بالمرائين والمتقربين، قال أحد القصصيين الروحانيين: "ينقسم الناس في هذه المدينة إلى طبقتين منهم من يصطاد، ومنهم من يصاد."، وقال سينيك: إن في حرمان الأولاد زيادة نفوذ المرء.

الطبقات النازلة - فقد التمييز بين الوطنيين الرومانيين والغرباء موقعه ومكانته إذ لم يعد في رومية انتخابات، وشمل حق التملك على التدريج سكان الولايات. وجاء زمن على عهد كارا كالا (سنة ٢١٢) صدر فيه أمر بمنح حق الوطنية لجميع سكان الامبراطورية، ولم يشعر بهذا الأمر كثيرا؛ لأن العمل كان جاريا عليه من قبل بالفعل .

ويمتاز الرجل امتيازا خاصا بثروته التي يملكها، ويقسم الناس إلى طبقتين: الأغنياء ويدعون أشرف الشرفاء، وهم أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان وأعضاء مجالس الشيوخ في المدن، وتتألف منهم طبقة القواد العشرة.، أما بقية الشعب وهم العامة فيتألف منهم الفقراء المدقعون والسوقة الحقيرون.

فأشرف الأشراف وحدهم يحسبون في المجتمع، وهم يقومون بعامة الوظائف المدنية، وجميع موظفي الامبراطور من طبقة اعضاء الشيوخ أو طبقة الفرسان، وجميع حكام المدن من قواد العشرة. ولهم كلهم امتيازات رسمية ومحال خاصة بهم في دور التمثيل وحضور الحفلات،، واذا حكم عليهم بالإعدام لا يصلبون ولا يلقى بهم للوحوش في الملعب: لأن هذه العقوبات المخزية كانت خاصة بالغوغاء والعامة .

ولقد عاش الفقراء في هذا المجتمع الأرستوكراسي عيشة ضنكا، فيعيش فقراء رومية من الصدقات العامة او بالاختلاف إلى الأغنياء ومداهنتهم، وهذه العيشة كانت ضربا مشهورا من الشحاذة. ويصبح الفقراء في القرى مستعمرين في أراضي كبار أرباب الأملاك الذين يعاملونهم معاملة تقرب من معاملة العبيد، وترى الفقراء في المدن صناعا أو مرتزقة ومنزلتهم منزلة المعتقين من العبيد.، وإذا حسنت حال المدينة يكون لهم نصيب فيما يوزعه الحكام من الصدقات ويدخلونهم بدون أجرة إلى مشاهد التمثيل والألعاب والحمامات العمومية. وكنت ترى في جميع المدن حمامات حارة مؤلفة من مقاصير للاستحمام ذات أحواض تأتيها الحرارة من موقد جعل تحت الأرض. والحمامات في مدينة رومانية كمحال الرياضة في المدينة اليونانية هي مكان اجتماع من لا عمل لهم.، بل كانت الحمامات في مدن الرومان أعظم من محال الرياضة عند جيرانهم اليونان مئات من المقاصير على اختلاف أجناسها، فمن مقصورة باردة إلى فاترة إلى حارة إلى صوان للثياب، ومقصورة لدلك البدن بالزيت، ومحل للمحادثة ومقاصير للرياضة، وحدائق يحيط بكل ذلك سور عظيم. وقد شغلت خرائب حمامات كاركالا بالقرب من رومية مساحة عظيمة من الأرض .

العبيد- وتأتي تحت طبقة الأحرار الفقراء الطبقة الأخيرة، وهي طبقة العبيد الذين هم في بعض البلاد معظم السكان والسادة من الرومانيين كالشرقيين لعهدنا كانوا يحبون أن يحيط بهم جمهور من العبيد ففي البيت

الكبير اليوناني يعيش مئات من العبيد ينقسمون بحسب الخدم التي يتولونها فمنهم الموكلون بالفرش وتعهد الأواني الفضية والأعلاق والتحف، ومنهم حفظة للثياب، ومنهم وصائف ووصيفات، ومنهم القيمون على المطبخ والحمام، ومنهم رئيس المتكأ ومعاونوه، ومنهم عبيد الموكب الذي يرافق سيد البيت وسيدته في الشوارع، ومنهم حملة المحفة (المحارة)، ومنهم الحوذيون والسواس، ومنهم أمناء السر والقراء والنساخ والأطباء والمربون والممثلون والموسيقيون وأرباب الصناعات من كل صنف؛ لأنهم في كل بيت كبير يطحنون الدقيق ويحيكون الصوف وينسجون الثياب، ومن هؤلاء العبيد من حبسوا أنفسهم في المعامل يصنعون أشياء يبيعها سادتهم ويكون ربحها لهم، ومنهم من يؤجرهم أصحابهم إلى الخارج على أنهم بناءون، أو بحارة، فقد كان لكراسوس خمسمائة عبد من المهندسين وكل هؤلاء يدعون عبيد المدن.

عبيد الريف- كل ملك (تفتيش) كبير يتوفر على زراعته عصابة من العبيد فهم الحراثون والرعاة والكرامون والبساتنيون والصيادون يجعلون شراذم تؤلف كل شرذمة من عشرة أشخاص ويلاحظهم وكيل منهم يهيمن عليهم ويرى صاحب الملك أن من دواعي إعجابه أن تخرج أرضه كل شيء فهو لا يبتاع شيئا وكل حاجياته تنبت في أرضه، وهذا مما يجعلونه من جملة الثناء على الأغنياء فصاحب الأرض يؤوي إليه عددا عظيما من عبيد الريف؛ كما يسمونهم والملك الروماني أشبه بقرية ويسمى مصيفا (فيلا)، وقد بقي اسمها فأطلق عليه اسم مدينة (فيل) منذ القرون الوسطى، وهو الملك الروماني القديم مكبرا.

معاملة العبيد- يعامل العبيد بحسب أخلاق سيدهم فمن السادة المنورين الذين اشتهروا بالإنسانية شيشترون وسينيك وبلين، فقد كانوا يطعمون عبيدهم طعاما جيدا ويحادثونهم، وربما أجلسوهم معهم على موائدهم ويسمحون أن يكون لهم أسرة وثروة صغيرة، وهناك سادة على العكس من هؤلاء عاملوا عبيدهم معاملة الحيوانات وعاقبوهم أشد العقوبات، بل ربما قتلوهم

لهوى في النفس والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد كان فويوس بوليون عتيق اغسطس يطعم السلور البحري (سمك مزينة) في بركته فكسر له أحد عبيده آنية على غير قصد فما هو إلا أن ألقاه في البركة ليكون طعما لسمكه.

وصف الفيلسوف سينيك فظائع السادات بهذه العبارات "إذا سعل أحد العبيد، أو عطس خلال المأدبة، أو طرد الذباب متهاونا، أو رمى مفتاحا وسمع له صوت فكلب في الاقتصاص منه وأي كلب فإذا أجاب رافعا صوته قليلا ودلت تلاميح وجهه على سوء خلق أيحق لنا أن نضربه بالسياط وكثيرا ما نبالغ في الضرب ونقطع له عضوا ونقلع سنا" وهكذا رأينا الفيلسوف إبيكتيت، وكان عبدا كسر مولاه ساقه، أما النساء، فلم يكن أيضا على شيء من الشفقة وإليك كيف امتدح ادفيد إحدى العقائل، قال: "مشطوا رأسها أمامي مرات، وما قط غرزت الإبرة في ذراع العبد الذي يمشطها".

وما كان الرأي العام ليحول دون هذه الفظائع، فقد مثل جوفنال عقيلة غضبى على أحد عبيدها، وهي تقول اصلبوه وأي جريمة أتاها العبد، حتى استحق هذا العذاب ما أنحسه وهل العبد من البشر وسواء أتى أمرا إذا أم لم يأت وأني أريد عقابه وآمر به وإرادتي هي الحجة في هذا الباب.

أما الشريعة، فلم تكن ألطف من الأخلاق فكانت في القرن الأول قبل المسيح توجب بأن صاحب البيت إذا ذبح أن يقتل عبيده كلهم به، ولما أريد إلغاء هذا القانون خطب ترازيا أحد معتبري الفلاسفة في مجلس الشيوخ مطالبا ببقاء هذا القانون.

وللعبيد مطبق تحت الأرض يدخله النور من نوافذ ضيقة بعيدة بحيث لا يتيسر الوصول إليها فإذا أتوا ما يغضب ساداتهم يسجنونهم فيه بالليل، وفي النهار يبعثون بهم ليشتغلوا مقيدين بسلاسل من حديد ثقيلة وكثير منهم من وسمت وجوههم بحديدة محماة.

لم يعرف القدماء المطاحن الميكانيكية، بل كانوا يطحنون الحنطة بمطاحن

باليد يديرها العبيد، وكان ذلك من أشق الأعمال يندبون إليها عقوبة لهم في العادة، وكانت المطحنة قديما مثل محبس (لومان)، وقال بلوث: "كان يبكي أشقياء العبيد الذين يطعمون البولانتا (سويق من دقيق الذرة)، وهناك يرن دوي الأسواط وقعقعة السلاسل والأغلال" وبعد ثلاثة قرون، أي: في القرن الثاني بعد المسيح وصف القصصي أبوليه داخل مطحنة بقوله "أيها الأرباب ما أتعس هؤلاء المساكين من البشر، فقد اسودت جلودهم وتبرقشت من ضرب السياط، ولا تستر أبدانهم غير خرق من قميص مدموعة جباههم محلوقة رؤوسهم مقيدة أرجلهم مشوهة أبدانهم من النيران مقروضة جفونهم من الدخان، وقد علاهم غبار الدقيق".

ولم يكن العبيد يكتبون، ولذلك لا نعرف ما هو رأيهم أنفسهم في معاملة ساداتهم لهم إلا أن الموالي أنفسهم كانوا يشعرون بحقد عبيدهم عليهم، ولما انتهى إلى بلين لجون ما أصاب أحد أرباب الأملاك من ذبحه في حمام، بيد عبيده، قال ملاحظا: "هو ذا الخطر الذي يتهددنا كلنا"، وقال كاتب آخر: "أصبح كثير من الرومان عرضة لحقد عبيدهم أكثر من حقد الظالمين".

الشركات- كان في جميع بلاد الإمبراطورية في الشرق اليوناني أكثر من الغرب اللاتيني عدد كبير من الشركات مختلفة الضروب والأشكال فمنها شركات لأرباب الصناعة الواحدة وشركات للممثلين والمصارعين وشركات أدبية وشركات لاجتماع السكريين على الشراب ولبعض هذه الشركات أعضاء من الرجال الأغنياء مثل جمعيات الجباة، وكان أعضاؤها يلتزمون الأموال الأميرية ومثل جمعيات التجار الذين يتجرون بين إيطاليا وغاليا، ولكن معظم تلك الجمعيات كان مؤلفا من صعاليك القوم.

ولقد طال منع الحكومة الرومانية لهذه الجمعيات والشركات، ثم تسامحت بها، حتى إذا كان القرن الثالث أخذت تمد إليها يد مساعدتها، ولكن الحكومة لم تمنع قط الجمعيات لدفن الموتى، وكانت هذه الجمعيات تتألف من أناس

مساكين لا يستطيعون أن يقتنوا أرضا لتكون لهم قبرا فكانوا يشتركون ويدفعون أقساطا للحصول على سرب يكون مشتركا بينهم ليدفنوا فيه أمواتهم فالمغارة، أو السرب المعد لدفن الموتى هو عبارة عن بناء مقبب وفيه صفوف كثيرة من المقاصير يجعل في كل واحدة منها رفات ميت ويسمونها برج الحمام بسبب شكلها.

وعلى هذا كان أعضاء جمعية الموتى على ثقة من الحصول على مدفن لائق بعد موتهم وقبر دائم لهم على الدهر، وهو ما كان القدماء يحرصون عليه كل الحرص ويسمون هذه الشركات لا بأسماء حزن لئلا تكون شؤما، بل يسمونها بأسماء أرباب ويسمونها شركات الصغار، وكان يدخل فيها كثير من العبيد وتجعل جميع الشركات إلا قليلا تحت حماية أحد الأرباب ليحميها (مثل جمعيات الأطباء التي أطلقوا عليها اسم اسكولاب)، وما كان لكثير من هذه الشركات من غاية إلا أن يتعبدوا كلهم جماعة والحكومة لا تدر الأرزاق إلا على المعابد والكهنة وبعض الشعائر الرسمية وجميع الأديان الأخرى كانت منظمة على هيئة جمعيات ولأهلها صندوقهم وكاهنهم ومصلاهم ومذبحهم وحفلاتهم، وكانت الكنائس النصرانية أولا شركات من هذا النوع.

وأهم الشركات شركات أرباب الصناعات، فكان منها في عامة المدن، حتى إن العواصم كان فيها عدة شركات من نوعها وأعضاؤها في العادة من أرباب الصناعة الواحدة وتسمى كل شركة بأسماء صناعات أعضائها، فقد كان في أفيز شركة حلاجي الصوف، وفي جنيف شركة الملاحين، وفي ليون شركة عملة البناء وتقبل كل شركة في أعضائها أناسا من أهل صناعة أخرى، ومن العادة أن يكون لكل شركة عبادة فتعبد ربا وتقيم عيدا للاحتفال به يحملون فيه علمه (ودامت هذه العادة في القرون الوسطى في شركات الصناع المسيحيين)، وهذه الشركة تقوم بدفن أعضائها متى ماتوا في مدافن لائقة، ولكل شركة مديران يختاران من المعلمين ويكونان في العادة وكيلا وأمين صندوق ينتخبهما الأعضاء

كلهم إلا أنه لم يكن لهما أدنى سلطة على أرباب الصناعة، وما كان يكره أحد على الدخول معهم.

الحقول الرومانية

دين البيوت- يعبد أعضاء كل أسرة بأجمعهم أجدادهم ويجتمعون حول مزار واحد فأربابهم واحدة ولهم وحدهم أن ينظروا إليها، ولا يحق لأحد أن يعبد أجداد أسرة إلا إذا كان من فرع أولئك الجدود ويقام المزار الذي يجعل فيه أرباب البيت في مكان منفرد من الدار لا يقترب منه غريب والأسرة الرومانية أشبه بكنيسة صغيرة لها دينها وعبادتها لا يقبل فيهما أحد غير أعضائها، ولذلك تختلف كثيرا عن الأسرة الحديثة؛ لأن نظامها ديني.

الزواج- أخذ الزواج الروماني يصير احتفالا دينيا فيسلم الأب ابنته المخطوبة إلى خارج الدار فتحمل في موكب إلى دار زوجها والناس يرددون كلمة مقدسة، وهي "العرس أيتها العروس"، حتى إذا جاءوا بها إلى دار زوجها يقدمون لها الماء والنار، وهناك يقتسم الزوجان بحضور أرباب الأسرة قطعة من الحلواء معمولة من الحواري، وكان يسمى الزواج إذ ذاك شركة الحلواء.

وقد اخترع الرومان منذ الزمن الأطول ضربا من الزواج يسوغ للطبقة الوسطى فقط، وهو إما أن يبيع المخطوبة أحد أوليائها وأقربائها بحضور شهود من قبل زوجها ويصرح هذا بأنه ابتاعها على أن تكون زوجه، وهذا زواج البيع وإما أن تجيء الزوج فتساكن زوجها ومتى قضيا سنة معا يعتبران متزوجين، وهذا الزواج بالعادة.

الرومان كاليونان يرون الزواج فرضا دينيا والدين يأمر بأن لا تندثر الأسر وعند ما يتزوج الروماني يصرح بأنه اتخذ زوجته ليكون له منها أولاد، وقد طلق أحد أشراف الأغنياء زوجته، وكان يحبها حبا جما؛ لأنه لم يرزق منها أولادا.

المرأة- ليست المرأة الرومانية حرة أصلا فهي في شبيبتها ملك أبيها يختار لها زوجا، وإذا تزوجت يصير أمرها، بيد بعلها ويقول الفقهاء إنها في يده وإنها مثل ابنته وبالجملة فللمرأة سيد على الدوام بيده موته وحياتها.

ومع هذا لم يعاملوا المرأة قط معاملة الرقيق، بل هي مساوية في المكانة لزوجها ويدعونها أم الأسرة؛ كما يدعون الرجل أبا الأسرة فهي سيدة في البيت كزوجها تسيطر على النساء الرقيقات فتكلفهن بجميع الأعمال الشاقة كطحن الحب وخبز الخبز وعجنه وتجلس في قاعة التشريفات من الدار تنسج وتحيك وتوزع الأعمال بين الإماء وتلاحظ الأولاد وتدبير شؤون البيت، وليست المرأة الرومانية كالمرأة اليونانية بعيدة عن الرجال، بل تتناول الطعام على المائدة مع زوجها وتستقبل الزائرين وتذهب لتناول الطعام في المدينة وتظهر أمام الناس في الحفلات، وفي دور التمثيل وأمام المحكمة إلا أنها في العادة تكون جاهلة أمية وذلك؛ لأن الرومانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم وأهم صفة يعتبرونها في المرأة أن تكون زاهدة فإذا ماتت يكتبون على قبرها إشارة على مدحها "إنها التزمت بيتها، ولم تخرج منه وغزلت الصوف".

الأولاد- الولد الروماني لأبيه بمثابة ملك له وللوالد الحق في أن يعرضه في الشارع فإذا أخذه يربيه في بيته أولا والبنات يبقين في البيت ريثما يتزوجن وهن يغزلن ويحكن تحت ملاحظة أمهاتهن والبنون يعملن في الحقول مع آبائهم ويتمرنون على استعمال السلاح.

ليس الرومان شعبا مفننا في الصناعات وغاية أمانيهم أن يعرف أبناؤهم القراءة والكتابة والحساب، وهم لا يطلبون على ذلك مزيدا فلا يعلمونهم الموسيقى، ولا الشعر ويلقنونهم القناعة والصمت والحشمة في مآتيهم والطاعة في منازعهم.

أبو العائلة- إن من يطلق عليه اسم سيد البيت يدعوه الرومان أبا الأسرة فأبو الأسرة مالك للأملاك وكاهن في عبادة الأجداد وسلطان الأسرة فهو

الحاكم المتحكم في بيته يحق له أن يطلق زوجته ويطرد أبناءه، وأن يبيعهم ويزوجهم بدون أن يأخذ رأيهم ويحق له أن يستأثر بما يملكونه لنفسه، بل وكل ما تحمله إليه زوجه وكل ما يكسبه أولاده إذ لا يسوغ للمرأة، ولا لأولادها أن يملكوا شيئا وبالجملة فبيده حياتهم ومماتهم، أي: أنه قاضيهم الوحيد إن ارتكبوا جريمة فرب الأسرة يحكم عليهم لا الحاكم.

أصدر مجلس الشيوخ (١٨٦) الروماني أمره ذات يوم بإعدام جميع من اشتركوا في الاحتفال بعبادة باحوس فنفذ الحكم على الرجال، أما النساء اللائي اشتركن في الحفلة مع المجرمين فعمد المجلس إلى آباء الأسرات في أمرهن، وهم الذين أعدموا نساءهم وبناتهم كان الشيخ كاتون يقول "إن الزوج قاضي امرأته له أن يعمل بها ما يشاء فإذا ارتكبت غلطا يعاقبها، وإذا تناولت خمرا يحكم عليها بالإعدام، وإذا خانت يقتلها"، ولما كان كاتالينا يكيد المكايد لمجلس الشيوخ لاحظ أحدهم أن ابنه اشترك في المكيدة فأوقفه وحاكمه فحكم عليه بالموت وتدوم سلطة أبي الأسرة بدوام حياته والابن لا يخلص من عبوديته له، حتى إنه إذا أصبح قنصلا يظل خاضعا لسلطة أبيه ومتى مات الأب يصبح الأولاد أصحاب بيوت، أما امرأته فلا تكون حرة أصلا، بل تكون تحت سيطرة وريث زوجها، بل تخضع لابنها نفسه.

التملك- كانت الثروة في القرون الأولى لرومية عبارة عن ماشية وعبيد خصوصا واللفظ الذي دل بعد على الدراهم معناه قطع ويسمى المالك رب الأسرة، ومن المحتمل أن الأرض لم تكن تنتقل بالإرث؛ لأن لفظة إرث عندهم تدل على أرض مساحتها فدانان، وهو المكان الذي يكفي لإنشاء بيت وحديقة، ولم يلبث الرومانيون أن قبلوا عادة اعتبار المالك لحقل صاحبا له وعندئذ وضع حق التملك للماشية العبيد والأراضي والبيوت، وكانوا يعرفونه أنه حق الانتفاع والتحريب (الاستعمال وسوء الاستعمال).

ثم صار لهذا الحق أن يتناول كل شيء من الحاجات والأثاث والدراهم

والعقود والديون وحقوق الاستمتاع ويجب على من أراد أن يملك شيئا أن يملكه على الصورة التي عينتها العادة وإليك مثلا كيف تجرى صفقة المبيع يضع البائع أمام خمسة من الوطنيين ينوبون عن مجمع ومعهم سادس يمسك الميزان بيديه قطعة من النحاس في هذا الميزان تعادل ثمن المبيع فإذا كان هذا حيوانا، أو عبدا يمسكه البائع بيده ويقول هذا لي بموجب القانون الروماني ابتعته بهذا النحاس الموزون وزنا حسنا.

ثم ابتدعوا طرقا أسهل لنقل الملك من يد إلى يد فصاروا يكتفون بدفع المبيع إلى المبتاع، وهذه الطرق لا تملك تمليكا رسميا، بل يكون المقتنى للملك متمتعا به، ولكن هذا التمتع يخوله نفس الحقوق؛ كما لو كان مالكا رسميا له.

ولصاحب الملك الحق في أن يعطي أملاكه بعده لمن يشاء، وإذا لم يوص بشيء من هذا القبيل يقتسم أولاده ثروته، وإذا أراد أن يغير نظام الوراثة يكتب وصيته، وكان يجري ذلك بمحفل أمام مجلس الأمة زمنا طويلا، ثم اصطلحوا على صورة متكلفة في البيع كأن يبيع المالك ماله لمن يريد أن يجعله وريثا له وانتهت الحال بأن أصبحوا يكتفون بوصية مسطورة، وكان يحق لصاحب الملك خلال القرون الأولى أن يوصي لمن يشاء، وأن لا يترك شيئا لأولاده، ثم أكره القضاء آباء الأسر بالتدريج على أن يوصوا لكل واحد من أولادهم بقسم من ثروتهم فأخذ ينال كل ولد قسما من الإرث.

ألواح الوصايا الاثنتا عشرة- لم يكن عند الرومان في مبدأ أمرهم كسائر الشعوب القديمة شرائع مكتوبة، بل كانوا يجرون على عادات الأجداد، أي: كل جيل يجري في كل شأن من شؤونه؛ كما جرى الجيل السالف، وقد سن حوالي سنة ٤٥٠ عشرة حكام منتخبين شرائع كتبوها في اثنتي عشرة لوحة من الحجر، وكانت هذه شريعة الاثنتى عشرة لوحة أنشأت أحكاما موجزة شديدة قطعية، وما هي إلا تقنين جاف قاس مثل الشعب النصف البربري الذي وضع له فبموجب هذه الشريعة يعاقب الساحر إذا تلا كلمات سحرية ومر على حقله بغلة جاره

واليك حكم هذا القانون في المدين الذي لم يؤد ما عليه من دين إذا لم يدفع يرفع أمره للقضاء، وإذا عاقه المرض، أو السن عن الحضور يركب حصانا، أو محفة ويمهل ثلاثين يوما فإذا لم يوف ما عليه يربطه الدائن بسيور، أو سلاسل وزنها ١٥ ليرة وبعد ستين يوما يبيعه فيما وراء نهر التيبر وللدائنين إذا تعددوا أن يقطعوا المدين إربا إربا، ولا غبن إذا قطعوا منه قليلا أو كثيرا.، قال شيشرون: كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة منبع التقنين الروماني بأسره، وكان الأولاد في المدارس يستظهرونها بعد أربعة قرون من وضعها.

الإشارات في الدعاوى- لا يكفي بموجب هذا القانون الروماني القديم اتفاق الأشخاص في مسائل البيع والشراء والإرث فلا يكفي لأخذ حكم المحكمة الرومانية أن يعرض الإنسان قضية، بل يجب عليه أن يلفظ عدة كلمات ويقوم ببعض إشارات تقضي بها العادة وكل قضية تقام أمام المحكمة يجري تمثيلها بالإشارات فللمطالبة بشيء يمسكه المدعي بيده وللاحتجاج على جار رفع حائطه على جاره يرمون بحجر على هذا الحائط وهاك ما يجري إذا اختلف اثنان في ملكية حقل يأخذ الخصمان بأيديهما كأنهما يريدان أن يتضاربا، ثم يفترقان ويقول كل منهما أصرح بأن هذا الحقل لي بموجب حقوق الرومانيين فأنا أدعوك باسم محكمة القاضي إلى مكان الحقل ليفصل فيه بيننا فيأمرهما القاضي أن يذهبا إلى الحقل قائلا لهما اذهبا فهذا طريقكما أمام الشهود الحاضرين فيخطو المتخاصمان بضع خطوات كأنهما ذهبا، وفي ذلك رمز إلى ذهابهما فيقول لهما أحد الشهود ارجعا وبذلك إشارة إلى أنهما ذهبا إلى الحقل فيقدم كل من الخصمين مدرة من التراب، وهي إشارة للحقل وهكذا تبدأ الدعوى وعندئذ يستمع القاضي للمتخاصمين والرومانيون كسائر الشعوب القديمة لا يحسنون فهم غير ما يقع تحت أنظارهم فبالماديات يتمثلون الحق الذي لا يرى.

ولقد كان الرومان يحترمون هذه الأشكال القديمة من الأحكام من وراء الغاية فكانوا في القضاء: كما هم في الدين يطيعون نص القانون دون أن يهتموا

بالبحث عن معناه وعندهم أن كل دستور مقدس تجب المبالغة في تنفيذه، ومن الحكم الجارية في قضاياهم أن كل ما يفوه به اللسان يكون حقا فإذا غلط صاحب الدعوى في إيراد مدعاه يخسر قضيته، وإذا أقام رجل قضيته على جاره؛ لأنه قطع له كرمه يجب أن تكون الصورة التي يوردها أمام المحكمة حاوية لكلمة شجرة فإذا استعاض عنها بكلمة كرم لا يحكم له.

واحترام هذه المراسيم على إطلاقها فتح للرومانيين سبيل الوفاق الغريب في أمور كثيرة فالشريعة تقول إن الأب إذا أباع ابنه ثلاث مرات يحرر الولد من سلطة أبيه ومتى أراد روماني تحرير ابنه يبيعه ثلاث مرات متوالية، وهذا العمل المضحك في بيعه يكفي لتحريره.

وكانت الشريعة تقضي قبل البداءة بحرب أن يرسل مناد ينادي بها على تخوم العدو، ولما أرادت رومية إعلان الحرب على بيروس الملك أبير الذي كانت مملكته في عبر الأدرياتيك رأت الحكومة الرومانية للقيام بهذه المصطلحات أن يبتاع أحد رعايا بيروس، وربما كان من الآبقين من الجندية حقلا من رومية فأوهموا بأن هذا الحقل أصبح أرضا من بلاد أبير وراح المنادي يلقي فيها حربة ويدعو فيها للحرب علنا، وكان الرومانيون مثل جميع الأمم الفتية يعتقدون باطلا أن للمراسيم المقدسة فضيلة سحرية.

الفقه- كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة والشرائع التي وضعت بعد موجزة ناقصة فكانت تعرض مسائل كثيرة لا حل لها في قانون من القوانين الموضوعة ففي مثل هذه الأحوال الصعبة كانت العادة متبعة أن يعمد إلى الأخذ برأي بعض أشخاص اشتهروا بمعرفتهم في مسائل الحقوق، وكانوا من أهل الاعتبار، ومنهم قناصل قدماء، أو أحبار فيكتبون آراءهم كتابة وتسمى فتاويهم أجوبة العقلاء، ومن العادة أن يكون لهذه الأجوبة شأن وقيمة؛ لأن أصحابها الحكماء على جانب من الاعتبار والحرمة، وقد زاد الإمبراطور أغسطس بأن عين بعض هؤلاء الحكماء وقرر أن تكون أجوبتهم قانونا يعمل به، وعلى هذا صار الحقوق

علما وعلماء الحقوق، أو الفقهاء المشرعون يضعون القواعد الجديدة التي أصبحت سارية فنشأ بذلك علم الفقه.

أمر القاضي دعت الحال في رومية إلى نصب حاكم أعلى لينفذ قواعد الحقوق المقدسة وللقنصل، أو القاضي فقط أن يديرا شؤون محكمة، أو يحقان الحقوق وإذ كان القناصل يعنون بقيادة الجيوش فهم يعهدون في العادة بالنظر في الحقوق إلى القضاة، وكان في رومية قاضيان حاكمان على الأقل يفصل أحدهما في المسائل التي تحدث بين الوطنيين ويسمى قاضي المدينة وينظر الآخر في الدعاوى التي تنشأ بين الوطنيين والأجانب ويسمى قاضي الأجانب، وهناك محكمتان؛ لأن الغريب لا يحاكم أمام محكمة الوطنيين.

وهذان القاضيان بالنظر لما لهما من السلطة المطلقة يفصلان القضايا على ما يتراءى لهما، بل إن قاضي الأجانب لم يكن مقيدا بقانون؛ لأن الشرائع الرومانية لم توضع إلا للوطنيين الرومانيين، ولما كان كل قاض يتولى منصبه في القضاء سنة واحدة فهو يكتب عند دخوله أمرا يبين فيه القواعد التي ينوي اتباعها في الأحكام ويسمون هذا الأمر أمر القاضي وبعد سنة عندما تنتهي مدة القاضي يسقط قانونه فيحق لخلفه أن يسن قانونا مخالفا لقانون سلفه جملة واحدة، ولكن جرت العادة أن يحتفظ كل قاض بما صدر عن أسلافه من الأوامر فيدخل فيها بعض التبديلات ويضيف إليها بعض زيادات وهكذا تجمعت أوامر القاضي قرونا، ثم أنشأ الإمبراطور هاردن في القرن الثاني براءة القاضي وجعلها قانونا مرعي الإجراء.

وإذ كان هناك محكمتان منفصلتان إحداهما عن الأخرى وضعت قاعدتان متباينتان وقانونان مختلفان فتتألف من القواعد المتبعة التي يجري عليها قاضي المدينة في مسائل الوطنيين الحقوق المدنية، أي: حقوق المدينة، ومن القواعد التي يجري عليها قاضي الأجانب تتألف حقوق الناس، أي: الشعوب (العربية عن رومية) فأدرك القوم إذ ذاك أن أعدل هذه القواعد في الحقوق

وأبسطها وأعقلها وبالإجمال أفضلها الحقوق الأجنبية، وأن حقوق الوطنيين المأخوذة ضمن قواعد محصورة عن قدماء الرومان كان فيها خشونة وقواعد بربرية، أما حقوق الناس (الأجانب)، فكان أساسها على العكس عادات التجار وعادات أناس من بلاد مختلفة نزلوا رومية، وهي عادات سالمة من كل شائبة ووهم وطني أخذت بكرور الأيام وأقرها الاختبار قرونا كثيرا ورأى القوم كيف كانت الحقوق القديمة مخالفة للعقل، فقد جاء في بعض الأمثال الرومانية "ان الحق الناصع هو الذي تقضه سلطة عليا ظالمة"، وعلى هذا أنشأ قضاة الوطنيين يصححون القانون القديم ويحكمون بأحكام العدل، حتى بلغوا بالتدريج أن ينفذوا في الوطنيين نفس القواعد التي كان قاضي الأجانب يجري عليها في محكمته.

مثال ذلك أن القانون الروماني يقضي أن يرث الأقارب من الذكور فقط إلا أن القاضي دعا الأقارب من النساء أن يشتركن في الإرث ويقضي القانون القديم بأن لا يكون المرء صاحب ملك إلا إذا قام بالاحتفال في المبيع فاعترف القاضي بأنه يكفي المبتاع أن ينقد البائع ثمن ما ابتاعه، وأن يضع يده على الملك، حتى يعد مالكا وأنت ترى أن حقوق الأجانب تغلبت على الحقوق المدنية وأبطلتها.

القانون المسطر- أنشئت الحقوق الرومانية على عهد الإمبراطرة خاصة فأصدر الإمبراطرة الأنطونيون كثيرا من الأوامر واللوائح، وكانت هذه رسائل تصدر عن الإمبراطور جوابا عن الموظفين الذين يستطلعون طلع آرائهم فيساعدهم على القيام بهذا الإصلاح القضائي أناس من المتشرعين عندهم وظل بعض المشرعين في أوائل القرن الثالث زمن من حسنت سيرتهم، أو ساءت من الإمبراطرة يضعون القوانين الجديدة في الحقوق ويصلحون ما وجدوه منها قديما، ومن أشهرهم بابمين وأولبين ومودسنين وبولس فإن تآليفهم هي التي كانت أساسا للحقوق الرومانية بعد.

وهذه الحقوق التي نظمت في القرن الثالث لا شبه بينها وبين الحقوق

الرومانية القديمة بحال من الأحوال إذ القديمة لم تكن ترحم الضعفاء فاقتبس المتشرعون أفكار فلاسفة اليونان ولا سيما الرواقيين منهم وذهبوا إلى أن الحرية حق طبيعي لكل من يولد حرا، أي: أن العبودية مخالفة للطبيعة، ولذلك رأوا أنه يحق للعبد أن يطلب إنصافه، حتى من سيده، وأن هذا إذا قتل عبده يجب أن يعاقب عقاب القاتل وكذلك حموا الولد من ظلم أبيه.

وهذا القانون الجديد هو الذي سموه بعد بالقانون المسطور، وهو في الحقيقة قانون جروا فيه مع الفلسفة على نحو ما يأمر به العقل الناس كافة ولذا لم يبق فيه أثر للقانون الحائر المعروف بقانون الاثنتى عشرة لوحة فليس القانون الروماني الذي حكمت به بلاد الإمبراطورية بأسرها زمنا طويلا ذاك القانون الذي لم يبرح بعضه داخلا في قوانيننا، بل هو قانون قدماء الرومان وضع بحسب عادات جميع الشعوب القديمة ونسخ فيه على مثال الحكم المأثورة عن حكماء اليونان، ثم مزج كل ذلك مزيجا واحدا وكتبه أناس من الحكماء والفقهاء الرومانيين قرونا طويلة.

النصرانية

تعليم المسيح (عليه السلام)- كان الإسرائيليون ينتظرون المسيح من نسل داود ملكا لهم ومخلصا فظهر عيسى في الناصرة في ولاية صغرى من الشمال اسمها الجليل لا تكاد تعرف بأنها يهودية ولد من أسرة وضيعة تحترف بالنجارة فسماه أتباعه من الروم المسيح، أي: الممسوح يعنون الملك الممسوح بالزيت المقدس؛ كما دعي السيد والرب والمخلص كلنا نعرف الديانة المسيحية فيكفي إذا أن يبين ما هي التعاليم الجديدة التي نشرتها في العالم، فقد أوصى المسيح أولا بالمحبة فقال: "إنك تحب الرب إلهك من كل جوارحك وفكرك وستحب قريبك؛ كما تحب نفسك فجماع الشريعة وتعاليم الأنبياء داخلة في هاتين الوصيتين".

فمن الواجب محبة الغير وإسعافهم ومتى قضى الله بين عباده يجعل على يمينه من أطعموا الجياع وسقوا العطاش وكسوا العارة ويقول المسيح لمن يريد اتباعه أولا "اذهب فبع مالك وادفعه للفقراء، ولقد كان القدماء يعتبرون الشريف والغني والشجاع هو الرجل الصالح إلا أن هذا الاسم تغير معناه منذ جاء المسيح فأصبح الرجل الصالح هو الذي يحب غيره فعمل الخير هو محبة الغير والسعي في نفعه والإحسان (وهو باللاتينية مرادف للحب) أساس التقوى وغدت لفظة محب مرادفة للفظة محسن ووضع المسيح تعليمه في الإحسان بدلا من التعليم الإسرائيلي القديم في الانتقام فقال: "عرفتم بأنه قيل العين بالعين والسن بالسن، أما الآن فأقول لكم إذا ضربكم أحد على خدكم الأيمن فقدموا له الأيسر، وقيل: أحبوا قريبكم وابغضوا عدوكم، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وافعلوا الخير مع من يبغضونكم وباركوا لمن يضطهدنكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء الذي ينزل المطر على العادلين والظالمين، حتى إن المسيح، وهو على الصليب استغفر لجلاديه فقال: اعف عنهم يا رب، فإنهم لا يعرفون ما هم فاعلون.

أحب المسيح الناس قاطبة ومات لا من أجل شعب واحد، بل من أجل الإنسانية كلها، وما قط ميز بين الأشخاص فكلهم سواء أمام الله، ولقد كانت الأديان القديمة، حتى دين إسرائيل دين شعب يحتفظ به ويكتمه بعناية احتفاظه بكنز ثمين دون أن تحدثه نفسه في تبليغه شعبا آخر فقال المسيح لتلاميذه: اذهبوا إذن وعلموا جميع الأمم.

وبعد ذلك قام بولس أحد الحواريين وقرر تعليم المساواة النصرانية بقوله "لم يبق أولون، ولا آخرون؛ كما لم تبق روم، ولا يهود، ولا مطهرون، ولا قلف، ولا برابرة، ولا عبيد، ولا أحرار، فقد أصبح المسيح هو الكل في الكل".

كان القدماء يذهبون إلى أن الثروة تعلي شأن الإنسان وينظرون إلى أن الكبر عاطفة شريفة فقال المسيح: "طوبى للفقراء فإن لهم ملكوت السماوات" "من لم

يتنازل عما يملكه لا يكون تلميذا لي"، حتى إنه هو أيضا كان يتنقل من مدينة إلى مدينة، ولا سيد له، ولا ليد وعندما كان تلاميذه يهتمون للمستقبل كان يقول لهم "لا تقلقوا لما تأكلون، ولا لما تلبسون وألقوا بأنظاركم إلى الطيور في السماء فهي لا تزرع، ولا تحصد ومع هذا فإن أباكم السماوي متكفل برزقها".

فعلى المسيحي أن يحتقر الثروة، وأن يشتد في الازدراء بالعظمة كان تلاميذه يتنازعون ذات يوم فيمن يكون له المقام الأول في السماء فقال: "إن أعظمكم هو الذي يخدم غيره؛ لأن من يرتفع يسقط، ومن يسقط يرتفع" ومازال البابا إلى اليوم، وهو خليفة القديس بولس يدعى بخادم خدمة المولى كان المسيح يؤثر أن يجتذب إليه المساكين والمرضى والنساء والأولاد، بل والضعاف والمحرومين واختار حواريه من عامة الناس، وكان يكرر على مسامعهم "تلطفوا وألينوا قلوبكم".

ملكوت الله كان المسيح يقول إنه جاء إلى الأرض ليؤسس ملكوت الله فظن أعداؤه إنه طامع في ملك وعندما صلب كتبت على صليبه هذه العبارة "يسوع الناصرة ملك اليهود"وهذا كان خلاف ما يقصده، فقد صرح المسيح نفسه بأن ملكوتي ليس في هذا الأرض، فلم يجيء ليقلب الحكومات، ولا ليصلح المجتمعات وأجاب من سأله فيما إذا كان يجب أداء الجزية للرومانيين بقوله "ادفع ما لقيصر لقيصر وأد ما لله لله ولذا رضي المسيح بما رآه موجودا وعلم على تهذيب نفسه وتكميلها لا على إصلاح المجتمع.

ولأجل أن يفوز المسيحي بمرضاة الله ويكون أهلا لبلوغ ملكوته لا يقتضي له أن يقدم النذور ويقف عند حد ما رسمته الشريعة؛ كما فعل الفريسيون اليهود، أو عبدة الأرباب القديمة "فإن المتعبدين الحقيقيين يعبدون أباهم بالفكر وبالحقيقة" وكلمة المسيح هي جماع آدابهم، وهي "كونوا كاملين مثل أبيكم الذي في السماوات فإنه كامل".

الحواريون عهد إلى الاثنى عشر حواريا الذين كانوا ملتفين حول المسيح أن يبشروا بتعاليمه في الأمم بأسرها فدعوا بالحواريين (المرسلين) سكن معظمهم

القدس ودعوا إلى دينهم في أرض اليهودية، وكان المتنصرة الأول من الإسرائيليين.

وكان شاؤول أول من دان بالنصرانية وحف يحمل تعاليم هذا الدين إلى أمم الشرق فقضى بولس (هو الاسم الذي اتخذه) حياته يطوف المدن اليونانية في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومكدونية داعيا إلى الدين الجديد لا الإسرائيليين فقط، بل أبناء الأمم الأخرى قائلا كنتم فيما سبق بدون المسيح بعيدين عن المخالفات والوعود وها قد التأم شملكم بدم المسيح؛ لأنه هو لا يميز بين الشعبين وينظر إليهما كأنهما شعب واحد، ولم يعد من حاجة أن يكون المرء إسرائيليا، حتى ينتحل النصرانية فإن الأمم الأخرى التي نبذتها شريعة موسى قد تقاربت فيما بينها بفضل شريعة المسيح، وهذا الامتزاج هو بصنع القديس بولس ولذا سمي رسول الأمم.

كان المتحلون للنصرانية بادئ بدء من يونان آسيا الصغرى، ثم تنصر كثيرون في جميع المدن الكبرى وأتى زمن طويل والطائفة المسيحية في رومية أيضا مؤلفة من أبناء يونان فانتشر دين المسيح أولا ببطء على نحو ما بشر بذلك المسيح بقوله "يشبه ملكوت الله حبة من الخردل فهي أصغر الحبوب ومع هذا ينبت منها نبات أطول من جميع البقول فتؤوي طيور السماء إلى ظلها".

الكنيسة الأصلية- كان المسيحيون في جميع البلاد التي نزلوها يجتمعون للصلاة جماعة وإنشاد أماديح المولى وللاحتفال بالعشاء السري، وهي أكلة يتناولونها بالاشتراك تذكارا لآخر أكلة للمسيح وتسمى اجتماعاتهم الكنيسة (المجلس).

ومن العادة أن يعامل المسيحيون في كنيسة واحدة بعضهم بعضا معاملة الأخوة ويأتون بالعطايا لينفقوها على الأرامل والفقراء والمرضى وأكثر رجالهم احتراما بينهم الرهبان ومعنى ذلك القدماء يديرون شؤون الطائفة ويقومون بالفروض الدينية ويتولى آخرون النظر في أملاك الطائفة، وكانوا يدعون

الشمامسة (الملاحظون)، ثم كثرت أعمال الكنيسة، حتى انقسم سواد المسيحيين إلى فرقتين إحداهما جماعة المكلفين بالنظر في وظائف الطائفة وسموهم رجال الكهنوت (أي خدمة الرب) والباقون هم جمهور المؤمنين وسموهم العامة (العلمانيين) كان لكل مدينة كنيسة مستقلة فيقولون كنيسة انطاكية وكنيسة كورنت وكنيسة رومية وكلها في الحقيقة كنيسة واحدة، وهي كنيسة المسيح، حيث كان يربط الجميع الاعتقاد بإيمان واحد فالاعتقاد العام، أو الكاثوليكي كان هو المعول عليه دون سواه، أما الأراء الخاصة (الهرطقات والآحاد)، فكان يحكم عليها بأنها أوهام وأغلاط.

وبقي الكتاب المقدس عند اليهود، أي: العهد القديم مقدسا عند المسيحيين وصار لهؤلاء كتب أخرى جمعتها الكنيسة في مصحف واحد وسمتها العهد الجديد فالأناجيل الأربعة تقص حياة المسيح والبشارة بما حمله من السلام وأعمال المرسل تذكر كيف انتشرت هذه البشارة في العالم ورسائل الرسل هي رسائل أرسلها الحواريون إلى مسيحي العهد الأول والأبوكاليبسيس (رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي، أو الحليان) هو ما أوحاه القديس يوحنا إلى السبع كنائس في آسيا كتبت جميع كتابات العهد الجديد باليونانية، وهي اللغة التي كانت لغة المسيحيين إلى أواخر القرن الثاني، وقد انتشر بين المسيحيين كثير من الكتب زعموا إنها مقدسة فرفضتها الكنيسة كلها وسموها المزورة.

الاضطهادات- اضطهدت الديانة المسيحية منذ ظهورها، فكان اليهود أعداءها الأول اضطروا الحاكم الروماني في بلادهم إلى صلب المسيح ورجموا القديس أتين (الشهيد الأول) واشتدوا في طلب القديس بولس وكادوا يقتلونه، ثم وقع الاضطهاد على النصرانية من الرومان فإن هؤلاء كانوا يتسامحون مع جميع أديان الشرق؛ لأن عبدة أوزيريس وميترا والربة الصالحة كانوا يعترفون بالأديان الرومانية مع أربابهم إلا أن المسيحيين عبدة الله الحي كانوا يزدرون بالمعبودات الصغيرة القديمة، بل إن الجريمة الكبرى التي تعد على المسيحيين في

نظر الرومانيين أنهم كانوا يأبون عبادة الإمبراطور؛ كما يعبد رب، وأن يحرقوا البخور على مذبح ربة رومية.

وقد أصدر كثير من الإمبراطرة أوامر إلى ولاتهم يأمرونهم بالقبض على المسيحيين وإعدامهم، وقد كتب بلين، وكان واليا في آسيا إلى الإمبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون، قال: "جريت الآن مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية، وهو إني أسألهم عما إذا كانوا مسيحيين فإذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهددا إياهم بالقتل فإن أصروا أنفذ عقوبة الإعدام عليهم مقتنعا بأن غلطهم الذي يعترفون به مهما كانت فظاعته، وإن عنادهم الشديد وعدم طاعتهم يستحقان العقوبة، وقد وجهت الشكوى إلى كثيرين بكتب لم تذيل بأسماء أصحابها فأنكروا بأنهم نصارى وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءها أمامهم وقدموا الخمر والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأرباب، بل إنهم شتموا المسيح ويقال: إن من الصعب إكراه النصارى الحقيقيين، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم وخطأهم محصوران في أنهم اجتمعوا بعض أيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على إنه رب، وعلى إنشاد الأناشيد إكراما له وتعاهدوا بينهم مقسمين الأيمانات لا على ارتكاب جريمة، بل على أن لا يسرقوا، ولا يقتلوا، ولا يرنوا ويوفوا بعهودهم ورأيت من الضرورة للوقوف على الحقيقة أن أعذب امرأتين أمتين دعوهما خادمتي الكنيسة، بيد إني لم أقف على شيء اللهم إلا ما كان من خرافة سخيفة مبالغ فيها".

وعلى هذا، فقد كانت الحكومة هي المضطهدة[٣٧] إلا أن العامة في المدن الكبرى كانوا أكثر اضطهادا للمسيحيين، فلم يكونوا يتسامحون مع هؤلاء الذين يعبدون إلها آخر غير أربابهم ويحتقر هذه الأرباب ويرون أن إنكار المسيحيين

---

(٣٧) تقول الكنيسة إن المسيحيين اضطهدوا مرات الأولى على عهد بيروت (٦٤) والثانية على عهد ديوكلسين (٣٠٣).

لما يعبد الرومان يجلب على العالم غضب هذه الأرباب وكنت تسمع القوم إذا وقع قحط ومجاعة ووباء يهتفون هتافهم الذي اشتهر أمره "النصارى للأسود" والشعب يكره الحكام على البحث عن المسيحيين ومطاردتهم.

الشهداء- هلك ألوف من المسيحيين في خلال قرنين ونصف نالهم الاضطهاد في طول المملكة الرومانية وعرضها، وكان الهالكون من كل سن وجنس وطبقة فالوطنيون الرومانيون تضرب أعناقهم؛ كما جرى للقديس بولس والباقون يصلبون ويحرقون وكثيرا ما يلقون للوحوش الكاسرة تنهشهم، وإذا أبقوا عليهم يبعثون بهم إلى الأعمال الشاقة في المناجم وكثيرا ما كانوا يبالغون في عقاب النصارى بإيجاد وسائل لإهلاكهم من كل نوع ففي المقتلة العظمى التي وقعت في ليون سنة ١٧٧ أخذ المسيحيون بعد أن عذبوا وسجنوا في مطبق ضيق إلى الملعب فأخذت الحيوانات الكاسرة تمزق أوصالهم، ولا تقتلهم، ثم أجلسوهم على كراسي من حديد محماة بالنار وإذ قاومت فتاة من الإماء اسمها بلاندين إن تعذب على هذه الصورة جعلوها في شبكة ووضعوها أمام ثور غضبان.

وكان المسيحيون يتلقون بسرور هذا التعذيب الذي يفتح لهم أبواب السماوات ويرون فيه وسيلة إلى الاستشهاد علنا في حب المسيح، ولذلك كانوا يسمون أنفسهم بالشهداء (أي الشهود) لا بالمنكوبين وعقوبتهم شهادة، بل إنهم كانوا ينظرون إلى تعذيبهم نظرهم إلى قتال الألعاب الأولمبية ويرون إنهم كالمصارع الظافر ينالون الفخار والتاج، وما برحوا، حتى اليوم يحتفلون بعيد الشهداء وأعيادهم موافقة للأيام التي قتلوا فيها وكثيرا ما كان أحد من يحضرون تعذيب أحد الشهداء يكتب قصته وكيفية توقيفه واستنطاقه وتعذيبه وعقوبته، وهذه الكتابات على اختصارها طافحة بالعبرة، وكانت تسمى أعمال الشهداء وتنتشر، حتى بين الطوائف البعيدة من أقصى المملكة إلى أقصاها، وما هي إلا مرددة للمجد الذي أحرزه المعترفون بالإيمان الصحيح وداعية إلى الترغيب في الجري على مثالهم.

ولقد حدا حب الشهادة بألوف من المسيحيين أن يعلنوا أمرهم بأنفسهم ويطالبوا بالحكم عليهم وأمر أحد حكام آسيا ذات يوم بإلقاء القبض على بعض المسيحيين فجاء جميع متنصرة المدينة يتقدمون للمحكمة طالبين إليها محاكمتهم فاستشاط الوالي غضبا فقتل بعضهم وطرد الآخرين قائلا "أرجعوا إليها الأسافل إن كنتم تحرصون كثيرا على الموت فهل عندكم قبور تسعكم وحبال تقيدكم"، وكان بعض المسيحيين يدخلون المعابد ويقلبون فيها أصنام الأرباب ليكونوا على دقة من أنهم يشنقون، حتى قضت الحال أن تمنع الكنيسة مرات تعرض النصارى لنيل الشهادة.

الدياميس- كان المسيحيون ينكرون العادة القديمة في إحراق الموتى فأخذوا يدفنون موتاهم كاليهود في نواويس بعد أن يكفنوهم في أكفان فاحتاجوا إلى قبور وإذ كانت الأرض غالية الثمن جدا نزل المسيحيون إلى تحت الأرض وحفروا في الأرض الرخوة التي كانت رومية قائمة عليها دهاليز طويلة وغرفا أرضية، وهناك كان المسيحيون في مقاصير احتفروها على طول الحواجز يدفنون موتاهم وإذ أخذ كل جيل يحتفر لنفسه دهاليز جديدة صارت تحت الأرض مع الزمن مدينة أرضية سموها الدياميس ومثل هذه الدياميس كان في نابولي وميلان والإسكندرية إلا أن أشهرها دياميس رومية، وقد فتحت في أيامنا فرأوا فيها ألوفا من القبور والكتابات النصرانية وباكتشاف هذا العالم المدفون تحت الأرض نشأ فرع جديد من فروع العلوم التاريخية، وهو علم الكتابات والآثار النصرانية، وقد شوهد أن قاعات المدافن في الدياميس منقوشة برسوم بسيطة وصور ولكنها تمثل مشاهد واحدة إلا قليلا، وهي إما أن تصور المؤمنين من المسيحيين في الصلاة، أو الراعي الصالح، وهو رمز للمسيح، وكانت بعض هذه القاعات أشبه بالمعابد وفيها دفنوا جثث القديسين الشهداء والمؤمنين الذين رغبوا في أن يدفنوا في جوارهم، وكانوا يأتون كل سنة لتناول الأسرار وكثيرا ما التجأ المسيحيون في رومية خلال اضطهادات القرن الثالث إلى هذه الكنائس الأرضية

للقيام بصلواتهم، أو للفرار من الطلب عليهم.

قسطنطين

تغلب النصرانية- مضى القرنان الأولان للميلاد والمسيحيون ضعاف الشأن في الإمبراطورية الرومانية وجمهورهم من السوقة والعملة والعبيد المعتقين والعبيد ممن يضيعون في عمار الناس بالمدن الكبرى، وقد مضى زمن والطبقة العالية تنكر وجودهم، حتى إن سويتون في القرن الثاني لما تكلم في تاريخ القياصرة على المسيح، قال: إنه رجل اسمه كريستوس يلقي الاضطراب بين سكان رومية، ولما أخذ الأغنياء والأدباء يعنون بأمر الدين الجديد لم يكن ذلك منهم إلا ليهزءوا به، ولا يذكرونه إلا أنه دين فقراء وجهلة وإذ جاءت النصرانية لمساكين هذا العالم بأن وعدتهم الجزاء عن هذه الحياة في الآخرة كثر أشياعها والقائلون بالتدين بها، ولم تحل الاضطهادات دون انتشارها، بل قوتها وبعثت كلمتها، فقد كان المسيحيون يقولون إن دم الشهداء نذر للمسيحيين، ولقد ظل الاهتداء إلى النصرانية ينتشر خلال القرن الثالث كله بين رجال الأسرات الكبرى لا بين الفقراء فقط، وما جاءت أوائل القرن الرابع إلا، وقد أصبح الشرق كله، أي: البلاد التي تتكلم باللغة اليونانية مسيحيا بأسره.

وكانت هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين مسيحية فجعلتها الكنيسة في مصاف القديسات، ولما زحف هذا الإمبراطور على مزاحمة ملك رومية وضع على علمه شارة الصليب وشعار المسيح، وكانت الغلبة التي كتبت له غلبة للنصرانية فسمح للنصارى أن يقوموا بشعائر دينهم دون أن يعارضهم أحد (بأمره الصادر سنة ٣١٣)، ثم أخذ يعطف عليهم جهارا ومع هذا لم يتخل عن الدين القديم (الوثنية) فبينا كنت تراه يرأس مجلس أساقفة المسيحيين الأعلى كان يلقب بلقب الحبر الأعظم ويحمل على خوذته مسمارا من الصليب الحقيقي ونقوده منقوش عليها صورة رب الشمس، وقد أنشأ في مدينة القسطنطينية كنيسة نصرانية؛ كما أنشأ معبدا تذكارا لهذه الغلبة ومضى نصف قرن كان فيه من

الصعب معرفة دين المملكة الرسمي في الإمبراطورية.

تنظيم الكنيسة- لم يخطر في بال المسيحيين، حتى في الأزمان التي نالهم فيها الاضطهاد أن يقلبوا كيان الإمبراطورية ومنذ بطل اضطهادهم أصبح أساقفتهم حلفاء الإمبراطور وعندما انتظمت حالة الكنيسة المسيحية بصورة قطعية على الصورة التي بقيت عليها إلى يومنا هذا فصار لكل مدينة أسقف يقيم في الحاضرة ويحكم على المسيحيين التابعين لها وتسمى الأرض الخاضعة لأسقف إبرشية، وكان في أقطار الإمبراطورية الرومانية أبرشيات وأساقفة على قدر ما فيها من مدن، وهذا هو السبب الذي من أجله كان الأساقفة كثيرين والأبرشيات صغيرة في الشرق، وفي إيطاليا، حيث كثر عدد المدن، وعلى العكس في مدن غاليا فإنه لم يكن بين الرين والبيرية سوى ١٢٠ أبرشية ومعظمها ما عدا أبرشيات الجنوب في الحكومة كولاية.

أصبحت كل ولاية مقاطعة كنائسية وسمي أسقف العاصمة وأسقف المركز بعد رئيس الأساقفة وكثيرا ما ينظر إلى أسقف أعظم مدينة في بقعة بأنه أرقى الأساقفة في تلك الأرجاء، وكان أساقفة المدن الرئيسة بالشرق في القدس وأنطاكية والإسكندرية والأستانة يدعون بالبطاركة وفوقهم كلهم البابا أسقف رومية، وهو الرئيس الأعظم في الكنيسة، وفي هذا القرن أنشئت المجامع الدينية الكبرى، فكان في آسيا الصغرى أولا مجامع خاصة يجتمع فيها أساقفة ناحية من النواحي وكهنتها، وفي سنة ٣٢٤ دعا قسطنطين للمرة الأولى مجمعا دينيا عاما من أهل الأرض إلى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فحضره ٣١٨ رجلا من رجال الكنيسة فتناقشوا في المسائل اللاهوتية وأنشئوا الاعتراف بأيمان الكاثوليك الذي سموه قانون نيقية ومازال المسيحيون ينشدونه إلى اليوم في قداس كل أحد، ثم كتب الإمبراطور إلى عامة الكنائس أن تمتثل إرادة المولى التي تجلت فيما أجمع عليه المجمع العام، وكان هذا هو المجمع المسكوني الأول وأصبحت القرارات التي تقررها المجامع شريعة يجب على المسيحيين قاطبة أن

يعملوا بها وسموها القوانين، أو القواعد ويتألف من مجموع هذه القواعد القوانين الكنائسية.

الملاحدة (الهراطقة)- نشأ منذ القرن الثاني بين المسيحيين ملاحدة يخالفون في آرائهم السواد الأعظم من أبناء الكنيسة وكثيرا ما اجتمع الأساقفة في بلد ليعلنوا للمؤمنين أن المذهب الجديد باطل ويكرهوا مبتدعه على الرجوع عنه، وإذا أبى يخرجونه من الوحدة المسيحية، وقد يستجيش صاحب البدعة أعوانا يقتنعون بصحة دعوته فلا يرون الرجوع عما وافقوه عليه ويظلون يدينون بما حكم المجمع برده من الآراء، ومن هنا نشأت العداوات والفتن الشديدة بينهم وبين المسيحيين المتعلقين برأي الكنيسة (الأرثوذكس) وإذ كان المسيحيون ضعافا ومضطهدين لم يتنازعوا بينهم إلا بالكلام والكتابة، ولكن لما أصبحت البلاد مسيحية كلها استحال النزاع بين المسيحيين والمخالفين منهم في بعض الآراء إلى اضطهاد الملاحدة وكثيرا ما تنشب منه حروب أهلية.

وتكاد تنشأ جميع البدع في ذاك العهد بين يونان آسيا ومصر على يد أناس من الأذكياء والسفسطائيين والمجادلين، وقد نشأت تلك البدع في العادة من محاولة فهم أسرار التثليث والتجسد، وكانت بدعة آريوس أقوى جميع البدع فمن مذهبه أن الله الآب خلق المسيح، وليس هو مثله فحكم المجمع النيقي بتبديعه، ولكن مذهبه انتشر في بلاد الشرق عامة ومذ ذاك العهد ظل الكاثوليك والآريوسيون يتنازعون بينهم أيهم يستأثر بالسلطة في الكنيسة والحزب القوى يعزل وينفي ويحبس وأحيانا يذبح زعماء الحزب المخالف ومضى زمن والقوة للآريوسيين، وقد تحزب لقولهم عدة من الإمبراطرة، ثم إن الآريوسية كانت تقوى بكثرة دخول البرابرة في الإمبراطورية وتمذهبهم بهذا المذهب ومعاضدتهم لأساقفته فقضى الكاثوليك زهاء مائتي سنة، حتى قضوا على هذا المذهب المبتدع.

لما ذبح الجنود أخوة قسطنطين وأبناء أخته سنة ٣٢٨ أفلت منهم طفل في السادسة من عمره اسمه جولين فجعله الإمبراطور نسيبه في آسيا الصغرى ورباه على يد قسيسين مسيحيين فبعث به هؤلاء إلى قبر الشهداء ينشد المزامير ويتلو الكتاب المقدس أمام الشعب، ولما شب رخص له بالقدوم إلى الأستانة فأنشأ يدرس كتب بلغاء الروم وفلاسفتهم وأولع بأحد الفلاسفة الأفلاطونيين فانصرفت نفسه عن النصرانية وأتم دروسه في أثينا وتعلم فيها أسرار معبد الوزيس، ثم جاهر بأنه من أشياع الدين القديم علنا وأخذ يحتفل بعبادة الأرباب فلقبه المسيحيون بالمرتد.

كان جولين آخر من بقي حيا من الأسرة الإمبراطورية وإذ لم يكن للإمبراطور قسطنطين وارث يرثه غير هذا أجمع أمره على أن يلقبه باسم قيصر وبعث به قائدا على جيش غاليا (٣٥٥)، وكانت البرابرة قد هاجمت هذه البلاد وجاءت عصابة من الألمانيين على مقربة من مدينة أوتون وإذ لم يكن لجولين خبرة بالحرب انصرفت همته إلى درس الفلسفة فصرف شتاء بطوله في تعلم صناعة الكر والفر وأنشأ يريض نفسه ويتمرن ويتلو سيرة مشاهيرة الغزاة فلما تم له ذلك حمل على الألمان في جيش صغير من المشاة الرومانيين والفرسان البرابرة فكتب له الظفر في الحملة الثانية في سهل بالقرب من مدينة ستراسبورغ وركب أكتاف الألمان ورجعوا يجتازون نهر الرين (٣٥٧) وقضى جولين في غاليا ثلاث سنين أخرى وجعل مشتاه في بلدة لوتيس حاضرة الشعب الباريزي، وهي مدينة في جزيرة من جزر السين، وكان يدعوها "لوتيس المحبوبة"، وهو أول من وصفها.

وفي هذه المدينة أتاه أمر الإمبراطور أن يبعث إليه بقسم من جيشه إلى الشرق ليقاتل البارتيين الذين داهموا بلاد الإمبراطورية، فلم ير الجند أن يبتعدوا عن بلادهم إلى مثل تلك القاصية وأبوا أن يقاتلوا، ثم أخذوا جولين ورفعوه على ترس (وكان هذا الأسلوب هو الذي يجري عليه المحاربون الجرمانيون في مبايعة

ملوكهم) وحملوه، وهم ينادون "جولين أغسطس" (٣٦٠).

فكتب جولين إلى الإمبراطور يريده على أن يرتضيه رصيفا له فأبى قسطنطين عليه ذلك فزحف جولين في جيشه على القسطنطينية، وكان قسطنطين قضى نحبه قبل وصوله (٣٦١).

ولما خلا الجو لجولين وأصبح إمبراطورا وحده أقام في الشرق وحاول أن يعيد الدين القديم (الوثنية) فأرجع إلى الكهنة أملاكهم ومناصبهم وأعاد تقديم النذور للأرباب، بل أصدر أمره إلى المسيحيين بأن يرجعوا المعابد التي كانوا حولوها إلى كنائس.

وأنشأ يناهض النصرانية مباشرة وأبى أن يعين المسيحيين في الوظائف وطرد المعلمين المسيحيين من المدارس قائلا إنه لا يحق لهم أن يدرسوا كتبا يذكر فيها اسم الأرباب، وهم لا يعتقدون فيها وسعى إلى إعادة الدين القديم إلى حاله بأن عهد إلى الكهنة أن يقرءوا على العامة مواعظ ودروسا دينية إلا أن الزمن خانه فسافر في حملة على البارتيين وغلبهم وأصيب بسهم في إحدى المعارك، وقيل: إنه صرح، وهو يجود بنفسه "لقد غلبتَ يا عاليلي!".

القضاء على الوثنية- لم يقض على دين السوقة القديم لأول مرة، فقد اهتدى الشرق في الحال، أما في الغرب، فلم يبق مسيحيون إلا في المدن، بل إن الأمة ظلت هنا أيضا تعبد الأصنام وذلك؛ لأن الإمبراطرة الأول المسيحيين لم يريدوا أن يقضوا القضاء الأخير على دين المملكة القديم، بل كانوا يحمون القسيسين المسيحيين؛ كما يحمون كهنة الأرباب يرأسون المجامع الدينية ويبقون أحبارا عظاما، وكان الإمبراطور فراسين سنة ٣٨٤ أول من أبى أن يلقب بالحبر الأعظم وإذ عم التسامح في ذاك القرن بدئ باضطهاد الدين الروماني منذ غدا غير رسمي وأطفئ الموقد المقدس الذي كان يشتعل في رومية منذ أحد عشر قرنا وطردت الكاهنات اللاتي كن في معبد فستا يوقدن النار كلما خمدت واحتفل آخر مرة بالألعاب الأولبية في بلاد يونان سنة ٣٩٤ وعندئذ خرج النساك في مصر من

الصحراء لينقصوا مذابح الأرباب المرورة ويجعلوا بقاياها في قبور أنوبيس وسيرابيس وقام وارسل الأسقف السوري في مقدمة عصابة من الجند والمشعوذين فخرب معبد المشتري في أولمبية وأنشأ يجوب البلاد ويخرب المزارات فقتله الفلاحون فجعلته الكنيسة من القديسين.

فما هو إلا قليل، حتى لم يبق عبدة أوثان إلا في القرى يأوون إليها فرارا من المراقبة، وهم فُلاحون ممن بقوا يعبدون الأشجار المقدسة والينابيع ويجتمعون في المزارات البعيدة وأخذ المسيحيون يطلقون اسم الوثنيين (الفلاحين) على من كانوا سموهم إلى ذاك العهد بالظرفاء وبقي ذاك الاسم يطلق عليهم وهكذا اشتدت الحال على الوثنية في إيطاليا وغاليا وإسبانيا إلى أواخر القرن الرابع وطوي بساطها تحت طي السكوت.

التنظيم الجديد في الإمبراطورية

رومية والقسطنطينية- خرب الغرب وقل سكانه في القرن الثالث بما تواتر عليه من الحروب والغارات فأصبح الشرق اليوناني القسم المهم من الإمبراطورية، وكان ديوكلسين قد تخلى عن رومية وجعل عاصمته في نيكوميديا في آسيا الصغرى، أما قسطنطين فتوسع في الأمر أكثر من ذلك فأنشأ رومية جديدة في الشرق، وكانت القسطنطينية على رأس من البحر في محل لا يفصل أوروبا عن آسيا غير خليج البوسفور الضيق في أرض كثيرة الكروم والغلات وتحت سماء صافية الأديم وأنشأ طوارئ من الروم مدينة بيزانس، وكان لها من الآكام ما يجعلها سهلة على الدفاع ومرفأها المعروف بقرن الذهب من أحسن مرافئ العالم يؤوي ١٣٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسلة طولها ٣٥٠ مترا لئلا يتخطاه أساطيل العدو فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في أطرافها أسوارا عالية وانشأ فيها ساحتين أثريتين تحيط بهما أروقة وأنشئوا فيها قصرا وملعبا ودور تمثيل وأفنية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية.

ونزع قسطنطين من المدن الأخرى ما كان فيها من التماثيل والنقوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولأجل إسكانها نقل إليها سكان المدن المجاورة بالقوة وقدر مكافآت وألقاب تشريف للأسر الكبرى التي تنتقل إليها وقرر؛ كما كان الحال في رومية توزيع الحنطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرج لهم.

فكان تأسيس تلك العاصمة من السرعة العربية على نحو ما يحب القوم في الشرق فبدأ العمل بذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ واحتفل بافتتاحها في ١١ آيار (مايو) سنة ٣٣٠، ولكن أسست بحيث تبقى على الدهر، فقد صبرت القسطنطينية على هجمات المهاجمين عشرة قرون وبقيت بمقام عاصمة أبدا والمملكة الرومانية تمرق، ولا تزال إلى اليوم أول مدينة في الشرق.

ولما ترك الإمبراطور رومية لم تعد مقرا للحكومة وظل فيها مجلس أعيانها، وإن لم تعد له سلطة وبقيت مزاراتها واحتفالاتها؛ كما بقيت إلى أواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم.

القصر- أخذ الإمبراطرة الذين نزلوا الشرق التعود بعاداته[٣٨] وأنشئوا يلبسون ثيابا ضافية من الحرير والقصب ويجعلون على رؤوسهم تاجا مرصعا باللؤلؤ ويتحجبون في قصورهم، حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزراؤهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس، وعلى من ينال شرف الحظوة من مواجهتهم أن يسجد أمامهم ويمرغ وجهه في الأرض علامة العبادة والخضوع ويطلقون عليهم ألقاب "المولى" و"الجلالة"

(٣٨) كثيرا ما يتولى الإمبراطورية اثنان واحد في الشرق والآخر في الغرب، وإن تكن المملكة واحدة فالإمبراطوران، وإن كان أحدهما ينزل الأستانة والآخر إيطاليا كانا يعنيان بأن يكونا كشخص واحد، فكان القوم إذا خاطبوا أحدهما يخاطبونه بالجمع فيقولون له أنتم كأنهم يخاطبون الإمبراطورين كليهما وهكذا نشأت عادة الخطاب بالجمع للمفرد؛ لأن الناس في القديم كانوا يخاطبون بصيغة المفرد "أنت"، حتى الملوك والإمبراطرة

ويعاملونهم معاملة الأرباب وكل ما يمس أشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة ومجلس الإمبراطورية المقدس والخزانة المقدسة.

فكان عيش الإمبراطور في الإمبراطورية العربية (إيطاليا) من القرن الأول إلى الثالث أشبه بحياة حاكم، أو قائد، أما قصر الإمبراطور في الإمبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو أشبه بقصر ملك فارس، وقد أطلق على طريقة الحكم في الإمبراطورية الشرقية اسم الإمبراطورية الواطئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي لقبوها بالإمبراطورية العالية.

الموظفون- أصبح الموظفون أكثر عددا مما كانوا ويحف بالإمبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره، وهناك حرس وقرناء ووكلاء وخدم وجلس عال وحجاب وسعاة وأمناء سر ينقسمون إلى أربعة مكاتب وأصبح الموظفون في الولايات أكثر سوادا أيضا إذ رأى الإمبراطور ديوكلسين الولايات متسعة فقسمها إلى عدة قطع ففي غاليا مثلا قسم ولاية ليون إلى أربع وأكيتين إلى ثلاث وبعد أن كان في الإمبراطورية ٤٦ واليا أصبح فيها ١١٧، ثم فصلوا الوظائف فجعلوا مع الولاة والوكلاء قوادا عسكريين من دوقات وكنتية في الولايات الواقعة على التخوم.

وأصبح جميع الموظفين لا تصلهم أوامر الإمبراطور مباشرة فلا يخاطبون إلا كبار الموظفين رؤساءهم فيخضع الولاة لقائدي حرس القيصر والموظفون في الأشغال العمومية لحرس المدينة وجباة الأموال إلى الكونت الذي يتولى الأعطيات المقدسة والوكلاء للكونت المشرف على الأملاك والضباط إلى موالي الأجناد وجميع موظفي القصر يرجعون إلى مولى التشريفات وخدمة القصر إلى رئيس الغرفة المقدسة وهؤلاء الرؤساء كالوزراء.

وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها، فقد اعتدنا أن نرى موظفين وقضاة وقوادا وجباة ومهندسين على اختلاف في أعمالهم التي يتولونها، ولكل واحد عمله الخاص ويرجع أمرهم إلى ناظر هو رئيس ديوانه، بل إن عندنا من النظارات أكثر

مما في الأستانة إلا أن هذه الأداة الإدارية التي ألفناها لأننا نعرفها منذ الطفولة ليس فيها التباس، ولا خروج عن حد الطبيعة، فقد كانت الإمبراطورية الشرقية أنموذجا في هذا الباب واحتفظت به المملكة البيزنطية، ومن ذاك العهد حاولت جميع الحكومات المطلقة أن تنسج على منوالها؛ لأن في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون أعمال الحكم.

المجتمع في الإمبراطورية الشرقية كانت هذه الإمبراطورية هي الحد الفاصل في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع فخفخة ملوك الشرق يتألف منهما سلطة لم يكن بها عهد إل ذاك العهد، وهذه السلطة التي لم يسمع بمثلها تأتي على كل شيء في يدها، فلم يعد سكان الإمبراطورية وطنيين رومانيين منذ القرن الرابع، بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعون) وبالرومية "العبيد" فكانوا كلهم من ثم عبيد الإمبراطورية ولكنهم يختلفون في المقام، وهم درجات في الشرف الذي يوليهم إياه مولاهم ويورثونه أبناءهم وإليك تلك المناصب بحسب درجاتها.

(١) أشرف الأشراف، وهم الأسرة الإمبراطورية.

(٢) المشاهير، وهم وزراء رؤساء الدواوين.

(٣) المعتبرون، وهم كبار أرباب المناصب.

(٤) الممجدون، وهم كبار الموظفين (ويدعون الأعيان).

(٥) أهل الكمال.

ولكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه وأكثر الناس احتراما الندماء والموظفون، حتى صح أن يدعى ذاك العهد عهد اللقاب والتشريعات، وما قط شوهد إلى، أي: حد تبلغ السلطة المطلقة إذا دعمها الجنون في الألقاب والميل إلى ترتيب كل أمر بالإكثار من القوانين وعليه، فقد كانت الإمبراطورية الشرقية مثالا تاما لمجتمع يدار بالآلهة الصماء والحكومة فنيت في إرادة قيصرها فحازت أكثر ما يتطال إليه، حتى اليوم أنصار السلطة المطلقة وسيكافح بعد أشياع

الحرية زمنا طويلا تلك التقاليد التي أبقتها إمبراطورية الشرق.

حكومة المدينة لم يعتن الرومان بجباية أموال الرعايا بأنفسهم، بل كان الإمبراطور يكتفي ببيان الخراج المطلوب من كل ولاية (وذلك كل خمس سنين في الغالب) ويحدده؛ كما يريد ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها أداؤه فحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب، وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعاً له بين السكان فإذا عجزوا عن الدفع يتحتم على من تولوا الخراج أن يسدوا العجز؛ لأنهم مسئولون عن الخراج وخزانة الإمبراطورية لا تتنازل عن حقوقها.

ولقد كان منصب الجباية، حتى القرن الثالث مرغوبا فيه كأنه من أسباب الشرف فيعد الجابي في مدينته كعضو الشيوخ في رومية، وإذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فتزهق النفوس في توليتها فرأى الإمبراطرة أن ينشئوا قانونا لعقاب من يأبى جباية الخراج فصار الجابي يتولى ذلك رغم أنفه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فدانا من الرض أن يكون أحد الجباة طوعا، أو كرها وكثير من الجباة كانوا يؤثرون أن يخرجوا عما يملكون من الأراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرهينة والحوزية، أو الاستخدام والجندية فأصدر الإمبراطرة أوامرهم بالبحث عن هؤلاء الفارين، وأن يعادوا إلى مدينتهم بالقوة، وقد جاء في أحد القوانين المسنونة أنهم عبيد الإمبراطورية.

فكانت الحكومة تحاول أن تبقي مجالس الشيوخ في المدن على هذه الكيفية وإذ كانت تخرب بيوتهم بخراجها أصبح عدد الجباة أبدا في قلة، وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الإمبراطورية الغربية من مئة عضو، وفي القرن الرابع نشبت فتن في إحدى الولايات فأمر أحد الإمبراطرة أن يأتوه برؤوس ثلاثة من الجباة من كل مدينة فكتب إليه الوالي "ليسع حلمكم أن يقرر ما الذي يجب أن يعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجباة".

المستعمرون وقع في الإمبراطورية الرومانية مثل ما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل إسبارطة ويونان وإيطاليا، وهو أن يضمحل الأحرار ويخلفهم العبيد، ولم يبق في القرى ما يكفيها من الحراثين لا جرم أن المدينة الرومانية لم تحرث، بل كانت آخذة بالماء، فقد كان عدد الوطنيين في القرن الأول زهاء مليون نسمة، وفي القرن الثالث (٢١٢)، وقد صدر أمر الإمبراطور بمنح جميع سكان الإمبراطورية حق الوطنية فصار الوطنيون الرومانيون يعدون بالملايين[٣٩] يمنون باضمحلال سائر سكان العالم، بيد أن الحكم الروماني كان سببا في اضمحلال شعوب المملكة؛ كما اضمحل به من قبل أهل إيطاليا، وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد.

وبهذا الحكم يفلح الأغنياء ويصعب على صغار أرباب الأملاك أن يقعوا أمام الكبراء فيستخدمون في الجندية، أو يحرثون بيوتهم بأيديهم ويقتني صاحب الأملاك الواسعة أراضيهم، حتى أتى زمن لم يبق في بعض البلاد غير أملاك واسعة يحرثها العبيد وهؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فإذا عرض عارض من العوارض المألوفة إذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلك جمهور من الحراثين في إحدى الأملاك تبقى الأرض بورا.

فخلت القرى على التدريج، ولا سيما ما كان منها على التخوم من الناس، ولم يبق سكان إلا في المدن، بل صار في عدة أنحاء من المملكة قفار حقيقية خلت من السكان والعمران فأنشأ الإمبراطرة يسكنون فيها عصابات من البربر ممن ضربوهم وأسروهم ليحيوا بهم موات تلك القرى إلا أن هؤلاء البرابرة لا يملكون الأراضي، بل يستعمرونها فقط مثل الهيلوتيين في إسبارطة ويقضى عليهم أن

---

(٣٩) كان سكان المملكة يدعون كلهم بالرومانيين منذ ذاك العهد ولما دخل البرابرة إلى عالياً لم يجدوا فيها عاليين بل رومانيين، حتى كان الشعب في الشرق، حيث كان السكان يتكلمون باليونانية يدعى إلى عهد الفتح العثماني بالشعب الروماني ومازالت إلى اليوم بلاد الأستانة تدعى روم إيلي.

يبقوا في الأرض التي أنزلوا فيها لا يفارقونها، ولا أولادهم بحال يؤدون إلى صاحب الأرض مالا مقررا فمن، ثم كانوا مستأجرين إلى الأبد بالقوة، وليس هذا النظام جديدا، بل كان في إيطاليا على عهد الإمبراطورية الشرقية أناس من الطوارئ من الأحرار الفقراء قيدوا أنفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم لينالوا منه أرضا يزرعونها وزاد سواد هؤلاء الطوارئ زيادة كبرى لما ضموا إليهم الأسرى من البربر.

وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في إحياء أمة؛ لأن أولئك الحراثين كانوا يفرون، أو يهلكون، وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظمى من المحرثين (داكيرواتيلا) كان في أراضي المملكة فراغ كبير تعذر على الإمبراطرة أن يسدوه وبقي في غاليا وإسبانيا وإيطاليا، وفي الغرب كله جزء من الأراضي بورا لقلة العاملين فيها وأقفرت ولايات التخوم، وقد اضمحل الشعب الروماني في جميع حوض الطونة من سويسرا إلى البلقان منذ القرن السادس، فلم يكن في تلك البلاد إلا أمم جرمانية، أو سلافية، حتى أن الفرنك لم يجدوا في البلجيك غير قفر.

البرابرة في الجيش الروماني هذه الأراضي الحالية تستدعي سكانا جددا، فكان البرابرة يحاولون على الدوام أن يتخطوها، وما دام للحكومة الرومانية بعض جيش لا يصعب عليها أن تردهم على أعقابهم إلا أن الأمر في التجنيد صار إلى الصعوبة كإيجاد المال وألف سكان الإمبراطورية حياة السكون، ولم يعودوا يهتمون بخدمة الجندية، حتى اضطرت الحكومة أن تطلب جندا من كبار أرباب الأملاك فيأخذ هؤلاء بعض الطوارئ الذين يعملون في أراضيهم، فكان هؤلاء المساكين المأخوذين بالقوة من وراء محاريثهم جندا غير كفؤ للقتال وغدت الجنود منذ القرن الرابع من الضعف بحيث لا تستطيع حمل الدروع واستعاضت عن الخوذ بالقبعات.

وأصبح القواد يؤثرون أن يستعملوا المحاربين من البربر؛ لأنهم يقاتلون بشدة

على الأقل، وقد جندت الإمبراطورية في خدمتها منذ زمن جنودا من الجرمانيين يتناولون جرايات ويقاتلون بأسلحتهم، وكان أكثرهم من الفرسان وأخذ امبراطرة الرومان في القرن الرابع يجندون منهم عصابات برمتها ينزلون مع نسائهم وأولادهم وخدمهم في أراض يهبونهم إياها على سبيل الجراية ويحتفظ هؤلاء المحاربون النازلون في أرض رومانية بلغتهم وعاداتهم ويسلاحهم وزعمائهم ويدعون "المحالفين" وبلغ بالإمبراطور أنه أخذ يقبل منهم في جيشه شعوبا برمتها مثل الوزيغوت والبورتمند، وكانوا اجتازوا التخوم بالقوة أحيانا، ثم آثروا أن يكونوا في خدمته على أن يقاتلوه فأصبحت إذ ذاك جيوش رومانية مؤلفة من شعوب بربرية يقودها قائد بربري، ولقد كان الجيش الروماني الذي رد غارة أتيلا سنة ٤٥١ مؤلفا من الوزيغوث والفرنك والبورتمند وصار كثير من القواد الرومان منذ القرن الرابع (سيلفاتوس وأريوكاست) ومعظمهم في القرن الخامس (مثل ستيكلون ورسيمير وأدواكر) من أصل بربري، ولم تعد الإمبراطورية الرومانية محمية إلا بأناس من المحاربين من البرابرة فاحتلها بعد أبناء جنسهم.

المحتويات